أحمد عبد الحليم

مَن يَمتلِك حَقَّ الجسَد؟

قِراءةٌ في الحَياة السِّجنِيَّة







أحمد عبد الحليم

مَن يَمتلِك حَقَّ الجسَد؟

قِراءةٌ في الحياة السِّجنِيَّة







منتدى المشرق والمغرب للشّؤون السجنيَّة
[مشروع بتوقيع **أمم للتوثيق والأبحاث**]

بيروت ٢٠٢٣
لوحة الغلاف: نورهان صندوق



MENA
PRISON
FORUM
مُنتدى المشرق والمغرب
للشُّؤون السِّجنيَّة

www.umam-dr.org | www.memoryatwork.org



إنَّ الآراءَ الـوارِدَةَ فـي هـذه المَطْبوعَـةِ التـي كان إنْجازُهـا ونَشْـرُها بِدَعْـمٍ مِـنْ «مَعْهَـدِ العَلاقـاتِ الثَّقافيَّـةِ الخارِجيَّـة (ifa)» ـــ (المُمَوَّلِ مِـنْ وِزارَةِ الخارجيَّـةِ الألمانيَّـة) ـــ إنَّ هـذه الآراءَ تُعَبِّـرُ، حَصْـرًا، عَـنْ وُجْهَـةِ صاحِبِهـا وناشِـرِها، وعَلَيْـهِ فهـي لا تُلْـزِمُ، بـأيٍّ شَـكْلٍ مِـنَ الأشْـكالِ، المَعْهَـدَ، ولا تَعْكِـسُ، بالضَّـرورةِ، مُقارَبَتَـهُ المُؤَسَّـساتيَّةَ مِـنَ المَسـائِلِ مَوْضـوعِ البَحْـثِ والـرَّأْي.

إلـى أمـي الحـبيــبة ورُوح أبـي في سَـمائـه...
وأخـواتـي الكِـرام.

إلــى كُــلِّ جَــسدٍ مَقــهورٍ بــيَــدِ سُلــطَةٍ مـا.

إلى مينا إبراهيم وهناء جابر ومونيكا بورغمان
ومؤسسة أمم للتوثيق والأبحاث.

إلى كلِّ الضمائر الإنسانية، التي تحدَّثت معنا،
وجميع مَن ساعدَني على إتمام هذا العمل.

الفهـــرس

تـمـهـيــد

في مصر، تاريخــيًّا وبشكلٍ دوريّ، تــناول الكثيرُ من الكُــتابِ والباحثين في نُصوصهـم التـي ناقشـت منظومـة السِّـجن، أو منظومـة العقـاب الشـاملة، بمـا أنهـا تضـمُّ إصلاحيـاتٍ تـأوي القُــصَّرَ مـن المُتهــمين قانونــيًّا بارتكاب جُـرمٍ مـا، بالإضافـة إلـى مراكـز احتــجازٍ فوريـة وسُـجون عموميـة ومَركزيـة للبالغيـن مـن الرجـال والنسـاء.[١] تناولوهـا علـى أنهـا منظومـةٌ مُجتمعيـة متكاملـة، وليسـت مؤسسـةً ضمـن مؤسسـات الدولـة، بـل ووُصِفَــت بأنهـا مُجتمـعٌ منفصـل لـه قوانينـه الحياتيـة الخاصـة التـي وُضعـت لـتَتــناسبَ مـع أهـداف وجودهـا مـن الأسـاس. المؤسسـات العقابيـة فـي مصـر، هـي مؤسسـاتٌ سِـجنية،[٢] هـذا وبسـبب أنَّ مُصطلـحَ العقـاب ربمـا يـدلُّ علـى التهــذيب والإصـلاح، لأنـه وكمـا يُعـرَّف العقـابُ فـي حـالاتٍ كثيـرة، يُصبـح جـزءًا لا يتجـزأ مـن العـلاج، لكـن نحـن هنـا وفـي أولـى فقراتــنا نُطــلِق

(١) نُـنـوِّه أنـه، يوجـد فـرقٌ فـي طـرقِ وأدوات ومنهـجيات العقـاب والاحتــجاز تختــلف مـن مـكانٍ إلـى مـكان ومـن لائحـةٍ إلـى لائحـة. الإصلاحيـة حيـث يُحتجـزُ صغـار السـن، ليسـت كالسـجن العمومــي أو المركــزي.

(٢) سـوف نسـتخدم فـي الكتـاب، مصطــلحَين: الأول، السـجني، ونَعنـي بـه الفضـاء السـجني مـن عُمـران وقانـون، وهـو مـا يكـون بيَـدِ السُّـلطة، أي كُل مـا هـو تابـع للسـلطة سـنَعني بـه السـجني. والثانـي، السـجيني، (بإضافـة يـاء بعـد الجيـم) وهـذا للتعبيـر عـن الفضـاء الـذي يحـوي الاجتمـاع، أي السـجناء، وكل مـا ينتمـي إلـى السـجناء مـن ممارسـات.

مُصطلح السِّجـنية، لانتـفاء غايـة إصـلاح السـجين/ة، واسـتبداله بتدميره/ها، بفعل وجود منظومة تَحوي سُـلطةً تتـباين وظائفها ومراتـبها (الضباط - أمنـاء الشـرطة - المُخبـرون - العسـاكر)، وبدورهـا تُديـر وتُـنظِّم مجتمعًا سجينـيًّا، مُقسمًا إلى اجتماعات (سُجناء وسجينات) تـتباين أيضا سُلطتهم وفقًـا لعوامـل عـدة أهمهـا الطبقـة الماديـة والبنيـة الجسـديّة، عبـر قانـون مُقسَّـم إلـى لوائـح لفظية أي مُوثَّـقة دسـتوريًّا، أو لوائح مَرئـية.[٣] والمرئية هنـا نظـامٌ حياتِـي مرئـي visual system، لا يُلفـظ أي لا يُـدوَّن علـى الـورق بمـا أنـه خـارج إطـار اللوائـح العقابيـة، لكنـه يتعايـش ويطغـى مـن خـلال أدوات وممارسـات السـلطة الفعليـة فـي الفضـاء السـجني.

مِـنَ المُفـترض، وحسـب القانـون المَكـتوب والمُوثَّـق دسـتوريًّا، أن تكونَ سياسـاتُ العقـاب بـحَقِّ السـجناء، هدفهـا الإصـلاح والتهذيب لمَـن خرجوا عـن القانـون. هـذه السياسـات، تبـدأ بالفحـص الشـامل للسَّـجين الوافـدِ مـن الناحيـة البيولوجيـة والقانونية والعقلية والنفسـية والاجتماعية، سَـعيًا إلـى تصنيفـه وإدراجـه فـي المـكان المُلائـم حسـب مـا نـتجَ عـن تلـك الفحوصـات. بعـد ذلـك، يَبـدأ السـجينُ فـي العيـش ضمـن المنظومـة العقابيـة التـي تتـبنَّى لـه خطـةً عقابيـة كاملـة، تشـمل العمـلَ حسـب اللائحـة الصـادرة بحَـقِّ عمالـة السـجين، كذلـك التهذيـب الخُـلقي، إضافـة إلــى الرعايــة الاجتماعيــة والصحيــة والتعليميــة... إلــى آخـره. هكــذا وبتطبيـق خطّـةٍ كاملـة، تُـترجَم فـي نمـطٍ مَعيشـيٍّ منهجـيٍّ شـامل يُراعي

(٣) نظـام الحيـاة المرئـي: هـو الفضـاء الواسـع الـذي تعيـش داخلـه السـلطة والسـجين معًـا، ويكـون لـه تأثيـرٌ مباشـر علـى العلاقـة بينهُمـا، وقـد استَـخدمناه للفصـل بينـه وبيـن النظـام المَلـفوظ المُتبـع قانونـيًّا. للمزيـد انظـر: ميشـيل فوكـو، **أركيولوجيـا المعرفـة**، كذلـك انظـر: محمـد علـي الكـردي، **نظريـة المعرفـة والسـلطة عنـد ميشـيل فوكـو**، الطبعـة الأولـى، ص. ١١، دار المعرفـة الجامعيّـة، الإسـكندرية، ١٩٩٢.

جميعَ الجوانب والزوايا الإصلاحية، يؤهَّل هؤلاء المُذنِبون ـ قانونِيًّا ـ مرةً أخرى، إلى الاندماج في المُجتمع دون انحرافٍ أو جريمة.

لكن ما يحدثُ خلال زمن العقاب، سواء أكان طويلًا متمثلًا في عدة سنوات أم قصيرًا لبضعة أشهر ـ عكس ما هو مُفترض تمامًا، إذ يُعاد هندسة الإنسان. النفسُ والجسدُ يُفكَّكا تمامًا، وتتمُّ إعادة بنائهما مرةً أُخرى من خلال ممارساتٍ كثيرة تَنطوي تحت مرئياتٍ حياتية،(٤) تأخذ شكلاً قانونيًّا وعُرفيًّا داخل الفضاء السجنيّ، يتعارف عليه السجناءُ مع مرور الوقت، ويُطبَّعون معه طوعًا أو كرهًا، ومَن لا يُطبّع معه، يُصبح غريبًا مجنونًا، تُعقِّله السلطة بالعِقاب. مرئياتٌ حياتية، تَمحو الكينونةَ الإنسانية لدى النفس والذات، تنزعُ عنهم سماتٍ أخلاقية وضمائرية طالما تَعارفوا عليها، مثل: الكرامة، الحرية، الاعتراض، النقاش. وتُلبِسهم صفاتٍ أُخرى: المهانة، الخضوع، الطاعة. تُترجَم هذه الصفاتُ وأخواتها عبر إيماءاتِ الجسد واللسان، إذ لا ينطقُ اللسان سوى كلماتٍ تطلبُ المغفرة وتُلبِّي الأوامر بالطاعة، ويهتزُّ ويتمَوضَعُ الجسدُ وفقًا لما تراه سيميائيات Semiotics الخضوع.(٥) وكلُّ هذا عن طريق سياساتٍ منهجية تخترقُ ذاتَ وجسدَ السَّجين، لينتهيَ الأمرُ

---

(٤) النظام المَرئي، مرجع سابق.

(٥) الإيمائِية، ولها أسماء ومُصطلحات عدة، منها: السيميولوجيا / Semiology، السيميوطيقا / Semiotics، السيميائيات/ السيميائية/ السيمياء، علم العلامات / العلاماتية، وعلم الرموز، علم الإشارات / الإشاراتية، علم الأدلة / الدلالية. ونقصد بها هنا حركةَ الجسد ونمط اللغة داخل الفضاء السِّجني. وقد عرَّفها العالمُ اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير أنّها «دراسةُ حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية». للمزيد انظر: سعيد بنكراد، **السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها**، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ٢٠١٢، ص. ٩.

مُكوِّنـا علاقـةً سـادو ـ مازوخيـة BDSM،[٦] ليسـت علـى الطـراز الـذي تبنـاه الكاتـبُ النمسـاوي ليبولـد زاخـر مـازوخ، مـع حبيبتـه فانـدا فـون دانوييـف، أو بمعنـى أدقّ: ربَّـته التـي اخـتار أن يكـونَ عَبدهـا؛ وعلـى إثـر اخـتياره، وقَّـعَ معهـا عقـدًا لفظيًّا موثـقًا يَحوي قانـونَ عُبوديَّـته[٧] ـ بـل علـى طـرازٍ مرئـيٍّ، لا يُكتـب، ولا يـراه أو يُدركـه مَـن تواجـدَ خـارج أسـوار السـجن.

أيضًـا، علـى مـرِّ التاريـخ الحقوقـي فـي مصـر، ركـزتِ المنظمـاتُ الحقوقيـة وكل مـا يَـتـبعُها مـن إصـداراتٍ بيانِـية أو بحثيـة، علـى أحـوال السـجناء السياسـيِّين فقـط، لافتيـن الانـتباه إلـى الانـتهاكات التـي تحـدثُ بحَقهـم مـن حيـث وضعهـم الإنسـاني السـيء وظـروف المعيشـة اللا-آدميـة حـدَّ المـوت داخـل مَقـرات احتجازهـم. لكـن، نـادرًا مـا نظـرَ أو نـظَّر هـؤلاء الباحثـون والحقوقيـون إلـى منظومـة السـجن كسـلطةٍ عقابيـة مُسـتقلة، تضـمُّ فضـاءً يلتقـي فيـه ثُلاثـي السـلطة والمجتمـع والقانـون. هـذا الفضـاء الـذي عـاش أو مـات داخـل حَـيِّزه البنـيَوِيِّ مئـاتُ الآلاف مـن الأرواح والأجسـاد عبـر تاريخـه، بيـن سـجينٍ جنائـي (سنُشـير لـه أحيانًـا بالسـجين الأساسـي، بمـا أنَّ المنظومـةَ قائمـةٌ علـى وجـوده مـن الأسـاس، وهـو الأكثـر

(٦) السـادو ـ مازوخيـة: هـي الساديَّة والمازوخيَّـة. الساديةُ هـي الاسـتمتاع والانتشـاء والتلـذذ بإيقـاع الألـم والأذى بالآخريـن، والمازوخيـة هـي تقبـل ذلـك الألـم والضـرر الـذي يحـدث. نسـتخدمُ فـي بحثنـا هـذا المُصطلـح بالمعنـى الفلسـفي وليـس بمعنـاه البيولوجـي فـي إطـار العلاقـات الجنسـية بيـن الأشـخاص.

(٧) Wanda Sacher-Masoch, **Confession de ma vie**, Editions Payot et Rivages, Paris, 2014, p. 70-71.

"Contrat entre Wanda et Sacher-Masoch" Revue française de psychanalyse, 10.2, 1938, p. 36-37.

عـددًا) وسـجينٍ سياسـي، تتـراوح أعدادهـم بيـن القِلـة والكَثـرة حسـب سياسـة النظـام القائـم.

هـذه الغفـوةُ مُفسَّـرةٌ فـي عـدة اتجاهـات، منهـا أنَّ هـذه المنظمـاتِ لهـا تمويـلات، سـواء داخليـة أو خارجيـة، والتمويـلات هنـا ليسـت محـلَّ القدح أو الـذمَّ، إذ كل كيـانٍ يَعمـلُ فـي حقـلٍ بعَـينه لـه تمويـلٌ مـن جهـةٍ مـا ـ القـدح والعيـب يكمُـن بالأسـاس فـي اتجاهـاتِ وآراءِ الكيانـات وليـس فـي تمويلهـا. لكـن يتجلّـى مـا نـتحدثُ عنـه فـي مـا وراء التمويـلات، حيـث الأهـداف والأبعـاد السياسـية، مثـل مناصَـرة جماعـةٍ أو حركـة مـا ضـد نظـامٍ مـا، وغيـر ذلـك مـن الأهـداف والطموحـات السياسـة والإعلاميـة؛ هـذا لا يَـنفي الأحقيـة فـي الدفـاع عن هـذه التوجُّـهات السياسـية، طالما هـذا الدفـاع مشـروع مـن الجهـة القانونيـة والإنسـانية. سـببٌ آخـر، يرجـعُ إلـى أنَّ الدولـةَ التـي تواجـدَ فيهـا كـمٌّ مـن الأجسـاد المَظلومـة، والتـي عُزِلَـتْ داخـل فضـاءاتٍ سِـجنية، يأخـذ الجسـدُ المَظلـوم فيهـا سياسـيًّا أولوِيـةً فـي إبـراز قضيـته، لأن إشكاليـتَه الأساسـية هنـا هـي السـجن، وليـس نمـطَ مَعيشـته داخـل السـجن، إذ تُطالِـب هـذه المنظمـاتُ بالإفراج عـن السـجناء السياسـيِّين، بمـا أنهـم سُجِـنوا فـي ظـرفٍ اسـتثنائي أقامَـته السُّـلطة.(٨) أمـا السـجينُ الجنائـي فإشـكاليته فـي نمـطِ الحيـاة المَقـهور، والـذي يَـتجلّى أمـام العالـم الخارجـي، عندمـا تُركِّـز الأصـوات الحقوقيـة

(٨) حالـة الاستِـثناء: هـي الحالـة التـي يُعطَّـل فيهـا القانـونُ مـن صاحـب السـيادة، فـي حـالاتٍ بعَينهـا تمـر بهـا البـلاد. يرجـعُ أول تعريـفٍ لمـا يُعـرف بحالـة الاسـتثناء للمفكـر الألمانـي كارل شـميت، وهـو مـا عرفـه فـي كتابـه **اللاهـوت السياسـي** أنـه: بيَـدِ السـلطة السـيادية تطبيـق حالـة الاسـتثناء عنـد مخاطـر بعينهـا. وقـد نُوقـش هـذا المفهـوم علـى أمثلـةٍ وأحـداث تاريخيـة وقعـتْ بواسـطة المفكـر الإيطالـي جورجـو أغامبيـن فـي كتابـه **حالـة الاسـتثناء** فـي مجموعتـه المعنونـة بــ «الإنسـان الحـرام». انظـر: جورجـو أغامبيـن، **حالـة الاسـتثناء**، ترجمـة ناصـر إسـماعيل، مـدارات للنشـر والأبحـاث، القاهـرة، ٢٠١٥، ص. ٣٩.

فـي إظهـار هـذا النمـط، ليـس من بـاب إنصـاف السـجين دون أدلَــجة، بل كحُجـةٍ إضافيـة للتشـهير بمَظلومية السجين/الجسـد السياسـي؛ إذ تُــبرهِنُ هـذه الأصـواتُ مـن خـلال ذلـك علـى طلَبهـا مـن السـلطات بالإفـراج عـن السـجناء السياسـيِّين، أو علـى الأقــل تحسـين أوضاعهـم المعيشـية. ومـن خـلال ذلـك، تَظــهر الحيـاةُ المرئيـة للسِّـجن بشـكلٍ عـام، لكنها تُأخَــذ من قِبـل السياسـي ومُحاميـه فـي مُنحــنًى آخر، وهـو أنَّ هـذا النمطَ الحياتــيَّ خـاصٌّ بالجسـدِ السياسـي كعقـابٍ زائـد له. لكـن واقــعِيًّا، هـذه الحياة هي حيـاة السِّـجن كلـه بالأسـاس، أي حيـاة السـجين الجــنائي/ الأساسـي دائمًـا حتـى قبـل أن يتـعــرَّض لهـا السياسـي؛ لكـن الجنائـي/ الأساسـي ليسـت له أصوات خارجية تُــبرز حالَــه وتُطالِــب بتَغيِــير هذا القـهر.

هـذه الإشـكالياتُ لا بــد مـن تفكيكهـا وتحليلهـا ومُــراعاة سـياقاتها، والتـي بــرزت مـن بعـد منتصـف عـام ٢٠١٣ إلـى وقتــنا الحاضـر، حيـث اسـتلمَ زمـام الحكـم فـي مصـر نظـامٌ جديـد، بـدَوره زَجَّ بـآلاف الأجسـاد داخـل الفضـاءات السِّجــنية المُخــتلفة. وبالرغـم مـن أن تلـك الأجسـادَ المقهـورة لهـا بُعـد سياسـي، إلا أننـا سنُجــرِّدها منـه، وسـنتناول مـا يخـصُّ الجسـدَ/ النفــس وما يخــصُّ البُعد الإنسـاني، مع مراعاة كُلِّ السـياقات التي بدَورها تُسـاعدنا علـى طـرح مزيـدٍ مـن الـرؤى المُتماسـكة.

هـذه المرحلـةُ الزمنيـة التـي شـغلَ فيهـا السـجنُ أحاديـثَ كثيـرة، سـتكون بـلا شـك بدايـةَ تأريـخٍ تفكيكـيٍّ للفضـاءات السِّجــنية بشـكلٍ عـام، أي أنهـا لا يَصِــحُّ أن تمــرَّ دون الوقــوف معهــا، وقفــةً جــادَّة، تُحــدِّق النظـر فيمـا وراءهـا بعيـنٍ مُبصـرة، تعـرف كيـف تُفـكِّك الممارسـات، وتُأطرهـا بتَــنظيرٍ مُتماسـك يخـص الجسـدَ والنفـس، دون أدلَــجة. نـرى كذلـك أن الكتابـات السِّجــنية التــي تشـغلُ حيـزًا هامًّــا فـي هــذه السـنوات، سـواء الأدبيـة

التـي شـملتِ التجـارب والسِّـيَر الذاتيـة أو البحثيـة منهـا، سـتكون أرضًـا خصبـةً لـتُوثِّـق وتُساعد دومًـا مَـن يُريـد البحـث بشـكلٍ عميـق عمـا وراء السـجن، لا البحـث فـي ممارسـاتٍ ظرفيـة، تخص وضعًا سياسـيًّا بـعَيـنه، أو رومانسـيات أدبـية تُـأرِّخ المعانـاة، غاضـةً البصـر عـن الحـق الواجـب مـن أجـل مئـات الآلاف مـن أجسـادٍ أُخـرى، فـي العيـش الإنسـاني الكريـم.

فانطلاقًـا مـن كَوننا نُحاول المسـاهمةَ بـطرح نـصٍّ يُحاول تفكيـكَ وتحليل مـا وراء العقـاب السِّـجـني، وهـذا مـن خـلال تتبـع السياسـات العقابيـة فـي السـجون المصريـة وأثرهـا علـى السـجين (النفـس والجسـد) لـنَخرج بعـد كلِّ ممارسـةٍ ضمـن هـذه الرحلـة السِّـجنية، مُكوِّنيـن صـورةً صلبـة ومتماسـكة عـن هـذه المنظومـة العقابيـة المُمنهَجـة، لنصـل إلـى تَبيِـين التأثيـرات النفسـية والاجتماعيـة والثقافيـة والسياسـية علـى السـجين، مـن خـلال تفكيـك علاقـة ثلاثــي الفضـاء السِّـجني: سـلطة واجتمـاع (السياسـي ـ الجنائـي) وقانـون. وذلـك عبـر تقديـم تفاصيـل رحلـةٍ عميقـةٍ حـول فلسـفة امتـلاك السـلطة لحَيـاة السـجين، مُنـذ تَخطِّيـه أول بوابـةٍ للسـجنِ، مـرورًا بـالفلسفة العقابيـة ووصـولًا إلـى مـا بعـد الخـروج، مُصطحِبًـا معـه التأثيـرات النفسـية والعقليـة والجسـدية والروحيـة.

حـول هـذا، لـم نُهمِـل التدقيـق بعـد المُـقارنة الحاصلـة، بيـن أشـياء كثيرة مُتشـابهة، حيـث سنتـفهمُ تراتـبية السـلطة مـن الضابـط إلـى المُخبـر، وكيـف يتعامـل كلٌّ منهمـا مع الجسـد السـجين. كذلك التراتُـبـية الطبقـيّة للسـجين ذاتـه، بمـا أنـه أيضًـا يمتلـكُ مُقوّمـات سـلطة، إذ إن المنبوذيـن هُنـا، أي السـجناء، بعـض منهـم يختلـف عـن الآخـر، يُحـاول نشـلَ نفسـه مـن النبـذ عـن طريـق مـا لديـه مـن رأس مـالٍ رمـزي، مـادي وجسـديّ. ناهيـك عـن اسـتدعاءاتٍ حـول سـياقاتٍ أُخـرى مـن المُجتمـع والنظـام

الخارجـي، تمتـد بدَورهـا إلـى الفضـاء السِّـجني، تداخـلات مُقسَّـمة: نيوليبرالية سِجنية، عِمالة سجنية، طبقية سجيـنيّة،[٩] رمزية جنسـية، سـلطوية سياسـية. تشـابهاتٌ وتمايـزاتٌ عِـدة سـنقفُ حولهـا، نـرى مـن خلالها فلسـفةَ التشـابك والترابـط بيـن منظومـاتٍ عـدة خارجيـة، لكنهـا حاضـرة ـ ولـو بنسـخةٍ مُصغَّـرة ـ داخـل السـجن.

السـجنُ يُمـثِّـل ـ مـع العديـد من الاختلافـات ـ حارةً عشـوائيةً لا يتوفرُ فيها أي مُقـوماتٍ مادية أو نفسـية للحيـاة بشـكلٍ آدمـي. حـارةٌ مُغلقة بأسـوارٍ عاليـة، يحكمهـا الخـوف والرقابـة والخضـوع، حـارةٌ بهـا سُـلطة واجتمـاع/ أجسـاد، وقانـون ولا-قانون/مرئيات حياتـية، وعمران وثقافـة وأخلاق.

فـي **الفصـل الأول**، نـتــناول تفاصيـلَ الحيـاة المرئيـة داخـل السـجن، وممارسـات الإخضـاع التـي تُطـبِّقها السـلطة بحَـقِّ السـجين، التـي تجعـلُ منـه جسـدًا، خاضعًـا، مُراقبًـا، ذليـلًا، آلــةً، خادمًـا، مريضًـا وميتًـا.

وفـي **الفصـل الثانـي**، نُناقـش مفهـوم حَــقِّ امتـلاك الجسـد، الـذي يكمُـن بشـكل أساسـي فـي الحـق بالغريزة الجنسـية، حيـث تناولنا فلسـفة الجنس داخـل السـجن، مـن حيث السـردية النفسـية والكواليـس الجِنسـية الخاصة بـالسجناء والسـجينات، وكيـف تتعامل السـلطة مع هـذه الكواليس، سـواء بالحَوكمـة أو العقـاب. نُضيـئ كذلـك علـى اللغـة وتَشـكلاتها بيـن الاجتمـاع السـجيني،[١٠] حيـث تتداخـل هنـا سُـلطة اللغـة بيـن السـلطة والاجتمـاع،

---

(٩) انظر، هامش رقم ٢.

(١٠) الاجتمـاع السـجيني، بإضافـة يـاء بعـد الجيـم وهـذا للتعبيـر عـن الفضـاء الـذي يَحـوي الاجتمـاع، أي السـجناء، وكل مـا ينتمـي إلـى السـجناء مـن ثقافـاتٍ وأخلاقيـات وممارسـات.

بمعنـى أن السـلطةَ ليسـت وحدهـا هـي التـي تُهــندس اللغـة وتصنـع طابعًـا، بـل يُشـكِّل المجتمـع السـجيني جـزءًا منهـا، بمـا أنـه يتماهـى مـع طابـع اللغـة السـلطوية، المُتسِـم بأعلـى مسـتويات الذكوريـة. ناهيـك عـنِ السـياقات التاريخيـة والقانونيـة والفلسـفية للجنـس كمفهـومٍ وممارسـة فـي الفضـاء السـجني.

أمـا فـي **الفصـل الثالـث**، فـقد طرحنـا عـدة محـاور، مثـل صناعـة مَشـاعر السـجين بواسـطة العمـران، بمـا أنَّ العمـرانَ، وكما يقـول الباحـثُ المغربي إدريـس مقبـول فـي أطروحتـه عـن تشـابكاتِ الإنسـان والعمـران واللسـان، «يتــبع العمــران بنـاء ثقافـةٍ وتتبـع الثقافـة بنـاء عُمـران».[11] والثقافـة هُنـا، تترجـم فـي لسـانٍ ناطـق، وممارسـات أخلاقيـة، وفـي إمكانيـةُ رصـد وتأريـخ الحالـة المشـاعرية لجَوابـات السـجين، بمـا أنهـا سـوف تأخذنا إلى تأريـخٍ سياسـي واجتماعـي لحِقبـة زمنيـة مـا، هـذا إلـى جانـب المشـاعر المتبادلـة بيـن السـجين وسَـجانه؛ السَّـجانُ هنـا يعنـي الدرجـات الأقـل مـن تراتُــبية السـلطة، أمنـاء الشـرطة والمُخبرين، وهـذا لكَونهـم يتعاملون مـع السـجناء يوميًّـا، هم الذيـن يُفــتِّشونهم ويُسكِّــنوهم ويُوزِّعـون عليهم الطعـام، بـل وهـم المسـؤولون عـن العقـاب بالسَّـب والضـرب والإذلال؛ فكيـف تتشـكلُ هـذه العلاقـة المُركَّبـة بينهمـا، فضـلا عـن مـدى إشـكالية الأخـلاق بيـن السـجين والسَّـجان، بمـا أن السـجانَ، هنـا لا يُمثِّــل رجـل شـرٍّ بشـكلٍ مباشـر، بـل هـو رجـل سُـلطةٍ يتبـع قانـون، لكـن اتِّباعـه هنـا، يُمثِّـل شـرًّا لا فـكاك مـن إدانــته، ولا تبريـر أخلاقـي لـه. وننتقـل أيضًـا إلـى

(١١) إدريـس مقبـول، **الإنسـان والعمـران واللسـان: رسـالة فـي تدهـور الأنسـاق فـي المدينـة العربيـة**، المركـز العربـي للأبحـاث ودراسـة السياسـات، قطـر، ٢٠٢٠، هويـة الفضـاء وديناميـة الرمـز، ص. ٤٧.

صـورة السـجين والسـجن فـي الفـن المصـري، لا سـيما السـينما، ومـا مـدى تطابقهـا واختلافهـا وتأثيرهـا مقارنـةً بنظيرتهـا فـي الواقـع، ومـن ثـمَّ نُشـير إلـى جانـب الإبـداع الفنـي الـذي يُولَـد، كأنـه بمثابـة نـورٍ مُشـعٍّ وسـط الظلمـات. هـذا النـور اسـمُه الأجسـاد المَوهوبـة تحـت الأرض. ناهيـك عن جدليـة الانتمـاء. هـذه الأجسـاد السـجينة الـذي تتفـككُ هويـتها الوطنيـة، بفعـل ممارسـات السُّـلطة، هـذا لأن الجسـد المَنبـوذ لا يشـعر إلا بالنقـص وتفصيلاتـه. بالإضافـة إلـى إمكانيـات المُقاومـة الجمعانيـة لـدى السـجناء لتخفيـف القهـر الواقـع عليهـم، وكيـف تُـدرك السـلطة هـذا جيـداً، وبـدَور مرئياتهــا المنهجيــة والمُمارســاتية تُدمّــر أي محاولــةٍ للتفكيــر بجــدوى المقاومـة. إلـى أن نُــنهي رحلتنـا بشـأن التعمق فـي حال السـجين الجنائي والسياسـي بعـد عودتـه مـرةً أُخـرى إلـى المُجتمـع، ومـا كيفيـة وإشـكالية ومـدى إمكانيـة تعايشـه مـع المجتمـع والسـلطة، بما أنه جسـد آخـر خرج إلـى الحياة... جسـد مَنــبوذ.

المنهجِية

١- استدعينا بعضَ النظريات والكتابات العِلمية بكافة مجالاتها التي توفرت لنا، والتي الْتفت حول موضوع بحثنا لتأطير الممارسات الحياتية داخل المؤسسة السِّجنية. هذه النظرياتُ لن تأخذ قدرًا أكبر من الممارسة، الممارسة هي المركزية، مع تفكيكها بالتأطير اللازم لها. أيضًا، نحن لسنا بصددِ الحديث عن تاريخية العقاب، التعذيب، السجن؛ ولا نُصنِّف نصَّنا كدراسةٍ حقوقية، تُحصي وترصد بيانات وإحصائيات. ولا هي بدراسةٍ قانونية، تُدقِّق وترصد تطورَ اللوائح السِّجنية ومدى إنصافها أو إدانتها. ولا هي تاريخية جُغرافية، تتبع عُمرانية وتاريخية السجن. ولا اجتماعية، تُبرز أخلاقياتٍ مَفقودة، وتُوصي باستعادتها. بل بصددِ تفكيك الممارسة العقابية؛ نأخذ من جميع السياقات، الاجتماعية والحقوقية والسياسية والفلسفية والتاريخية والجُغرافية، ما يتناسب ويُوضِّح النصَّ بشكلٍ مُتماسكٍ وقوي.

٢- لمعرفة الكواليس السِّجنية، وما تَحوي من كمٍّ وكيفٍ كبير وواسع من الممارسات والمنهجيات، أجرينا ٣٠ مُقابلةً مع سجناء

سابقين وسجينات سابقات في ٢٠ مقر احتجاز فوري وغير فوري.[1] تمتِ المُقابلات من كانون الثاني (يونيو) ٢٠١٨ حتى شباط (فبراير ٢٠٢١. (لن نذكر أسماء السجناء أو السجينات أو السجون، ولن نضع الصِّيغ الكلامية لأصحاب المُقابلات إلا في بعض التوضيحات التي تتطلبُ ذلك). هذه المُقابلات جعلَتنا محلَّ اطلاعٍ على تجارب وقصصٍ لأشخاص سُجنوا من قبل في أماكن احتجازٍ مختلفة (أقسام ومراكز شرطة للاحتجاز الفوري ـ سجون لِيمانية وعمومية ومركزية للاحتجاز لسنوات طويلة) على أننا قد حذَفنا كثيرًا من الشهادات لتَشابهها من حيث الشكل والدلالة الضمنية، فضلًا أن المقابلات لم تقتصر على أشخاص قَضوا احتجازهم في سجنٍ واحد، بل تنوعت السجون واختلفت الروايات واتفقت في بعضها، لِنَتمكَّن نحن من تشبيك تلك القصص وتفسير دلالاتِها العلمية من خلال مَصادرنا المذكورة، ممزوجة بالتحليل والتقاطع. مع الإشارة أيضًا لتَحقيقاتٍ وروايات وشهاداتٍ منشورة في جهاتٍ بحثية وصَحافية وحقوقية مَعنية، لسجناء وسجينات سابقين وسابقات داخل منظومة السجن المصري سواء قديمًا أو حديثًا.

٣- نُفسِّر من خلال هذه السرديات فلسفةَ السجن المصري، وما وراءها من نفسيةٍ سياسية مَرعِيَّة، بل تُعتبر تلك النفسانية المُتبعة من السلطة المصرية متشابهة في أحوالٍ كثيرة مع سجونٍ أخرى في مختلف الدول الحديثة. ومن هُنا تعد الحالة

---

(١) للمزيد حول أعداد وأنواع وماهية تصنيف السجون في مصر، انظر رضا مرعي، **التكلفة الاجتماعية والاقتصادية لمنظومة السجون في مصر**، مبادرة الإصلاح العربي، نشر في ١٦ شباط (فبراير) ٢٠٢٢.

المصريـة دراسـة حالـة، إلا أنَّ هـذا لا ينفـي تعميـم أو توافـق بعـض التحليـل النفسـي والاجتماعـي والسياسـي لمنظومـاتٍ سِـجنية أُخـرى تخـصُّ منطقتنـا العربيـة أو غيـر العربيـة؛ وذلـك لأن التمظهـرات محـل التفكيـك فيمـا هـو قـادم، والتـي تقـع علـى النفـس والجسـد متأثـرةٌ بعوامـلَ خارجيـة، مـا هـي سـوى نتاج دوافـع كثيـرة متداخلـة ومتقاطعة ومتباينـة أيضـاً. فمـن المؤكـد أن النفـسَ والجسـد الإنسانِيَّـين مهمـا اختلفَـا لونهمـا وجغرافيـتهما، تَتشـابه الكثيـر مـن التمظهـرات التـي طـرأت عليهمـا نتـاج أسـباب ودوافـع متشـابهة ومتقاربـة. لكـن، كانـت الحالـة المصريـة الأقـرب للتحليـل والتفكيـك، وفقًـا للتقـارب والتعايُـش والاطـلاع والتفاعـل معهـا، مـا سـاعدَنا فـي التدقيـق والتصويـب عليهـا، بـل والوصـول إلـى مسـاحةٍ نظريـة وتحليليـة يسـتطيع القـارئ لَمسـها وإدراكهـا بشـكلٍ جيـد.

٤- لـم نُعـطِ فـي نَصنـا قـدرًا أكبـر بالنسـبة للسـجين الرجـل مقارنـةً بالسـجينة المـرأة، بـل جُـل التفسـيرات تخُـص الجنسَـين، إلا فـي حـالاتٍ بعَينهـا، تَخـص طرفًـا عـن الآخـر. وعلـى أسـاس هـذا، خصَّصنـا التحليـل بطـرفٍ منهمـا، عـدا ذلـك، جُـل الممارسـات تخـص الجنسـين. كذلـك اللغـة، قـدر الإمـكان، حاولنـا مراعـاة التأنيـث فـي مـا يخـص الطرفَيـن، واختصـاص التذكيـر، لا يعنـي تهميـش التأنيـث، بـل حتـى لا يمتلـئ النـص بالكثيـر مـن المرادفـات والعلامـات الترقيميـة التـي تُشـتِّت القـارئ والقارئـة. وبالنسـبة للغـة، حيـث يَحـوي السـجن الكثيـرَ مـن المُفـردات غيـر المُتعـارف عليهـا، مُصطلحـات خاصـة بالفضـاء الثقافـي السـجني والسجيـنيّ، سنسـتخدم الكثيـرَ منهـا، وسـنأخذ تعريفاتهـا كهَوامـش، مـن مرجـعٍ واحـد (وهـو دفتـر للكاتـب المصـري أحمـد سـعيد، بعنـوان **كلام حبسـجيّة، نمـاذج مـن مسـكوكات السـجن**

المصري؛ لأنه جامع لهذه التعريفات، بالإضافة إلى سهولة الحصول على المرجع من قِبل القارئ).

٥- نُأكِّد أخيرًا بعدنا عن المبالغة بحَقِّ الممارسات العقابية التي تُفعِّلها السلطة بحَقِّ السجناء والسجينات، إذ أننا لا نَصِفُ الممارسات العقابية بالتعذيبية، ولا نصف المؤسسة السجنية أنها منظومة لتعذيب الأجساد، بل نُفرِّق بين العقاب والتعذيب، ونُسمِّي ما تَفعله السُلطة عقاباً، بمنهجياتٍ وممارساتٍ مُختلفة، نحاول رؤيتها بشكلٍ أعمق، ونطرحها لتكون مسار تحليل واشتباك، نقد وتفكيك، لا نصّاً جامداً يُقدِّم نفسه، على أُسسٍ يقينية.

وقبل أن ننطلقَ إلى المُمارسات داخل الفضاء السجني، والتي من خلالها سنرى مدى تفاعل الجسد مع السلطة، بل إنه سيكون بمثابة آلةٍ تُمارِس من خلاله السلطة منهجياتها، فتؤثر فيه أيمَا تأثير. نذكر أن الجسد، لم يأخذ حَقه كتشريحٍ علميٍّ إنساني/اجتماعي، إلا مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين، حيث بدأ التوجهُ نحو الجسد، بوصفه كائنًا اجتماعيًّا يتفاعلُ بمُفرده مع الاجتماعات من حَوله، حيث انتقلَ من النظر إليه على أنه آلةً تعمل بفعلِ العقل والنفس، بل وتُروَّض طِبيًّا لاستمرار عملها، إلى اعتباره كيانًا خاصًّا بذاته، تتفاعل مُقومات السلطة معه، في فضاءات الثقافة والنفس والاجتماع والسياسة، وقد انتقل الجسدُ إلى هذه المكانة بفضل نظرياتٍ كثيرة أُسِّسَتْ لتَأطير الممارسات التي كانت تُفعَّل بأشكالٍ مختلفة على الجسد. أبرزُ أسماء مُنظِّري الجسد هُم: مارسيل موس، ميشيل فوكو، بيير بورديو، موريس ميرلو بونتي، براين ترنر، إرفنج جوفمان، ماري دوغلاس، ميشيلا مارزانو، خالد فهمي، إلزا دورلن،

بيونـغ تشـول هـان، دافيـد لـو بروتـون وغيرهـم.[٢] الجسـد داخـل الفضـاء السـجني مـا زال مُهمَّشـا، بالرغـم مـن، أنـه حـلَّ مكانـةً هامـة فـي الممارسـات والمنهجيـات السـجنية، وذلـك مـن خـلال تفاعـلات السـلطة معـه، وبشـكلٍ مباشـر، عبـر إنـزال العقـاب عليـه، وحَوكمتـه، وترويضـه ضمـن آليـاتٍ أُخـرى. وهـذا مـا يأخـذ المـرء إلـى التفكُّـر فـي تجربـة جسَـده فيمـا مـرَّ بـه، كمـا يحـث الكاتـب البريطاني نايجل سـي غبسـون، بمَقولتــه: «إن تجربـةَ المـرء مـع جسـده، هـي جـزءٌ مـن تجربتــه مـع العالـم».[٣]

(٢) مـازن مرسـول، **حفريـاتٌ فـي الجسـد المقمـوع**: مقاربـة سوسـيولوجية ثقافيـة، دار الأمـان، الربـاط، ٢٠١٥، ص. ٢١.

(٣) نايجـل سـي غبسـون، **فانـون المخيلـة بعـد الكولونياليـة**، ترجمـة خالـد عايـد أبـو هديـب، المركــز العربــي للأبحــاث وسياســة الدراســات، بيــروت، ٢٠١٣، ص. ٦٣.

الفصل الأول:

الحياة المَـرئية داخل السِّجن

الجسد العاري

فـي كتابـه **اسـتعمار مصـر** Colonization of Egypt،[1] استرسـلَ السياسـيُّ البريطانـي تيموثـي ميتشـل فـي إجابتـه حـول كيفيـة أسـرِ أجسـاد المُسـتعمَرين بواسـطة مُسـتعمِريهم، لا سـيما المصريين، مـن قِبـل سـلطة الاحتـلال، المُتمثلـة فـي الوصايـة البريطانيـة أواخـر القـرن التاسـع عشـر ١٨٨٢ وضّـحَ ميتشـل، أن مـا حـدثَ لـم يكـن اسـتعمارًا بمعنـاه الواضـح، أي انتشـاراً للدبابـات والقـوات البريطانيـة فـي شـوارع المحروسـة، والتحكـم مـن خـلال التوغـلِ فـي مسـارات السـلطة السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعيـة ـ بـل مـا حـدث، هـو اسـتعمارٌ ذهــني ونفسـي بالأسـاس، عَمِـلَ علـى ترهيـب/ إخضـاع عقـل وجسـد الإنسـان المصـري، بـل وجعلـه طواعيــةً، مستسـلمًا للقــوة الاسـتعمارية الجديـدة التـي اقتحمـت عقــلَه وجسـده. أولًا عـن طريـق الترهيـب والخـوف منهـا، وفيمـا بعـد عـن طريـق التربيـة الشـاملة ـ بوَصـف فيلسـوفها الفرنسـي

(١) تيموثي ميتشل، **استعمار مصر**، ترجمة بشير السباعي وأحمد حسان، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ٢٠١٣، ص. ١٧١.

ميشـال فوكـو ـ المُمنهَجـة للعقليـة البريطانيـة.[٢] هـذا إضافـةً، لمـا وصَّـى بـه إحـدى جنـرالات الاحتـلال الفرنسـي للجزائـر حـول أسـر فـئة/ شـعب فـي فضـاءٍ مـا، قائـلا: «هنـاك طريقـان لتأسـيس سُـلطةٍ سياسـية علـى شـعبٍ مـا، طريقـة القمـع وطريقـة التربيـة، والأخيـرة بعيـدة المـدى وتعمـل علـى العقـل، أمـا الأولـى فتعمـل علـى الجسـد ولا بـد أن تأتـي أولًا».

هـذا تحديـدًا مـا يحـدثُ مـع السـجين، بدايـةً، منـذ نزولـه مـن عربـة الترحيـلات أذكـرًا كان أم أنثـى ومـن ثـمَّ دخولـه إلـى بوابـة السـجن، ووصـولًا إلـى إسـكانه فـي عنبـرٍ وزنزانـة بعَينهـا، إذ يُعامَـل مـن قِبـل السـلطة السـجنية علـى أنـه لا شـيء، جسـد جديـد أتـى إليهـا ضمـن أجسـادٍ أُخـرى، لكنـه جسـد ليـس كبقيـةِ الأجسـاد، أو كمـا كان جسـدًا قبـل دخولـه السـجن، بـل جسـد مَنبـوذ Forsaken Body، اسـتلمته السـلطة وسـوف تبـدأ فـي عمليّـة صياغتـه كـي يواتـي الحيـاة الجديـدة التـي سـوف يعيشـها، حيـاة الخضـوع لسـلطةٍ أقـوى منـه بكثيـر. حيـث مـع الوقـت ومـع مزيـدٍ مـن الممارسـات، تبـدأ السـلطة فـي محـو كينونـة وذات هـذا السـجين، وتُهـندِس جسـدَه علـى حـركاتٍ بعينهـا، كلهـا بـلا اسـتثناء تـدل علـى الخضـوع والطاعـة العميـاء لتلـك السـلطة، مـا يعنـي هـدم ذاتٍ وبنـاء أخـرى تمتلـك ثقافـةً وسـلوكًا جديديـن.[٣]

فـي البدايـة، تسـتخدم السـلطةُ وسـائلَ عـدة أشـهرها الضـرب المُبـرح عنـد وصـول السـجين الجديـد، سـواء كان بمفـرده أو مـع سـجناء آخريـن،

(٢) مرجع سابق، تيموثي ميتشل، **بعد أن أسَرنا أجسادهم**، ص. ١٧٣.

(٣) سـهاد ناشـف، «**إمَّـا مقاومًـا وإمَّـا مقتـولاً: الانتفاضـة الفلسـطينية الأولـى كنقطـةِ تحـولٍ فـي إعـادة صياغـة وكالـة جسـد وروح الفلسـطينيّ**»، مجلـة إضافـات، العـدد ٤٦، ٢٠١٩، ص. ٧٥-٩٤.

وبدَورهـم رجـال السـلطة، يَصطَـفون عنـد بوابـة السـجن، وفـي أيديهـم عِصِـيّ، ولا ينـزل السـجناء مـن عربـة الترحيـلات إلا بعـد تَجمُّـع عـددٍ لا بـأس بـه مـن رجـال السُّـلطة، إذ تكـون هـذه أولـى لحظـات الالتــقاء بيـن السـلطة السـجنية والاجتمـاع القـادم لهـا، وتُـدرِك السـلطة وجـوبَ إظهـار صورتهـا القويـة جسـديًّا وعدديًّـا فـي عيـن ونفـس السـجناء الجُـدد. بعـد الاصطفـاف، ينهالـون علـى السـجناء بالضـرب، وهـذا مـا يُعـرف شَـعبوِيًّا فـي الفضـاء السـجني أو حتـى الخارجـي بـ «التشـريفة»[٤] إلـى أن يتجمَّـعوا مُسـرعين فـي فضـاءٍ مـا مفتـوح أو مقفـول، حسـب السـجن ومِعمـاره. ومـن ثـمَّ تأتـي الخطـوة الثانيـة وهـي خلـع الملابـس، إذ يؤمـر السـجناء بخلـع ملابسـهم عـدا اللبـاس الداخلـي فقـط. مـن خلال تعريَـة الجسـد، تتعـرَّى النفـس، وبدَورهـم، أي الأجسـاد العاريـة يحملـون ملابسـهم وحقائبهـم ويتوجَّـهون إلـى رجـال التفتيـش، يُفـتّـشون جيـداً، حتـى عوراتهـم، يمـدُّ رجـال التفتيـش أيديهـم، مـن وراء اللبـاس الداخلـي ويقومـون بدعـكِ خصيتَـيِ الرجـل للتأكـد مـن أنـه لا يُخبـئ أي ممنوعـات.

وبخُصـوص السَّجيــنة، تتعامـلُ السـلطةُ العقابيـة معهـا بتلـك الإجـراءات بـلا اختـلافٍ، غيـر أنَّ رجـل السـلطة تكـون امـرأة؛ سـواء مسـؤولة داخـل السـجن، أو سـجينة جِــنائية قديمـة تسـتخدمُها السـلطة فـي تفتيـش السَّـجينات الجديـدات. إلا أنـه فـي بعـض الأحاييـن، يتـم التفتيـشُ فـي غرفـةٍ مـا داخـل أحـد المبانـي السِّـجنية، ومن ثـمَّ تأمر المفتشـةُ السـجينة بخَلـع ملابسـها كُلـيًّا، كـي تنحنـي بكامـل جسـدها أمامهـا. وبدَورهـا، أي

---

(٤) التشـريفة: هـي لحظـةُ دخـول السـجين مـن بوابـة السـجن، حيـث يسـتقبله رجـال السـلطة بالضـرب المُبـرح، قبـل أن تبـدأ إجـراءات تفتيـش وفحـص الجسـد والتأكـد مـن الأسـماء. انـظر: أحمـد سـعيد، **كلام حبسـجية**، نمـاذج مـن مسـكوكات السـجن المصـري، منتـدى المشـرق والمغـرب للشـؤون السـجنية، ٢٠٢٠، ص. ٢١.

المفتشـة، تُمسـك كيسًـا فـي كفـة يدهـا وتفحـصُ فتحـةَ شـرج السـجينة، ومـرة أُخـرى عنـد مِهبلهـا، وبذلـك ينتهـي التفتيـش.[٥]

مـن خـلال هاتَيـن الخطوتيـن، يبـدأ السجين/السجينـة فـي إدراك أنهمـا لـم يَـعُدا كمـا كانـا، وبالـذات فـي أمـر التعريـة، والتعـدِّي علـى الأعضـاء التناسـلية الخاصـة بهمـا، إذ إن الجسـدَ كمـا هـو مُتعـارف عليـه فـي عُـرف المُجتمعـات، يُـذَلُّ مـن خـلال إجبـاره علـى التعـري، يُرغمـه رجـلٌ علـى التعـريّ وهـذه اللحظـة قاسـية ومذلّـة بـلا ريـب. والمـرأة تخلـع ملابسـها كاملـةً بشـكلٍ قهـري، وتنحنـي مـن أجـل فحـص أعضائهـا، أمـام امـرأة مثلهـا، موقـفٌ لا تنسـاه الذاكـرة؛ فتكـون هـذه الممارسـة بمثابـة صناعـةِ ذكـرى مؤلمـة لا تمـوت فـي عقـل ونفـس الإنسـان، ولـو مـرَّ الزمـن.

بعـد هـذه الإجـراءات، يُسـكَّن السـجناء والسـجينات، بشـكلٍ مبـدأي فـي زنزانـةٍ تُسـمَّى بالإيـراد،[٦] نظـرًا لأنهـا تسـتقبل الوافديـن الجُـدد إلـى السـجن. والإيـراد هـو زنـزانة مُزدحمـة بالسـجناء أو السـجينات، وتُقـدَّر مـدة التسـكين بالقانـون اللفظـي، أي الدسـتوري بــ ١١ يومًـا، وربمـا تزيـد أو تـقل عـن ذلـك، ومـن ثـمَّ بعـد انـتهاء المـدة، يتـم توزيعهـم/ن علـى العنبـر ثـم الزنزانـة التـي سيَعيشـون فيهـا.

هـذه المُمارسـات، هـي أسـاس الصدمـة الترومـا trauma كمـا سمَّـتها

(٥) للمزيـد حـول تفتيـش النسـاء، انظـر: تـقرير «منسيات فـي القناطـر»، الجبهـة المصريـة لحقـوق الإنسـان، نُشـر فـي ٢٣ كانـون الأول (ديسـمبر) ٢٠١٩.

(٦) الإيـراد: زنزانـةٌ مُخصَّصـة للسـجناء الجـدد، يبقـوا فيهـا فتـرةً يُحدِّدهـا رئيـس المباحـث، وتنـص لائحـةُ السـجون أن تلـك الفتـرة هـي ١١ يومًـا. مرجـع سـابق، أحمـد سـعيد، **كلام حبسـجية**، ص. ١٤.

الباحثةُ المصرية بسمة عبد العزيز في دراستها حول ذاكرة القهر Memory Oppression. الصدمةُ هنا تتعدَّى كَونها العجز عن المقاومة، بل تصل إلى الرهبة. رهبة السجين الأولى مُقابل إظهار أكبر قوةٍ مُمكنة لدى السلطة السِّجنية، من ضربٍ وسبابٍ واستباحة للجَسد؛ ذلك من أجل إخضاع كامل قواه النفسية تحت أقدام السُلطة، فضلا عن رؤيته لنفسه بحجمٍ مُصغَّر جدا مقارنةً بحجم السلطة الجديدة التي تولَّتْ بدَورها مسؤوليته. وهذا يظهر في استعداد السلطة الكامل من حيث القوة، كمًّا وكيفًا، في استقبال السجناء الجُدد. وحول هذا، يُقارب المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون عقلية السجين، بأنها ومن خلال الصدمة تنضمُّ لا واعيةً إلى جمهور المُستسلمين الخاضعين للحالة السيكولوجية الجمعانية (الجماعِية) الجديدة The New Collective Psych التي دخل فيها السجناء،[٧] نتيجةً للخوف من قوة السلطة التي عرَّفت نفسَها أنها «لا تُقهَر»، ناهيك على أنها أصبحت مسؤولةً عن طريقة إدارة حياتهم.

وحتى احتماليات المُقاومة التي تأتي كرَدٍّ فعلٍ فرديّ تلقائي غير مَقصود Involuntary Reaction. رد الفعل هذا، هو إما رد الضربة في حالة المقاومة أو على الأقل تفادي هذه الضربة، وهذا ما يُثير غضبَ رجال السلطة، حيث إنَّ محاولةَ أحد السجناء الإفلات من الضرب يعكس مدى إصرار رجل السلطة أن يلحقَ به، ويضربه بعنف وإصرار أو ربما يتم عقابه بعد ذلك بشكلٍ خاص. أي، وكما تقول الفيلسوفة الفرنسية إلزا دورلين، «كلما دافع عن نفسه،

---

(٧) غوستاف لوبون، **سيكولوجية الجماهير**، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩١، ص. ٣٦.

كلما تكـبَّد العـذاب».[٨] بالطبـع، تَـلقِّي عـددًا أقـل مـن الضربـات، يُعـد اسـتراتيجيةً خفيـة، للدفـاع عـن النفـس، والمحافظـة قـدر المسـتطاع علـى كرامـة الجسـد، وبهـذا الفعـل، يعطّـلُ السـجين منهـج السـلطة وإن حـاول واكتشـفت مخطّطـه زاد عقابـه...

نهايـةً، يصـل العقـلُ الجمعـي للسـجناء إلـى مـا يُسـمَّى، حسـب عالـم النفـس الأمريكـي مارتـن سـيلجمان، بالعجـز المُكتسـب أو العجـز المُتعلّـم Learned Helplessness، أي تملّـك الاستسـلام العقلـي الجمعـي لفئـةٍ مـا، تـرى مـن خـلال التجربـة العَيـنية الواقعيـة، أن لا جـدوى مـن التفكيـر أو المقاومـة بشـأن مـا يحـدث لهـا أو حولهـا، حتـى وإن كان هـذا الحـدث يُسـبِّب ألمًـا وعذابًـا لهـا، لكنهـا أدركـتْ تمـام الإدراك، بـل واكتسـبت عقليةً نفسـية عاجـزة عـن القيـام بـأيٍّ ردةِ فعـل. هـذا ليس مُقتصـرًا على النفسـية الجمعانيـة داخـل الفضـاء السـجني، بـل يمتـد إلـى فضـاءاتٍ أُخـرى تَخـصُّ الاجتماعـات المتباينـة وعلاقاتها بالسـلطة، إذ توجد اجتماعات لا تــثور على سُـلطةٍ قَهرتهـا، بـل وتُحـاول العيـشَ تحـت مـا تبقـى لهـا مـن إمكانـات، بـدل العيـش تحـت ظـلال أفـكار المقاومـة والتغييـر. فـي مُعظـم الأحاييـن، يرجـع هـذا مـع عوامـل أُخرى إلـى العجز المُكتسـب الـذي اجتاح نَفسـيات وعقـول تلـك الاجتماعـات، والـذي وصـل بهـا إلـى التسـليم التـام للسـلطة التـي لـم تتـركَ أي احتمـالاتٍ لمقاومتهـا.[٩] (يُفسـر هـذا أيضًـا، فـي حـال الثـورات المنكوبـة والمُنقلَـب عليهـا، إذ يفقـد الثوريـون سـواء المُنظَّمين أو المُنفرديـن، أيَّ أمـلٍ فـي التغييـر أو مقاومـة السُـلطة الجديـدة).

---

(٨) إلـزا دورليـن، «مـا يسـتطيعه جسـد»، ترجمـة نائلـة منصـور، مجلـة الجمهوريـة، نشـر فـي ٢٥ كانـــون الثانـــي (يونيـــو) ٢٠٢٠.

(٩) Courtney E. Ackerman, “Learned Helplessness: Seligman’s Theory of Depression (and Cure),” Positive Psychology, March 24, 2018.

حـول ذلـك، يُأطِّـر الفيلسـوفُ الفرنسـي ميشـال فوكـو فـي كتابـه المراقبـة والمعاقبــة: ولادة الســجن Discipline and Punish: The Birth of the Prison، بـأن حينهـا يصير الجسـد البشـري للإنسـان ملـكًا للسـلطة العقابية القائمـة للتنقيـب فيـه مـن خـلال اسـتخدام كافـة الوسـائل. يُقـارب فوكـو ملاحظاتـه عـن أهـم المشـاهد لـتَطويع الجسـد فـي تمثيـل العلاقـة بيـن السـلطة العسـكرية والمُجنـد الجديـد الوافـد إليهـا، والتـي بـدَور الأولـى تُعلِّمـه كيفيـةَ انضبـاط عقلـه وجسـده، عـن طريـق بضعـة حـركاتٍ تدخـلُ علـى الجسـد باحترافيـةٍ كالنظـر للأمـام بتركيـزٍ شـديد لسـماع الأوامـر، والخضـوع بشـكلٍ تـامٍّ لتنفيذهـا والوقـوف باسـتقامة وفـرد الظهـر ونفـخ الصـدر.[١٠] وهـذا مـا يتـم ـ مقارنـةً ـ مـع السـجين الجديـد، عـن طريـق التعليمـات المُلصَقـة بإجـراءات الإخضـاع المُمنهجـة لدى السـلطة العقابية، عـن طريـق الشـتمِ والضـرب والتكديـر والعُـري؛ لكـن بهـدف صناعـة جسـدٍ يتكيـفُ مـع الأوامـر التـي تُفـوَّه، أيًّـا كانـت، وتُـترجَم مـن خـلال إيمـاءات الجسـد، سـواء النظـر إلـى أسـفل دائمًـا وعـدم الحديـث إلا بـإذن رجـل السـلطة، وعنـد الحديـث تكـون الأيـدي مَفـرودة ومُلصقـة بجانـب الجسـد، ناهيـك عـن الوقـوف بثبـاتٍ أو الركـوع أو قرفصـة الأرجـل أو تشـبيك الأيدي خلفًـا علـى الـرؤوس حسـب مـا تأمـرُ السـلطة، وحسـب العُـرف الإيمائـي المُتعـارف عليـه؛ إذ هـي هنـا، سُـلطة تأديبيـة، أو كمـا يُعرِّفهـا فوكـو سُـلطة حيويـة biopouvoir - biopower،[١١] أي سُـلطة تمتلـك وتُخضِـع وتُـأدِّب.

---

(١٠) ميشـال فوكـو، **المراقبـة والمعاقبـة**: ولادة السـجن، ترجمـة علـي مقلـد، منشـورات مركـز الإنمـاء القومـي، بيـروت، ١٩٩٠، ص. ١٥٨-١٦١.

(١١) عبـد العزيـز العيـادي، «المعرفـة والسـلطة عنـد فوكـو مـن خـلال «إرادة المعرفـة»»، العـرب والفكـر العالمـي: مجلـة النصـوص الفكريـة والإبداعيـة والنقديـة، العـددان (١٧-١٨) ١٩٩٢، ص. ١٠٤.

فـي نفـس اللحظـة، ومـن دونِ كلـلٍ، تُفعِّـل السـلطةُ «تقنيـات» امتـلاك الجسـد،[١٢] مـا يعنـي تمكيـن شـخص (مُمثِّـل السـلطة) مـن اسـتعبادِ آخـرٍ والسـيطرة عليـه والتحكـم فيـه. هـذه التقنيـاتُ ثابتـة إلـى حـدٍّ كبيـر، تُصمَّـم بمـا يكفـلُ لهـا بـثَّ الرعـب للوصـول إلـى الاستسـلام العقلـي والنفسـي، وتعتمـد علـى عـزل الضحيـة وإفقادهـا القـوة والقـدرة علـى التواصـل مـع العالـم الخارجـي، وتحطيـم إحساسـها بكيانهـا، وتفكيـك علاقتهـا بالآخريـن، ومـن ثَّـم إحـداث صدمـاتٍ نفسـية مفاجـأة ومتكـررة، تجعـل الإنسـانَ يُـدرك مـدى قـوة السـلطة التـي وقـع تحـت يدهـا، وأنـه لا طائـلَ مـن مقاومتهـا أو معرفـة مـا تُريـد فِعلـه؛ بـل كل مـا فـي الأمـر، هـو الاستسـلام والخضـوع لهـا عقليًّـا وجسـديًّا. ومـع الوقـت، يستحسـن الشـخص المُسـتعبَد المعاملـة الجلاديـة مـن مُسـتعبدِه، ويشـعر بالروتينية فـي هـذه العلاقـة المتبادلـة، بـل وعندمـا يشـعر فـي أي لحظـةٍ مـا أن المعاملـةً المُوجَّـهة إليـه خاليـة مـن الإهانـة، يُـدرك أن هذه مِنَّـةٌ وعطفٌ مـن السـلطة عليـه، لأنَّ الروتينيـةَ هنـا هـي الإهانـة والعقـاب، هـذا نتـاج الانتكاسـة والهزيمـة التـي حلّـت بالـذات والجسـد.[١٣]

بعـد الانتهـاء مـن تلـك الإجـراءات الأولـى، يـرى جميـع السـجناء أنفسـهم ألّا فـرق بينهـم، أجسـادٌ خاضعـة ومتشـابهة، وخصوصًـا بعـد أن تـمَّ تجريدهـم مـن كل متعلّقاتهـم تلـك التـي كانـت تميّزهـم (خواتـم، أسـاور)، فضـلًا عـن حلـق رؤوس الرجـال، فيصبـح الرجـال علـى نمـطٍ وهيئـةٍ واحـدة تبـدأ مـن الملابـس الواسـعة ذي اللـون الواحـد، ورؤوس

---

(١٢) بسـمة عبـد العزيـز، **ذاكـرة القهـر**: دراسـة حـول منظومـة التعذيـب، دار التنويـر للطباعـة والنشـر، القاهـرة، ٢٠١٤، ص. ٢٨٢.

(١٣) مـازن مرسـول، **حفريـات فـي الجسـد المقمـوع**: مقاربـة سوسـيولوجية ثقافيـة، دار الأمـان، الربـاط، ٢٠١٥، ص. ٢٠٩.

محلوقـة لا فـرق بينهـا، فــينسون ملامـح وجوههـم مـن الأسـاس، إذ لا توجـد مرايـاتٌ داخــل الزنازيــن. هــدف الســلطة الواضــح مــن منــع المرايـات، هـو منـع الدمـاء، فـحين يـدبُّ الشّـجار تُسـتخدم كآلات حـادة، يسـتطيع السـجين مـن خلالهـا تشـويه نفسـه أو الآخـر. أيضا وبهـذا المنع، وبهـدفٍ غيـر واضـح، تُمحـى صـورة السـجين مـن عقلـه، ويذوب اسـتقلال كينونــته، ويصيـر بـلا وجـه، جسـد رثّ كإخوتـه. هكـذا تنظُـرُ السـلطة إلى صنيعتهـا، مسـخها الخـارج مـن قالبهـا اليتيـم قالـب القهـر والـذلّ. الفـرق الوحيـد هـو اختـلاف الأرقـام، إذ يأخـذ السـجين رقمًـا ويرفعـه بسـاعديه أمامـه ويُصـوّر بـه، أمـا الأسـماء فهـي مُدوَّنـة فـي الملفـات لإثبـاتِ وجـود الجسـد لا وجـود الـروح أو الـذات.

بعـد ذلـك، يتوجـه الإيراديـون إلـى مبنـى كتبـت عليـه لافتـة: «الإيـراد»، وهـو المـكان المُخصـص للسـجناء الوافديـن الجُـدد. هـذا المبنـى يحتـوي علـى عـدة زنازيـن، لا تُفتـح إلا لإدخـال الجرايـة أو التعييـن،[١٤] لا يوجـد بهــا أي مــكان للتهويــة، زنزانــة لا تدخلهــا الشــمس أبـدًا، يُفتـرض أن يمكـث الوافـد الجديـد عـدة أيـام (قانونًـا ١١ يومًـا) حتـى يتـم تسـكينه فــي عنابــر التســكين بشــكلٍ طبيعــي. الإيــراد، ويُطلــق عليــه أحيانــا «المصفـى» علـى ألسـنة بعـض السـجناء، يَحـوي زنازيـنَ صغيـرة يجتمـع فيهـا الإيراديـون ويُجبـرون علـى إخـراج بُرازهـم أمـام المُخبريـن المُراقبين لهـم، ليتمكنـوا مـن معرفـة مـا فـي بطونهـم، فـي حالـة إن كان أحدهـم يُخبـؤ شـيئًا مُخالفًـا فـي فتحـة شـرجه. وبعـد أن ينتهـيَ السـجينُ مـن عمليـة التبـرز، يتأكـد المُراقـب وهـو يُقلِّـب بعصـاه فـي بُـراز السـجين إن

(١٤) التَّعيِيـن: هو طعام السجن. الجراية: خبز السجن. للمزيد، انـظر: أحمد سعيد، **كلام حبسجية**، ص. ٢٢-٢٥.

كان بـه شـيئًا مُخالفًـا. وكمـا ذكـر سـجناء سـابقين عـن تلـك الواقعـة التـي حدثـت معهـم، وهـم قرابـة ٢٠ سـجينًا، عندمـا أُجبـروا علـى التبـرز أمـام رجـال سـلطة السـجن، حتـى يتأكـدوا مـن عـدم وجـود شـيء مُخالـف فـي أجسـادهم، كذلـك مـن خـلال حديثنـا مـع سـجناء سياسـيين عـن إجـراء التبـرز ـ اتضحَ أن ذلـك لا يُطبـق بشـكلٍ أساسـي وضـروري مـع السـجين السياسـي، حسـب السـجن ونوعـه وإدارتـه. لأن إدارة السـجن تعـرف أنـه ليـس مـن عقليـة السـجين السياسـي أن يبتلـع شـيئًا أو يُخفيـه في شـرجه، لكـن تلـك الخطـوةَ حتميـة عنـد دخـول السـجين الجنائـي الجديـد إلـى السـجن. ولذلــك، التنظيــر حــول الممارســة العقابيــة بحــق الســجين السياسـي، حتمـا سـتكون ناقصـة، لأن إدارة السـجن فـي أوقـاتٍ كثيـرة تسـتثنيه مـن إجـراءاتٍ مَرئيـة، لا يُسـتثنى منهـا السـجين الجنائـي.(١٥)

بهـذا الإجـراء، تأتـي أعلـى مراتـب الاسـتباحة، اسـتباحة السـلطة التـي اخترقـت جسـدَ السـجين لا سـيما عَورتـه، بـل امتلكتـه وأوجبـت لنفسـها أن تـراه كامـلًا بـلا أيِّ حـق فـي تخبئــته، بـل تبحـث حتـى فـي فضلاتـه تحـت غطـاءٍ شـرعي بيروقراطـيٍ، يحـث رجـال السـلطة السِّـجنية لانتـزاع أخلاقياتهـم، أو مـا يُسـمِّيه أسـتاذ الاجتماع البولنـدي زيجمونـت باومان «لا-أنسـنَة القانـون الوظيفـي» وذلـك بغيـةَ تنفيـذ قيـمٍ ومُثـلٍ عُليا تلـتفُّ حول الحفـاظ علـى الأمـن الاجتماعـي والقومـي مـن المُجرميـن والفئـات التـي تُحـاول هـدم المجتمـع وتقـدم الدولـة، وهـذا بعدمـا صـورت وسـائلُ كثيرة، أن هـذه الفئـات هـي فئـاتٌ مذنبـة قانونيًـا، ومَنبـوذة إنسـانيًا، ومتوحشـة مُجتمعيًـا.(١٦)

---

(١٥) «تفاصيـل الحيـاة غيـر الآدميـة: شـهاداتٌ حيـة مـن داخـل السـجون المصريـة»، تحقيـق لموقـع «ألتـرا صـوت»، نشـر فـي ١٤ كانـون الأول (ديسـمبر) ٢٠١٨.

(١٦) زيجمونت باومان، **الحداثة والهولوكوست**، ترجمة حجاج أبو جبر ودينا رمضان، مدارات

«تتمكَّن هويـةُ الإذلال مـن الإنسـان السـجين»،[١٧] بهـذه العبـارة، يُفسِّـر أسـتاذ علـم النفـس اللبنانـي مصطفـى حجـازي فـي كتابـه **الإنسـان المهـدور** مـا سَـماه هـدم قيمـة السـجين الإنسـانية، وذلـك عبـر اسـتباحة مـا يملـكُ مـن حرمـة جسـده، ومـا يسـتـتبعُ ذلـك مـن جلـوس السـجين واضعًـا أمشـاط قدميـه علـى الأرض كاشـفًا لعورتـه، مـن أجـل إخـراج فضلاتـه بجانـب جمـعٍ مـن السـجناء مثلـه، وأمـام رجـل السـلطة وبـيَدِهِ العصـا. كل هـذا ينـالُ مـن صميـم اعتبـار السـجين لذاتـه، وتتحطـمُ إنسـانيته، مـا يجعلـه بعـد ذلـك يسـتبيح هـو حُرمـات وعـورات الآخريـن مـن زُملائـه، وهـذا نـراه بشـدة ضمـن ممارسـات السـجناء مـع بعضهـم، مـن ضمنهـا اقـتحام أحدهـم حمـام الزنزانـة علـى الآخـر أثنـاء الاسـتحمام، أو حتـى مـن أجـل أن يجلـس بجـواره، كـي يقضـي حاجتـه معـه فـي نفـس الوقـت، فـي تقليـدٍ[١٨] للسـلطة، وكأنَّ السـلطةَ هنـا تُشكِّـل أخلاقيـاتِ اجتماعاتهـا: «السـجينُ ذئـبٌ لأخيـه السـجين» (اقتـداءً بمقولـة الفيلسـوف الإنجليـزي تومـاس هوبـز: "الإنسـان ذئـب لأخيه الإنسـان").[١٩] بمعنـى آخـر عنـد ميشـال فوكـو، السـلطةُ شكَّـلتِ الأخـلاق، أي أنهـا هـي التـي مارسـتْ بالفعـل هـذه السـلوكيات علـى السـجين، وبـدَوره نقلهـا هـو ومارسـها مـع زُملائـه، مـا أدى إلـى حـدوث تمـاهٍ مـن قِبـل الاجتمـاع،

للأبحـاث والنشـر، القاهـرة، ٢٠١٤، ص. ١٨٣.

(١٧) مصطفـى حجـازي، **الإنسـان المهـدور**، دراسـة نفسـية تحليليـة اجتماعيـة، المركـز الثقافـي العربـي، المغـرب، ٢٠٠٥، التحقيـر المعنـوي والجسـدي، ص. ١٤٥.

(١٨) يناقـش ميشـال فوكـو مـن خـلال مقالتـه «النسـوية» Feminism، أن السـلطة ومـن خـلال فـرض أدوات وممارسـات منهجيـة بحـقِّ سـكانها، تسـتطيع تشـكيل وبـث رمزيـات وثقافـات، تترجـم فـي شـكل ممارسـات وأخلاقيـات وأفـكار حـول الجسـد، الجنـس، وغيـر ذلـك. للمزيـد، انظـر: Aurelia Armstrong, “Michel Foucault: Feminism,” Internet Encyclopedia of Philosophy

(١٩) للمزيـد حـول فلسـفة هوبـز، انظر كتابـه: **اللفياثـان**، الأصـول الطبيعيـة والسياسـية لسـلطة الدولـة، ترجمـة ديانـا حبيـب وبشـرى صعـب، دار الفارابـي، لبنـان، ٢٠١١.

أي السجناء، مع قيم وممارسات المُتسلِّط، أي السُلطة؛ لأنه عندئذٍ، وبمَقولة حجازي: «ذاب الإنسان المقهور في عالم المُتسلط، بالتقرب من أسلوبه الحياتي وتبنِّي قيمه ومُثله العليا، وهو يرى من خلال هذا التقرب وهذا التبنِّي، حلًّا لمَأزقه الوجودي وارتقاءً لكيانه إلى مرتبةٍ تُرضيه، وتبث في نفسه الكبرياء».[٢٠]

من الضروريِّ كذلك أن نُضيء على الأقدمية seniority،[٢١] حيث هي قانونٌ عرفيٌّ تمَّ اختراعه وتداوله بواسطة الاجتماع السجيني. على أنه قانون غير أخلاقي يُستنَد إليه في المعاملات بين السجين والسجين الآخر. السجين الأقدم في السجن له وضعه الخاص لما اكتسبَه من خبرة التعرف على المكان، فضلًا عن العلاقة التي بالكادِ كَونها مع رجال السلطة، من أمناء للشرطة ومُخبرين، ولربما تصل إلى ضباطٍ في السجن أحيانا قليلة. يكون من ضمن هؤلاء ما يُعرف بـ نوبتجي/نبطشي[٢٢] الزنزانة، وهو بمثابة رئيس الزنزانة، يُدفع له الإتاوات كتوصياتٍ من السجناء الأضعف منه سلطةً داخل الزنزانة لضمان عدم المساس بهم، كذلك هو المسؤول أيضًا، عن حفظ نظام الزنزانة وفض المُشكلات ومراقبة السجناء والتبليغ عنهم، وكل ما يخص تفاصيل معيشة السجناء والسجن، بينما يعيش هو الحياة الأفضل فيُتاح له الخروج للمساعدة في أعمال السجن، وداخل الزنزانة يجلس في أفضل مكان سواء تارة

(٢٠) مصطفى حجازي، **التخلف الاجتماعي**: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، ط. ٩، المغرب، ٢٠٠٥، ص. ١٣٢.

(٢١) الأقدمية: هي القانون السائد والمتعارف عليه في السجون، للمزيد، انظر أحمد سعيد، **كلام حبسجية**.

(٢٢) حامد شريت، «ما لا تعرفه عن الجنائيين في السجون المصرية»، «مدونات الجزيرة»، ٢٤ كانون الثاني (يناير) ٢٠١٨.

أو مصلب،[٢٣] ويكون هو الآمر الناهي في إشكاليات الزنزانة كافة، ويأكل أفضل الطعام، ولا يساعد أبدًا في الأعمال الخدمية بالزنزانة، وغير ذلك من مُباحات له وممنوعة على آخرين.

أما السبُّ، الضرب والإذلال، الذي تنتهجه السلطةُ السجنية، فيختلف تماما، بل ويتجردُ من مفهوم التعذيب، إذ تتنوع أغراض التعذيب بين ما هو بغرض التحقيق investigation أو الانتقام revenge أو الإبادة الفردية extermination، الجماعية genocide، بل وتُمارسه سلطات أُخرى خارج الفضاء السجني، مثل سلطات التحقيق، ويكون غرضها الاعتراف، وحتى النوع الآخر وهو الإذلالي فقد لا يُراد منه سوى الانتقام. وحول ذلك، توجد مَرويات كثيرة في نُظمٍ عربية وغربية مارستِ التعذيب من أجل الاعتراف أو الإذلال. نظام مبارك قبل سقوطه، كان مشهورًا بالتعذيب الإذلالي Humiliating Torture، مقاطع الفيديو التي سُربَت وتداولها المواطنون على المدونات ووسائل التواصل الاجتماعي، بشأن إذلال المواطنين داخل أقسام الشرطة تحديدا بين عامي ٢٠٠٥ و ٢٠١١. يُضاف إلى ذلك، قضايا المواطنين التي رُفعت من أجل القصاص من الضباط، الذين عذبوهم حدَّ الموت أو الخزي، حيث وصلتْ إحدى حوادث التعذيب والإذلال، إلى أن قام ضابط شرطة بالإسكندرية في عام ٢٠٠٦، بتعذيب مواطن، وأخذه إلى الشارع الذي يَسكُن فيه، وسط أهل حارته، وهو مُرتديًا رغما عنه، قميص نومٍ نسائي، من أجل إذلاله وتَعريضه للخِزي أمام

(٢٣) المصلب: مصطبة خرسانية تُخصص كتارة أو نمرة، لأصحاب الامتيازات في الزنزانة، حيث لا ينام صاحبها ولا يجلس على الأرض، وعندئذ تكون مُرتفعة. في أوقات تكون على الأرض، وتسمّى المرايا، نظرا لأنها كاشفة للزنزانة كُلها. انظر أحمد سعيد، **كلام حبسجية**، ص. ٦٠.

جيرانـه وسـط منطقــته.[24] فضـلا عـن قصـص تعذيب حـدَّ القتـل، أبرزهم قصـة المَقتـول خالـد سـعيد فـي حزيـران (يونيـو) ٢٠١٠، والمَقتـول سـيد بـلال فـي كانـون الثانـي (ينايـر) ٢٠١١. كُل هـذا وأكثـر، كان دافعًـا وسـببًا رئيسـيًّا فـي قيـام ثـورة كانـون الثانـي (ينايـر) عـام ٢٠١١.

سـينمائيا، قــد جُسِّــدَ التعذيــب بغيــة الإذلال، فــي فيلــم إحنــا بتــوع الأتوبيـس ١٩٧٩، للكاتـب الصحافـي جـلال الديـن الحمامصـي،[25] ومـن إخـراج حسـين كمـال. إذ صـورَ أحـد مشـاهد الفيلـم، السـجين السياسـي، وهـو مجـرد مِـن ملابسـه عـدا اللبـاس الداخلـي، وتُقـيد رقبتـه بسلسـلةٍ حديديـة، ويأمـره الضابـط أن يقـول «أنـا كلـب»، وأن ينـادي عليـه كمـا تنـادي الـكلاب علـى أصحابهـا، أي يتفـوه «هَـو هَـو». مثّـلَ هـذا المشـهد الفنـان المصـري القديـر عبـد المنعـم مدبولـي. فيمـا بعـد، حكـى مَدبولي أن هـذا المشـهد، هـو محـض حقيقـة، إذ حكـت لـه امـرأةٌ كان يعرفهـا، أنهـا عندمـا توجهـتْ هـى وابنتهـا، إلـى زيـارة زوجهـا فـي السـجن الحربي بالقاهـرة، مُنتصـف السـتينيّات، وجدَتـه يدخـل عليهـا، ماشـيًا علـى يديـه وقدميـه مَربوطـا بسلسـلة كالكلـب، مـا أثـار الصدمـة والذعـر علـى وجهها هـي وابنتهـا، بسـبب مـا يحـدث لزوجهـا داخـل المعتقـلات الناصريـة.[26]

هـذا أيضًـا يختلـف عـن التعذيـب الإبـادي، الـذي ذكـره الكاتـب السـوري ياسـين حـاج صالـح، فـي أطروحتـه بشـأن الفظيـع (الفظيـع المَرئـي ضمن

---

(٢٤) حـول مرويـات التعذيـب قبـل الثـورة، انظـر: وثائقـي الجزيـرة، «وراء الشـمس: التعذيـب داخـل مجـازر وزارة الداخليـة المصريـة قبـل الثـورة».

(٢٥) الفيلـم مأخـوذ عـن قصـة حقيقيـة كان قـد ذكرهـا الكاتـب جـلال الديـن الحمامصـي فـي إحـدى مقالاتـه المدرجـة فـي كتـاب **حـوار وراء الأسـوار**، الكتـاب المصـري الحديـث، القاهـرة، ١٩٧٥.

(٢٦) خـارج النـص **إحنـا بتـوع الأوتوبيـس**... قصـة فيلـم حقيقيـة علّقـتها الرقابـة، نُشـر فـي ٦ تشـرين الأول (أكتوبـر) ٢٠١٩.

المؤسسة السجنية لنظام الأسد الأب والابن في سوريا، التعذيب الممنهج الذي يُبيد الجماعات، كما في سجن صيدنايا) والذي يُعرِّفه الحاج صالح، بأنه «استباحة كاملة مفتوحة على القتل، وإن لم تنته حتمًا به»[٢٧] لأن موت المُعذَّب ليس له قيمة عند المُعذِّب. أيضًا، هذا التعذيب يفوت على جلِّ غايات وفنون التعذيب، من الاعتراف والانتقام إلى الإذلال والخِزي. أما عقاب السلطة السجنية، والذي نتناوله، لا يهدف إلى قول شيء، بل يهدف ألا يقول السجينُ أي شيء بعد ذلك، أي كـتَمهيد لحالة الخضوع من قِبل الجسد المَضروب/ المُهان/ المذلول. إذ هنا وظيفة الضرب، تحريضيةٌ للجسد للاتجاه نحو بدايات الخضوع.

المُعرَّضون للتعذيب، تقع عليهم أيضًا ممارسات الطبقية، إذ هم ينتمون إلى طبقاتٍ عدة، وبهذا ينجو مَن هو ذو طبقةٍ مادية عُليا من العقاب، سواء خارج المؤسسة العقابية أو حتى عند دخولها. وبناء على ذلك، يستطيع أن يفلتَ من مَرئيات العقاب، ربما لا يستطيع الإفلات من القانون ذاته، ويُكتب عليه السجن، لكن تبقى أمامه فرصة ألا تُطبَّق عليه إجراءات العقاب من السلطة، سواء عند الدخول «التشريفة» أو بشكلٍ عام طيلة فترة السجن. ما يأخذنا إلى المقارنة، حول فعالية الطبقة المادية، من حيث الإفلات من العقاب بشكلٍ عام، سواء في المجتمع الخارجي أو داخل المُجتمع السجني، بما يدل على صحة إطلاقنا عليه أنه مجتمع داخلي مُصغَّر. هذا على عكس، الجسد الفقير المَنبوذ، الذي ينتمي إلى طبقةٍ معدومة،

---

(٢٧) ياسين الحاج صالح، **الفظيع وتمثيله**: مُداولات في شكل سوريا المُخرّب وتشكلها العسير، دار الجديد، مؤسسة أمم للتوثيق والأبحاث، بيروت، ٢٠٢١، ص. ٤٨.

ماديـة واجتماعيـة، فـلا يُمكنـه النجـاة، ويصبـح جسـده فضـاءًا مُسـتباحا للعقـاب بشـكلٍ دائـم، هـذا الجسـد بـدَوره يحـلُّ مـكانَ الطبقـة الماديـة سـواء سـلطة أو مـال، وبدورهـا السـلطة، تأخـذ حقهـا بشـكلٍ مباشـر منـه، فـي ممارسـة العقـاب عليـه.(٢٨) هـذا الجسـد الفقيـر، يتبـقَّى لـه رأس مال رمـزي وحيـد، متمثـلًا فـي جسـده، لـو كان جسـدًا طويـلًا وعريضًـا، قَويـا ومَفتـولًا، تُصنـع لـه فُرصـة أخـرى مـن أجـل تَمايـزه عـن بقيـة السـجناء. إذ يُعتبـر الجسـد وقـتئذٍ، رأس مـال رمـزي، يُكتسـب مـن خلالـه سُـلطة، مثـل الجسـد النسـائي المثالـي الـذي تلهـث وراءه فضـاءات عـدة، فنيـة وإعلاميـة مـن أجـل ضَمـه إلـى صناعتهـا، ومـن خـلال هـذا الضمَّ، يكسـب الفضـاء جسـدًا يزيـد مـن سَـطوته، ويرتقـي الجسـد مـن خـلال «رمزيـته السـلطوية»(٢٩) إلـى طبقـةٍ أعلـى ممـا كان فيهـا.(٣٠)

---

(٢٨) أحمـد عبـد الحليـم، «مصـر: أقسـام الشـرطة وأجسـاد المواطنيـن»، مجلـة «جدليّـة»، نشـر فـي ٢٤ تشـرين الثانـي (نوفمبـر) ٢٠٢٠.

(٢٩) حسـني إبراهيـم عبـد العظيـم، «الجسـد والطبقـة ورأس المـال الثقافـي: قـراءة فـي سوسـيولوجيا بييـر بورديـو»، إضافـات: المجلـة العربيـة لعلـم الاجتمـاع، مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة، المجلـد ٢٠١١، العـدد ١٥، ٣١ تمـوز (يوليـو) ٢٠١١، ص. ٥٥-٧٧.

(٣٠) للمزيـد حـول الجسـد فـي الفضـاءات الاجتماعيـة، انظـر: مقـال أحمـد عبـد الحليـم، «أن تكـون بيـغ رامـي عـن هـوس المصرييـن بأسـهم بورصـة الجسـد»، نشـر فـي موقـع «ذات مصـر»، ٢٢ كانـون الأوّل (ديسـمبر) ٢٠٢٠.

الجسد المُراقب

تختلف هيكليةُ السجون الهندسية من سجنٍ إلى آخر، من حيث المساحة أولًا، ثم التصميم الهندسي المعماري البنيوي، مثل إطار العنابر وأحجام الزنازين وشكلها الداخلي والخارجي، وغير ذلك. وعلى الرغم من هذا الاختلاف الكبير، والذي يرجع إلى زمن التأسيس والشركات الهندسية المُساهمة في البناء ومساحة الأرض المفترض عليها بناء السجن وموقع الأرض ذاتها بين المناطق السكنية والمؤسسات المدنية إلى غير ذلك من المؤثرات، إلا أن جميعَ السجون اشتركت في «وجود الأبنية الخرسانية الصلبة والأسوار العالية المُتعددة ومئاتٍ من أبراج المُراقبة ونفس الإجراءات البيروقراطية شديدة الدقة».

كذلك تتنوعُ المراقبة في السجون المصرية، حسب تصنيف السلطة للسجين وحسب كُل سجنٍ وبنيويته وإدارته. فسجن "العقرب" مثالًا جيدا، من أجل تأديب المعارضين السياسيين الذين تكرههم السلطة وبشدة. أما بقية السجون ولا سيما سجون «الليمان» و«شديد الحراسة» فهي مُخصصة لذوي الأحكام المشددة ومُجرمي المُجتمع. وهي تكون أكثر صلابة من حيث مُراقبة ومعاملة السجناء. لكن في واقع السجن المصري، مُراقبة السجين ليس بغرض انضباطه وإصلاح سلوكه، كما يُنظِّر فيلسوف القانون البريطاني جيريمي بنثام في تصميمه لسجن البانوبتيكون panopticism،[٣١] وهو عبارة عن

---

(٣١) البانوبتيكون - Panopticon، وتعني رقابة الكل، وهو نوع من أبنية السجون ابتكره المفكر الإنكليزيّ جيرمي بنتام عبارة عن: «زنازين ذات شبابيك واسعة على شكل حلقة دائرية يتوسطها برج مراقبة». تتيحُ هذه الزنازين للحارس القابع في البرج مراقبة السجناء على غفلة تامّة منهم.

بـرج مراقبـة يُخفَـى بداخلـه أعيـن المراقـب، مـا يزيـد مـن قـوة المُراقبـة للسـجين، ويُحيـط بـه، أي بالبـرج، بشـكلٍ نصـف دائـري جميـع زنازيـن السـجناء. وبحسـب بنثـام فـإنّ سـلوك السـجين الانحرافـي، يقـل طرديًّـا مـع تقـنية المراقبـة المشـددة، والتـي بدَورهـا تُـقوِّم ذلـك السـلوك شـيئًا فشـيئًا. وهـذه هـي النظريـةُ التـي طورهـا فوكـو بعـد ذلـك، ليربـط حبـلًا وثيقًـا بيـن الهندسـة البنيويـة للسـجن، وعلاقتهـا ودَورهـا فـي إصـلاح سـلوك السـجين عـن طريـق المراقبـة المسـتمرة مـع وضـع القوانيـن التـي تسـاعد سـلوك السـجين علـى الإرشـاد والإصـلاح.

كذلـك مـا ذكرتـه المهندسـة المعماريـة غـادة عمـرو،[٣٢] عندمـا طُلـب منهـا المسـاعدة فـي تصميـم أحـد السـجون، حيـث شـدَّدت علـى ضروريـة وعلاقاتـية مِعمـار السـجن فـي إصـلاح جسـد ونفـس السـجين. هـذا مـن خـلال تجربتهـا الحـية والشـاهدة، عبـر مكوثهـا لفتـرةٍ فـي إحـدى السـجون المصريـة، لتـرى بشـكلٍ عملـي كيفيـة إنشـاء معمـارٍ يرجـو إصـلاح السـجين. لكـن، بعـد أنِ انـتهت تجربتهـا، وصفـت إياهـا بالسـلبية جسـديًّا ونفسـيًّا، بـل واعتـذرت عـن المشـاركة فـي المشـروع مُتحججـةً أنـه يلـزم علـى منظومـة السـجون وضـع قوانيـنَ إصلاحيـة شـاملة علـى المسـتوى المعمـاري، وعلـى المسـتوى اللائحـي القانونـي حتـى تتـم وظيفـة السـجون الدسـتورية والتـي تهـدف إلـى تحسـين وإصـلاح وتهذيـب السـجين والسـجينة، وليـس تشـويهها جسـديًّا ونفسـيًّا وتطويرهـا إجراميًّـا، ناهيـك عـن الاضطرابـات النفسـية العديـدة التـي أرجعتهـا بسـبب العُزلـة والعقـاب، منهـا الجنـون والهلوسـة والعدائيـة

---

(٣٢) بسـمة عبـد العزيـز، «عمـارة السـجون مـا بيـن آلـة الإصـلاح ومصنـع الانحـراف»، موقـع «Uraiqat Architects». كذلـك انظـر: مقـال محمـد جميـل خضـر، «عمـارة السـجون... تشـييد النسـيان بأوجـاع الذاكـرة»، موقـع ضفـة ثالثـة، نشـر فـي ١ تشـرين الثانـي (نوفمبـر) ٢٠٢٠.

وانفصـام الشـخصية وغيرهـا. وذلـك عبـر المُقوِّمـات المعماريـة واللائحيـة والممارسـاتية التـي تحـدث بحَــقه.

تتجلَّـى المُراقبـة الدائمـة والدقيقـة، عنـد خـروج السـجناء إلـى الزيـارة، بمـا أنـه اليـوم الـذي يُسـمح فيـه للسـجناء بالخـروج مـن الزنازيـن والعنابـر والانتقـال إلـى مبنـى آخـر. يخـرج السـجناء المسـموح لهـم بالزيـارة، بعـد أن جـاء الأهالـي وسـجلت أسـماؤهم فـي مواعيدهـا المُحـدّدة. ومـن ثـمَّ يصطفـون فـي ساحةٍ أو فـي قفصٍ خـاصٍّ للانـتظار، كـي يُنـادى عليهـم، وتُـتمِّم عمليـةَ تفـتيش الحقائب والأجسـاد بواسـطة مُخبـري السـجن. يصطـف السـجناء مُقرفصيـن علـى الأرض، مُهرولـي الملبـس، مُنهكِـي الأوجـه، قـد يظلـوا هكـذا لمـدة سـاعات فـي شـمسٍ حارقـة أو شـتاءٍ قـارس إلـى أن يأتـي ضابـط الزيـارة لـيُشرف علـى ختـم الزيـارة بنفسـه، ويبـدأ فـي إدخـال السـجناء إلـى القاعـة المُخصصـة لرؤيـة الزائريـن. والختـم هنـا كلمـة «سـجين|نزيل» (تحقيـق أو محكـوم)، تُكتـب علـى الرسـغ الأيسـر، وفـي المقابـل يُختـم علـى رسـغ القريـب كلمـة «زائـر». هـذا الخـروج المظهـري الذليـل، وكمـا يقـول الأنثربولوجـي الفرنسـي دافيـد لـو بروتـون «يعكـس مـرآةً ذاتيـة واجتماعيــة»؛ الذاتيـة تعكـس نظـرة الشـخص لنفسـه، وهــي رؤيـة للـذات المُحتقـرة The Despised Self، وأمـا الاجتماعيـة، تُـرى بواسـطة الفاعـل الاجتماعـي، أي الزائـر، الـذي يُـدرك مـن خـلال مظهـر الجسـد، أن الـذي أمامـه شـخص لا يتمتـعُ بإنسـانيةٍ كاملـة، بـل هـو سـجين وضعيـف ومَنبـوذ.(٣٣)

(٣٣) دافيـد لـو بروتـون، **سوسيولوجيا الجسد**، ترجمـة عيـاد أبـلال وإدريـس المحمـدي، روافـد للنشـر والتوزيـع، القاهـرة، ٢٠١٤، ص. ١٤٦.

تختلـف تصميمـاتُ قاعـات الزيـارة، منهـا الأقفـاص المُغلقـة، ومنهـا الأقفـاص التـي تحتجـز السـجين فـي جهـة وعائلتـه مـن الجهـة الأخـرى، سـاعتها لا يسـتطيعون لمـسَ بعضهـم البعـض، فـي مـا تُسـمَّى زيـارة «السِّلـك».[٣٤] قـد تتـمّ زيـارات أخـرى فـي قاعـات مشـيّدة علـى نمـط عـادي. خـلال الزيـارة، يقـف رجـال السـلطة ذَوو الرتَـب المتدنيـة، يتمشـون بيـن السـجناء وعائلاتهـم مـن بـاب المراقبـة. والمُراقبـة هنـا نوعـان، الأولـى تتمثـل فـي كشـف المَمنوعـات القانونيـة، مـن نقـودٍ ورقيـة، وهواتـف وغيـر ذلـك، فمـن المُمكـن أن يُعطـي الزائـرون السـجناء هـذه الممنوعـات، بعـد أن نجحـوا فـي تهريبهـا مـن يَـدِ رجـال السـلطة أثنـاء تفتيشـهم. وبالرغـم مـن نجـاح الزائريـن فـي بعـض الأحاييـن فـي عمليـة التهريـب، إلا أن الأمـر ليـس هَـينا، لأن السـجين يُفـتَّش جسـديًا عنـد عودتـه، كذلـك حقائبـه تُفـرز مـرةً أُخـرى بعـد انتهـاء الزيـارة وخـلال عودتـه إلـى الزنزانـة. النـوع الثانـي وهـي مراقبـة أخلاقيـة، يقـف رجـال السـلطة كـي يمنعـوا المتزوجيـن مـن الاقتـراب الحميمـيِّ مـن نسـائهم، لأنـه وفـي أحاييـن كثيـرة، لا يكتفـي الـزوج بـتَقبيل زوجتـه، قبلـةً عاديـة، بـل يصـل الأمـر إلـى قُبـلاتٍ حميميـة، والْـتحام الأجسـاد، بـل وخلـع مبدئـي للملابـس. مـن أجـل حَوكمـة هـذه الممارسـات، تُغلِـق السـلطةُ دورات الميـاه أثنـاء الزيـارة، حتـى لا يتسـلل السـجناء وزوجاتهـم أو نسـائهم إليهـا، كذلـك تُعاقـب مَـن يضبـط وهـو فـي وضـعٍ حميـم خـلال الزيـارة.

بعـد انتهـاء الزيـارة، وتختلـف مُدتهـا حسـب مرئيـات السـلطة داخـل السـجن، (ونقصـد هنـا بالمرئيـات، أن لا مُـدة مُحـددة)، يخـرج السـجناء

(٣٤) مرجع سابق، أحمد سعيد، **كلام حبسجية**، ص. ٣٧.

مـن حيـث دخلـوا ويُفــتشوا مـرةً أُخـرى ويُــتمِّم الضابـط علـى الأختـام، ويُعايــن الوجــوه ذاتهــا التــي تقــف أمامــه مُقارنــةً بالتــي فــي الملــف الـذي يمسـكه بيـده، فضـلًا عـن عـدد سجناء الزيـارة، وفـي حالـة أن كل شـيء طبيعـي، يدخـل السـجناء العنابـر مـرةً أخـرى، وبعـد ذلـك يخـرج الأهالـي مـن حيـث دخلـوا.

كواليسُ الزيـارة مـن حيـث الشـكل والمَكمـون، تـدل علـى تعـود الجسـد علـى الخضـوع، مـن خـلال إيمـاءات القرفصـة، إذ لا تَفـوت علـى السـلطة أدق التفاصيـل التـي مـن خلالهـا تزيـد مـن دنــوِّ الجسـد السـجين، فـلا تسـمح أن يقــف السـجناء ورؤوسـهم موازيــة لرجــال السـلطة، فــتَأمر بالقَرفصــة والانحنــاء الدائــم. يُضــاف إلــى ذلــك، معاملــة ذوي السـجناء أثنـاء التفتيـش بطريقـةٍ مُهينـة مـن قِبـل رجـال السـلطة. الإهانـة تُترجـم فــي ألفــاظٍ نابيــة، تحــرّش لفظــي وجســدي، ضمــن منهجيــةِ اســتباحةٍ تُمارسـها السـلطة علـى الأجسـاد التـي تعـرف أنهـا منبـوذة، وليـس لهـا أي صـوت يُسـمع مـن قِبـل سُـلطاتٍ أُخـرى، فـي تشـبيه آخـر علـى مركزيـة الجسـد، وتمثيلـه كـرأس مـالٍ رمـزي،[٣٥] إذ يَنظـر بعـض رجـال التفــتيش إلــى أجســاد النســاء الزائـرات، ويُحاولـون مغازلتهــنَّ أو التحـرش اللفظــي أو الجسـدي بهـنّ. وأوقـات يُـسهِّــلون إجـراءات التفــتيش، لمَـن تكـون رد فعلهـا إيجابــيا تجـاه فعـل المُفــتِّش. وعلـى عكـس ذلـك مـع مَـن تُحـاول الابتعــاد عــن اعتداءاتهــم اللفظيــة أو الجســدية.[٣٦] عــلاوة علــى ذلــك، تنظـر السـلطة إلـى الزيـارة، وكأنهـا مِنـة تَمنحهـا للسـجناء وليـس حقًّـا قانونــيًّا شـرّعه الدسـتور لهـم، فهـي دائمـا تُهـدد بإلغائهـا، وهـذا نفسـيًّا

---

(٣٥) بييــر بورديــو، **الرمــز والســلطة**، ترجمــة عبــد الســلام بنعالــي، دار توبقــال للنشــر، ط. ٣ المغــرب، ٢٠٠٧، ص. ٦٣.

(٣٦) كواليس الزيارة، من مرويات المُقابلات.

مُدمر للسجناء. الزيارة هي الالتقاء والممارسة الوحيدة، التي يشعر من خلالها السجناء، أنهم خرجوا من عزلة الأسوار، وقابلوا أناسًا، تكلموا معهم بطريقةٍ عادية، طريقة ليس فيها خضوع وخوف. تُدرك السلطة هذا جيدًا، وتهدد بالمنع، في مُقابل استسلامٍ تام للسجين الذي أدركَ على الأقل نفسيًّا، أنه بيَدِ منظومةٍ عقابية مُتماسكة وصلبة لا تُقهر.

الجسد الذّليل

ضمن القانون المُشرِّع لـتَنظيم السجون، لا يوجد نصٌّ صريح بشأن الحد الأدنى لمساحات السجون، حيث توجد زنازين ضَيقة للغاية تُساوي مساحتها ٢ متر في ٢ متر إلى أكبر من ذلك. كذلك، يفتقد القانون لـتَحديد عددٍ للسجناء داخل الزنزانة الواحدة وفقًا للمساحة، وهذا ما تُسيِّره إدارة السجن حسب رؤيتها، وحسب أعداد السجناء لديها، ولذلك لا مانع لديها أن تضعَ أكثر من ٨ سجناء في مساحةٍ لا تزيد عن ٣ أمتار ونصف طولًا في ٢ متر عرضًا للزنزانة.[٣٧] ليس هذا فقط السبب الوحيد، إذ توجد في بعض السجون مساحات فارغة يُفترض أن تسعَ السجناء، بما يُوفِّر لهم مساحةً كريمة يعيشون عليها، لكن تأبى إدارة السجن أن تفعل ذلك، بل تعمل على تَكويم السجناء بعضهم فوق بعض، ضمن أدواتٍ عقابية مرئية. هذا التكدسُ نوعٌ من عقاب الجسد، تَصغيره، إذلاله، مُضايقته، استباحته.[٣٨]

حول هذه الاستباحة، كانت إحدى الحكايات على لسان أحد السجناء واصفًا الجسد والمكان: «العنبر ضيق جدًّا. مُكوَّن من ثلاثة أدوار. يُوجَد في كل دورٍ أكثر من ثلاثين زنزانة على شكل مُستطيل وحمام عمومي يوجد فيه ٨ مراحيض في الضلع الثاني من المُستطيل. الزنزانة ضيقة جدًّا. كُنا نمكث ٨ أفراد في مساحة

(٣٧) مرويات، ضمن المُقابلات.

(٣٨) الفصل الثاني، تقسيم المسجونين ومعاملتهم، من سلسلة تشريعات السجون المصرية، المبادرة المصرية للحقوق الشخصية، نشر في ١٩ كانون الأوّل (ديسمبر) ٢٠١٦.

٣ أمتارٍ طولًا في مترين عرضًا. يوجد ٥ «تارات» (سرير مُعلق)[٣٩] للنوم تحمل خمسة أشخاص، والثلاثة الآخرين ينامون على الأرض تحتنا. الزنزانة مُكتظة بالصراصير. ويُمنع دخول أي مبيدٍ حشري لها. كانت تمشي علينا ليلًا ونهارًا حتى تعودنا عليها، لا يوجد حمام داخل الغرفة. وهذا أكثر ما كنا نُعانيه وهو إخراج فضلاتنا. كنا نخرج البول في أكياسٍ بلاستيكية ونُجمِّعها ونرميها في اليوم التالي. أما عملية إخراج البراز، فكنا نصبر عليها لليوم التالي. كُنا نخرج تريض كل يوم بعد الظهر لمدة ٤٠ دقيقة. كان مسير العنبر يفتح ٤ زنازين معًا من الثامنة صباحًا ويخرجهم لمدة ٤٠ دقيقة ويدخلهم ويخرج أربعةً آخرين وهكذا، حتى تنتهي جميع الزنازين عصرًا. أي يفتح لعدد ٣٢ سجينًا لمدة ٤٠ دقيقة على ٨ حماماتٍ فقط لكي يستحموا ويُخرجوا فضلاتهم ويغسلوا ملابسهم وأوقاتًا كثيرة تنقطع المياه أساسًا. كنت أحيانًا لا أُخرِج فضلاتي وأنتظر إلى يومٍ آخر لأخرجها، حتى شعرتُ بتعفنات في معدتي، طبعًا نتعود على غذاءٍ بعينه، لا نأكل الطعام الذي يسهلُ هضمه كالملوخية مثلًا إذا دخلت لنا من الأساس. كان كبار السنِّ منا لا يستطيعون التحمُّل فيأتون بطبقٍ ويضعونه على الأرض ثم يغلفونه بكيسٍ أسود ويجلسون تحت باب الزنزانة ويخرجون برازهم ويغتسلون بواسطة مناديل مُبللة ويضعون الكيس في أكياسٍ أُخرى حتى يأتي الصباح ويُفتح لنا فنخرج الكيس، وهذا ما يسمونه السجناء (الكيس). كانت الرائحة

(٣٩) التّارة، هي كلمة تطلق على الحَيِّز أو المكان المخصص لكل سجين في الزنزانة، كذلك مَصلب أو المرايا، وهو مصطلح، يطلق على مكان رأسي في الزنزانة، من يأخذه يكشف الزنزانة كُلها، أي يراها. للمزيد، مصدر سابق، أحمد سعيد، **كلام حبسجية**، ص. ١٧.

فظيعـة جـدًّا لا تُطـاق ولكـن مراعـاةً لكبـار السـنّ وظروفهـم الصحيـة كنـا نضطـر لذلـك، كنـت كل يـومٍ أحـس بـإذلالٍ جسـدي بسـبب أمـر الطعـام والهضـم».[٤٠]

أيضًـا، وجبـات الطعـام التـي تُقـدَّم للسـجناء، والتـي تُسـمى «التعييـن أو الجرايـة» (والثانـي هـو الاسـم المُخصـص للخبـز) تتفـاوت مـن حيـث صحـة ونظافـة الطعـام، ومـدى طهيـه بشـكلٍ جيـد مـن سـجنٍ إلـى سـجنٍ آخـر، ولكـن فـي الأغلـب تغلـب رداءة الطعـام علـى صحتـه فـي عمـوم السـجون المصريـة.[٤١] هـذا فـي الحديـث بشـكلٍ عـام عـن السـجناء غيـر السياسـيين، المُعاقبيـن بمنـع الطعـام إلا أقـل القليـل بأوامـر عُليـا مـن جهـةٍ أمنيـة، كمـا أشـارت تقاريـر حـول ذلـك فـي سـجن "العقـرب ٩٩٢" شـديد الحراسـة.[٤٢] لكـن ومـن المُلاحـظ، أن كميـات الطعـام المُوزعـة بالنسـبة لعـدد السـجناء تكـون قليلـةً ولا تكفـي لسـدِّ الجـوع، مـا يعنـي أن السـلطة، تُطعـم هـذه الأجسـاد التـي شُكـلت بــ «القطـارة»، كمنهجيةٍ ترويضيـة لـتَذليل الجسـد مـن ناحيـة، وإضعافـه مـن الأخـرى.[٤٣] ولذلـك يعتمـد معظـم السـجناء مـن السياسـيين والجنائييـن علـى زيـارة الأقـارب وإمدادهـم بشـكلٍ أساسـي بالطعـام. وتكـون أشـكالُ الطعـام الموزعـة مـن السـلطة السـجنية كالآتـي (خُبـز ـ فـول ـ جبنـة ـ حـلاوة ـ مُربـى ـ بيـض مـرة أو مرتيـن أسـبوعيًّا ـ لحمـة مـرة واحـدة أسـبوعيًّا ـ خُضـار

(٤٠) نقلنا هُنا نص الشهادة، ضمن مقابلاتنا.

(٤١) سـمير جابـر، «وجبـة السـجين، هـل تُشـبه وجبـات الطبقـة الوسـطى أم قمامتهـا؟» مجلـة www.correspondents.org، نشر في ٧ أيلول (سبتمبر) ٢٠١٩.

(٤٢) Human Rights Watch «Egypt: Serious Abuses in Scorpion Prison» September 28th 2016.

(٤٣) هيلـز جـون، جوليـان لوغـران، دافيـد بياشـو، **الاسـتبعاد الاجتماعـي**: محاولـة للفهـم، ترجمـة وتقديـم محمـد الجوهـري، المجلـس الوطنـي للثقافـة والفنـون والآداب، عالـم المعرفـة، الكويـت، ص. ١٧٥.

مطبـوخ مرتيـن أسـبوعيًّا). تتفـاوت أيضًـا، حجـم تلـك العينـات مـن الطعـام المُـوزع بواسـطة السـجناء الجنائييـن الذيـن يُسـاعدون السـلطة فـي أشـغال السـجن بشـكلٍ عـام. لكـن الوجبـات التـي تحـوي، الخبـز والجبـن والحـلاوة والفـول والعـدس، هـي الدوريـة بشـكلٍ يومـيّ.

يُعـرَف عـن هـذه الوجبـات وسـط عمـوم المصرييـن، أنهـا مـلاذ الفقـراء منهـم، ولا هنـاءَ فيهـا. يُصنَّـف الفـول والجبـن والحـلاوة والعـدس، طعـام غيـر القادريـن مـن المصرييـن، وهـو الطعـام الدائـم لهـم، فـي مقابـل اللحـوم والأسـماك بأنواعهمـا الغاليـة الـذي ينعـدِم وجودهـا مـن موائدهـم. كذلـك يُفسَّـر اختيـار هـذه الأطعمـة «الفقيـرة» مـن الأسـاس كلائحـةٍ طعاميـة للسـجناء، علـى أنـه منهجيـة رئيسـية للسـلطة العقابيـة فـي منظومـة امتلاكهـا وانتهاكهـا لأبسـط حقـوق الآدميـة بحَـقِّ السـجين، فمـع إذلالـه نفسـيا وبـيولوجيا،[٤٤] يأتـي تجويعـه ورمـي كميـاتٍ قليلة من الأطعمـة الرخيصـة لإطعامـه ـ هـذا لا يتطلـبُ توزيـع الأسـماك واللحـوم يوميًّـا، لكـن علـى الأقـل يمكـن أن تُـقدِّر السـلطات طعـام السـجناء، وكأنـه طعـام ينتمـي إلـى مسـتوى الطبقـة المصريـة المتوسـطة ماديًّـا.

وهـذا مـا نـصَّ عليـه القانـون اللفظـي الموثـق رقـم ٦٩١ لعـام ١٩٩٨ لـوزارة الداخليـة المُختـص بقطـاع السـجون، والـذي نـصَّ علـى أن تكـون وجبـات السـجناء «تُماثـل وجبـات الأسـرة المصريـة متوسـطة الدخـل مـن حيـث النـوع والكميـة لـكل سـجين».[٤٥] أمـا بالنسـبة للكميـات القليلـة

---

(٤٤) القصـد هنـا بـ «بيولوجـيًّا»، أي أنـه وكمـا ذكـرت المقابـلات، يُعاني الجسـد عند إفـراز فضلاته، فضـلا عـن إعيـاء الجسـد، دون تَوفُّـر الفضـاء الصحـي الـلازم لمُعالجتـه. إذ الجسـد هنا يتحطـمُ كما تتحطم الآلـة، وتفسـد تدريجيا وظائـف أعضائـه، حتـى تتلـف تمامًـا، مـا يُعـرض الجسـد للتوقـف، أي المـوت.

(٤٥) وزارة الداخلية، قرار رقم ٦٩١ لسـنة ١٩٩٨ في شـأن كيفية معاملة المسـجونين ومعيشـتهم، ٧ آذار (مـارس) ١٩٩٨، الوقائـع المصريـة، العـدد ٧٦، فـي ٢ نيسـان (أبريـل) ١٩٩٨.

التـي تُقـدَّم للسـجين وتفاوتهـا باختـلاف أسـماء السـجون، فمـن المُرجَّـح بشـأن هـذا، أن تكـون إدارة السـجن هـي التـي تتحكـم فـي إنقـاص كميـات الأطعمـة التـي تُـوزع، ربمـا لـغرضٍ شـخصي كمكسـبٍ مـن الكميـات الفائضـة عـن طريـق بَـيعها أو تصريفهـا بشـكلٍ أو بآخـر. ومـن جهـةٍ أُخـرى حـث السـجين للشـراء مـن «كانتيـن» السـجن والـذي تُشـرف عليـه إدارة السـجن، وغالبًـا مـا يتربـح منـه أشـخاص ذو سُـلطة سـجنية، كمـا أشـارت إحـدى تقاريـر المبـادرة المصريـة للحقـوق الشـخصية فيمـا وصفَـته منهجيـة السـلطة العقابيـة فـي «إفقـار سـجناء سـجن العقـرب»،[٤٦] عـن طريـق منـع الزيـارات والتوجـه إلـى كانتيـن السـجن بأسـعارٍ مُضاعفـة لجميـع السـلع المُباعـة.

الإذلال كذلـك، تمثـلَ فـي المسـاحات الضيقـة، مـا جعل الأجسـاد مُكدَّسـة بعضهـا فـوق بعـض، مسـتباحة الخصوصيـة. غيـابُ دورات الميـاه، جعـل الجسـد يُعانـي ويتألـم، مـن خـلال تَعفُّـن الفضـلات بداخلـه، وحتـى عنـد سـقوطها، تسـقط فـي شـيء غيـر صحـي، ومـن بعدهـا تمتلـئ الأجـواء برائحـة التعفـن.

هـذه تَصـوراتٌ لمـا بعـد الإذلال، أي أن هـذا الـذل، يقـتحم الجسـدَ مـن خـلال تحكـم السـلطة فـي احتياجاتـه،[٤٧] ويأخـذه إلـى درجـةٍ أقـلّ، ضمائريًـا وشُـعوريًا، إلـى درجـة الحيـوان. رحلـةٌ هبوطيـة مـن الإنسـانية إلـى الحيوانيـة، عـن طريـق إيمـاءات الجسـد. التفريـق بيـن الإنسـان

(٤٦) «للبيـع فـي الكانتيـن، الإفقـار العمـدي فـي السـجون المصرية»، المبـادرة المصريـة للحقوق الشـخصية، نشـر فـي ٢٥ أيلـول (سـبتمبر) ٢٠١٨.

(٤٧) مصطفـى حجـازي، **الإنسـان المهـدور**: دراسـة نفسـية تحليليـة اجتماعيـة، المركـز الثقافـي العربـي، المغـرب، ٢٠٠٥، ص. ١٤٠.

والحيـوان، يأتـي مـن خـلال العقـل، أي التفكيـر، والـروح، فيمـا تشـمله مـن الضمائريـة والمَشـاعرية، وأخيـرًا إيمـاءات الجسـد. الإنسـان جسـديًّا، لــه إيماءاتــه الخاصــة بتَركيبــته البيولوجيــة، يقــف ويَمشــي ويركــض، ويجلــس علــى المقاعــد مــن أجــل تنــاول الطعــام وإخــراج الفضــلات. الحيـاة الأرضيـة خاصـةٌ بالحيـوان، وهـذا مـا ينتقـل إليـه السجين/الجسـد، إذ عبـر إيماءاتـه يجلـس علـى الأرض، ويتنـاول طعامـه بيـده. لكـن، علـى الأرض، لا توجـد مناضـد أو كراسـي داخـل السـجون، فضـلًا عـن إخـراج الفضـلات، فـلا توجـد مراحيـضُ سـيراميكيّة يجلـس عليهـا الإنسـان، بـل يُقرفـص مثـل الحيـوان ويُنـزل فضلاتـه. هنـا أتحـدث عـن الحيوانـات المتواجـدة فـي الشـوارع، دون عائلـةٍ أو مـكان مُخصَّـص لتربيـة الحيـوان، فعلـى مـرِّ التاريـخ وخصوصًـا فـي الوقـت الحالـي، تبـنَّتْ عائـلاتٌ كثيـرة حيوانـات أليفـة، لـتُربِّـيها للعيـش معهـا، بدورهـا الحيوانات اسـتطاعت أن تُخـرج فضلاتهـا علـى المراحيـض وغيـر ذلـك. لكـن، وإجمـالًا دون حصـر للتفاصيـل، السـلطة السـجنية تجعـل مـن ممارسـات الجسـد المَنبـوذ لديهـا، تصرفـات شـبيهة فـي مَضمونهـا وشـكلها بالطابـع الحيوانـي. مثـالٌ أخيـر، الأقفـاص الموجـودة داخـل السـجون، والتـي يقـف بداخلهـا السـجناء أثنـاء الزيـارة أو خـلال الانتظـار، كأقفـاص الحيوانـات الموجـودة فـي الحدائـق، والتـي مـن خلالهـا يتحـدث/ يلعـب الزائـر مـع الحيـوان.

جـلُّ هـذه المَرئيـات الحياتيـة، المُمنهجـة والقاسـية، تكـون أكثـر إذلالًا لجسـد المـرأة السـجينة، نظـرًا للاختـلاف البيولوجـي بينـه وبيـن جسـد السـجين الرجـل، لمـا يتناسـبُ مـع طبيعـة التكويـن الجسـدي لـكلٍّ منهمـا، إذ إنّ السـجينةَ تحـت عُمـر الخمسـين عامًـا، تحيـض مـرّة فـي الشـهر Period، مـا يجعلهـا فـي حاجـةٍ إلـى رعايـة صحيـةٍ أكثـر. بالنسـبة للنظافـة الشـخصية، حيـث اشـتكت الكثيـرات بسـبب عـدم تَوفُّـر الفـوط

الصحيـة لهـنّ، وإن توفـرتْ، فهـي باهظـةَ الثمـن بالنسـبة لهـنّ، هـذا يُجبرهـنَّ علـى وضـع أي أقمشـة، خشـنة أو غيـر نظيفـة مـكان إفـراز السـائل، بغيـة حَبسـه. هـذه الحيـاة اللا-آدميـة التـي تنعـدم فيهـا أقـل وسـائل النظافـة الشـخصية، بـلا شـك، تجلـب الأمـراض لهـنَّ. يُضـاف إلـى ذلـك المـرأة الحامـل، أو التـي معهـا رضيعهـا. كل هـذه الظـروف وغيرهـا تتطلـبُ وجـود مرئيـاتٍ حياتيـة غيـر التـي يتمأسَـسُ عليهـا السـجن. وعلـى الرغـم مِـن تَعامـل السـجينات مـع هـذه الظـروف، إلا أن المُعانـاة لا تنتقـص بالمُجـاراة الحياتيـة. كذلـك، لا مُبـالاة السـلطة السـجنية بخصوصيـات المـرأة البيولوجيـة، تُبرهـن علـى أن جسـد المـرأة هنـا مِثلـه كجسـدِ الرجـل، لا اختـلاف فـي طريقـة إدارتـه، وإنِ اختلفـت بعـض الأدوات، سـيكون الاختـلاف سـاعيًا نحـو إعـادة الهندسـة، والمزيـد مـن الرقابـة والخضـوع والإذلال.(٤٨)

(٤٨) فـي اليـوم العالمـي للمـرأة: «الـدورة الشـهرية فـي السـجون» ـ مـن أجـل اعتـراف القانـون بالاحتياجـات الجسـدية للنسـاء، المبـادرة المصريـة للحقوق الشـخصية، نشـر فـي ٨ آذار (مـارس) ٢٠١٩.

الجسد الآلـة

حسـب إرادة السـجين، وحسـب موافقـة السـلطة، يُسـمَح للسـجين بالخـروج مـن زنزانـته إلـى العمـل، ضمـن الأشـغال المنصـوص عليهـا بالقانـون المصـري والمَنصـوص عليهـا فـي لائحـة السـجون، وهـذا يخـصُّ السـجينَ الأساسـي، بنظـرة السـلطة السـجنية، أي السـجين الجنائـي، التـي أُسسَـت منظومـة السـجن مـن أجلـه؛ أما السياسـي فـيُستبعد مـن العمل. وفـي حالـة عمـل السياسـي، لا يـتـعدَّى تَسيِـير أمـور السـجناء داخـل العنبـر مـن زيـارات وجلسـات وأشـياء أخـرى، وهـذا شـيء غيـر قانونـي، ولا يتقاضـى السـجين السياسـي عليـه أي أجـر، لكـن تسـمح لـه السـلطات بتَسـيير الأمـور معهـا، حسـب إدارة كل سـجن.

يعمـل هـؤلاء السـجناء الأساسـيون، منـذ الصبـاح تقريبًـا فـي السـاعة السـابعة وحتـى منتصـف النهـار، حيـن مجـيء وقـت إغـلاق كافـة عنابـر السـجن، بمـا يُخالـف الحـد الأدنـى لـساعات العمـل المُقـررة، مـن ٦ إلـى ٨ سـاعات يوميـا.[٤٩] تتنـوع الأعمـالُ بيـن المطبخ لإعـداد كميـات الطعـام الهائلـة للمئـات أو الآلاف مـن السـجناء كل يـوم، وبيـن الفـرن لخَبز العيش إلـى فـرز الخضـروات وغسـل عـددٍ مـن الأوانـي المعدنيـة التـي يُطهـى فيهـا الطعـام، فضـلًا عـن الأعمـال الحرفيـة مثـل ورش التصنيـع والحلاقـة وغـسل وكَـيِّ الملابـس، ومكتبـة السـجن والتـي تعملُ فيهـا غالبًـا الطبقة البرجوازيـة مـن السـجناء، والذيـن اسـتطاعوا عبـر علاقاتهـم وتشـابكاتهم الماديـة مـع ذوي السـلطة أن يحصـروا أنفسـهم فـي أعمـالٍ بسـيطة. كذلـك، تكـون زنازينهـم أفضـل مـن حيـث أدوات المعيشـة، بمـا أنهـم

(٤٩) «حلقـات عن تشـريعات السـجون المصريـة»، الفصل الرابع، تشـغيل المسـجونين وأجورهم، المبـادرة المصريـة للحقـوق الشـخصية، نشـر فـي ٢٤ كانـون الثاني (ينايـر) ٢٠١٧.

يستطيعون، في بعض الأحايين وحسب إدارة السجن، شراء وإدخال بعض أدوات التسلية، ناهيك عن توفير الطعام والشراب والملابس الجيدة، التي لا يحصل عليها السجناء مَنزوعُو العلوِّ الطبقي.

أما من ناحية الأجور، تنص اللائحةُ المالية الخاصة بقانون العمل، على مبلغٍ قدره ٧ جنيهات مصرية، أُجرة «يومية العمل» للسجين ولا يتقاضى إلا نصفها، والنصف الآخر عند خروجه. عند المقارنة بين يومية السجين المصري والمواطن المصري الذي يعيش تحت خط الفقر المُدقع حسب إحصائية للجهاز المصري للتعبئة والإحصاء عام ٢٠١٩- ٢٠٢٠،[٥٠] وهي ٣٠ دولار شهريًّا، أي ٤٨٠ جنيه مصري تقريبًا، بينما السجين المصري يعمل بـ ٧ جنيهات لليوم عدا يوم الجمعة والإجازات الرسمية، أي يعمل تحديدًا ٢٦ يومًا، بمعدل ١٨٢ جنيه شهريًّا يتقاضى نصفهم أي ٩١ جنيه شهريًّا، أي أن السجين أجره، كأجر عملٍ، لا يصل إلى معدل الفقر المُدقع للمواطن المصري الحُرّ. هذا في ظل غلاء أسعار الكانتين الداخلي للسجن، ما يعني أن دخل السجين العامل يقل تقريبًا ٥ أضعاف عن دخل المواطن المصري الغارق في أوحال الفقر. وغير ذلك، فإنه حتى لا ضمان لنَيل هذه الأجرة، لأن الضابطَ المسؤول هو الذي يُقرر معدلات إنتاج السجناء يوميًّا، وعلى إثر ذلك يُصرَف لهم مستحقات عملهم أو لا يُصرف.

هذه النمطيةُ في إدارة الأشغال السجنية، فضلا عن أنها تُفقِد السجينَ أدنى حقوق عمله، من أجرٍ عادل أو معاملةٍ قانونية أو سُلطةٍ يحتكم إليها، عبر تقنين السلطة ذاتها كل هذا في إطارٍ دستوري تتعامل

(٥٠) «بحث الدخل والإنفاق لعام ٢٠١٩ - ٢٠٢٠»، الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء المصري، نشر في كانون الأوّل (ديسمبر) ٢٠٢٠.

بـه وفـق رؤيتها مـع السـجين. لكنهـا أيضًـا، تُديـر منظومـةَ العمـل بنظـامٍ رأسـمالي مَحـض، إذ عبـر هـذه العمالـة الكثيفـة تسـتفيد السـلطة، بـدلًا مـن أن تأتـي بعُمـالٍ مـن الخـارج، أو حتـى تزيـد مـن مهمـات رجالهـا، المُخبريـن أو العسـاكر المُجنَّديـن.

أيضًـا، ثَـمة بعـدٌ أهـم مـن ميزانيـة الربـح والخسـارة بالنسـبة للسـلطة، وهـو البُعـد الفلسـفي المَرئـي الخـاص بنظـام تشـغيل السـجن Prison operating system، إذ إنّ السـجناء يَخدمـون السـجناء ورجـال السـلطة معًـا، مـن خـلال الطبـخ والغسـيل والتنظيـف وغيـر ذلـك، وهنـا تسـتكمل السـلطة سياسـاتها المنهجيـة غيـر المُباشـرة، في تسـخير أجسـاد السـجناء طيعـةً لسُـلطويّتهم. ومـن خـلال هـذا، يشـعر السـجين أنـه عامـل وخـادم ضمـن منظومـة عمـلٍ كبيـرة؛ هـذا مقارنـةً بشـعوره الذاتـي التحـرّري، إن كان لا يعمـل، حيـث يُجهّـز لـه سـبل معيشـته ويُخـدم مـن قِبـل رجـال السـلطة. أعمـالٌ مثـل تنظيـف ومسـح الأرضيـات والمكاتـب والزنازيـن والمراحيـض، ضمـن أشـغال السـجين، سـواء بشـكلٍ رسـمي أو غير رسـمي، يقـوم بهـا بـدلًا مـن رجـال السـلطة، لأن رجـل السـلطة هنـا لا يصـح أن يعمـل كمُنظـف أو غسّـال أو طبـاخ للسـجناء، هـو يُعاقِـب ويُـروِّض ويُنظِّـم الأشـغالَ فقـط، وإلا تـترنح هنـا مرئيـات العقـاب، ويتموضـع السـجين فـي وقـتٍ مـا، نفسـيًّا وعمليًـا، علـى أنـه يُخـدَم ولا يَخـدم ـ مـا يجعلـه يَشـعر ولـو لفتـرةٍ بسـيطة أن لـه حقـوق، إنسـان يتعايـش وفـق حقـوقٍ وواجبـات.

الجسد الخادم

ليست فقط العمالة الرسمية هي غير العادلة للسجناء، بل يستخدم مسؤولو السلطة العقابية (ذو الرتب العالية، ضباط السجن)، السجين العامل كخادمٍ شخصي لهم. السجناء العاملون في المطبخ، هُم من يُجهِّزون وجبات الإفطار والغذاء للضباط وبعض الأمناء والمُخبرين، وكذلك العاملون في النظافة، هم مَن يقومون بغسل الحمامات الخاصة بالضباط، وهذا تحت إشراف وأعين رجال السلطة من مُخبرين وأمناء الشرطة وعساكر. يتذكر أحدُ السجناء قائلًا: «كُنت أرى السجين، وهو يمشي مُنحنِيًا ببدلته الزرقاء الواسعة حاملًا صينية بها أجود أنواع الطعام، أو صينية بها أكواب الشاي سواء في الصباح أو وقت ما بعد العصر، يمشي خلف أمينٍ للشرطة متجهًا نحو مكاتب الضباط أو أماكن أخرى يجتمعون فيها، ينتهون من الطعام ويرجع السجين حاملًا ذات الصينية فارغة بغيّة غسلها أو ربما إعداد غيرها».

لم يعلم السجين أنه لن يتكلم بعد ذلك، وأنه سيرى نفسه عاريًا، مقرفصًا، يُخرج فضلاته، يُفتَّش جسده تفصيلًا، تُغمَّى عيناه، يُكلبش لساعاتٍ طويلة، يُربط لساعاتٍ أطول في عراء الأعين المحيطة به، يُلفَظ بشرفه وشرف أُمه عبارات السباب في حين أن وجهه مُنخفض، ويداه وراءه لا يستطيع الاعتراض على أي شيء، ينام ويستيقظ بالأمر، يعمل بالسخرة، يعيش لسنوات على أرضٍ وسط أجسادٍ لا يأتمن جسدَه بجانبها. وعليه يصل السجين إلى مفهوم استباحته كإنسان. إنسان يتعودُ على الألم، بل ويُصاحبه ويتعايش معه، إذ إنّ الألم الذي لا يُمكن مُقاومته يمكن التعايش معه. وفي تفسير

إقبال السجناء سعيًا نحو الخروج إلى العمل السجني، ليس من باب حبِّ العمل أو الكسب، فكما ذكرنا لا طائلة مادية مُجدية من عمل السجين، بل بحثه عن العمل، وكما يقول الأنثروبولوجي الفرنسي دافيد لو بروتون، «نوع من أنواع البحث عن المُسكِّنات»؛ هذا لأن عمل السجين يُرجِع له شيء ما من كينونته التي فقدها، العمل الجماعي بالتوازي مع الجهد الجسدي المَبذول، يُعَدُّ مَخرجًا نحو استعادة شيء ذاتي ما إلى الجسد السجين.[٥١]

مع المزيد من المُعايشة وفق هذا النظام المرئي Visual System الذي حولَ حياة السجين إلى حياةٍ عارية، تخلو من أي شيء إنساني أمام سُلطةٍ استخدمتْ أدق التفاصيل اللازمة لإخضاعه، أو حتى بتركيبة فوكو لأفعالها التي سَماها البيوسياسية أو البيوسلطة[٥٢] Biopower، والتي بدَورها شكلت جسدًا جديدًا، يتكيف مع الحياة الجديدة التي اختارتها له، لتتحول العلاقة بين السجان مُتمثِّلًا في أعلى مراتب السلطة داخل الفضاء السجني، وبين السجين إلى علاقة سادو ـ مازوخية BDSM، ليست على نمط جنسي، بل هي تأخذ منها إيماءات الجسد واللغة في الخضوع التام من طرف تجاه طرف هذا التعبير الذي استخدمه فيلسوف الاستثناء الإيطالي جورجيو أغامبين[٥٣] في وصفه العلاقة بين سلطة الاستثناء Exception Authority وبين الإنسان المُستباح Homo Sacer لديها.

---

(٥١) دافيد لو بروتون، **تجربة الألم**، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، المغرب، ٢٠١٧، ص. ٥٣.

(٥٢) ميشيل فوكو، **تاريخ الجنسانية** إرادة العرفان، ترجمة محمد هشام، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٤، ص. ١١٦.

(٥٣) جورجو أغامبين، **السلطة السيادية والحياة العارية**، ترجمة عبد العزيز العيادي، منشورات الجمل، بغداد، ٢٠١٧، ص. ١٧٧.

هـذه الاسـتباحةُ التـي وصلـت حد أفعـالٍ وصفناهـا ضمن مفهوم «سـادو ـ مازوخيـة» Sadomasochism، يمكـن أيضـا أن تُفسـر بمنهجيـات غيـر الإخضـاع. وهـذا مـا ينقلنـا إلـى الممارسـات التـي أحدثَـتها التجربتـان اللتـان أُجريَـت القـرن الماضـي حـول مفهـوم الاسـتثارة الانفعاليـة Emotional excitement وهـي تجربـة سـجن سـتانفورد Stanford Prison Experiment عـام ١٩٧١[٥٤] لأسـتاذ علـم النفـس الأمريكـي فيليـب زيمبـادرو، وكانـت عبـارة عـن اختيـار ٢٤ متطوعًـا وكلهـم طـلاب فـي الجامعـة، وتـم تقسـيم المتطوعيـن علـى مجموعتيـن متسـاويتين ١٢ منهـم مسـاجين، والآخريـن حـراس ليتـم وضعهـم فـي قبـوِ جامعـة سـتانفورد الـذي جُهـز ليكـون محـاكاةً لسـجن حقيقـي، وبعـد ٦ أيـامٍ فقـط، أوقـفَ زيمبـادرو التجربـة، نظـرًا لاسـتخدام الحُـراس أسـاليب سـادية سـببتْ آلامًـا واضطرابـات عنـد السـجناء. أمـا الثانيـة، هـي تجربـةُ عالـم النفـس الأمريكـي سـتانلي ميللجـرام[٥٥] والـذي كُنيـت باسـمه Milgram experience وأجريـت عـام ١٩٦١. وهـي عبـارة عـن شـخصٍ مُتطـوِّع يختبـر شـخصًا آخـر، وكلمـا فشـل الشـخص فـي الاختبار، يُعاقـب بصدمـاتٍ كهربائيـة، وكلمـا زاد الخطـأ زادت حـدة الصدمـات تجـاه المُخطـئ وهكـذا. جميـع المتطوعيـن الذيـن بلـغ عددهـم ٤٠ رجـلًا وصلـوا جميعًـا إلـى تسـليط ٣٠٠ فولـت مـن أصـل حـدٍّ أقصـى ٤٥٠ فولـت. ١٤ منهـم توقفـوا عنـد هـذا الحـد وأوقفـوا التجربـة، أمـا الـ ٢٦ الباقيـن واصلـوا حتـى النهايـة وتمكنـوا مـن تسـليط فولتيـة ٤٥٠ القاتلـة، أي ٦٥ ٪ مـن مجمـوع المتطوعيـن أطاعـوا أوامـر القائـم علـى التجربـة، فـي زيـادة مسـتوى الصدمـة حتـى المـوت، لدرجـة أن هـؤلاء

---

(٥٤) Saul McLeod, «The Stanford Prison Experiment», Simple Psychology, 2020 .

(٥٥) Saul McLeod, «The Milgram Shock Experiment», Simple Psychology, 2017.

المتطوعيـن لـم يُكلفـوا أنفسـهم عنـاء الذهـاب إلـى الغرفـة المجـاورة للاطمئنـان علـى صحـة الضحيـة.

مـن خـلال تجربـتَيّ زيمبـادرو وميللجـرام، تبـينَ أن ضمان عـدم المعاقبة للسَّـجانين قبـل التجربـة، أعطاهـم مسـاحة أكبـر لاسـتباحة نفـس وجسـد السـجناء خلالهـا، مُوضحًـا أن حالـة الاطمئنـان لعـدم المحاسـبة القانونيـة، كانـت دافعًـا أساسـيًّا لمـا يفعلـه أفـراد السـلطة العقابيـة داخـل السـجون مـن عُنـفٍ ممنهـج علـى أجسـاد السـجناء، فهـي لا تُحاسِـبُ مَـن تسـبب فـي ضـررٍ نفسـي أو جسـدي. الـكلام هنـا عن تَسـليط الضـوء علـى القيمة العُليـا Highest Value التـي تتعمـد السـلطة العقابيـة إعطاءهـا لأفرادهـا مُتمثلـةً فـي الحفـاظ علـى أمـن الوطـن ونظامـه وسـلامة المُجتمـع، فضـلًا عـن فزاعـة قـوى الشـرِّ والإرهـاب، والتـي تُغـذَّى خصيصًـا للتعامـل بـكل قسـوة مـع السـجناء السياسـيين فـي السـجون المصريـة، وهـو مـا سَـماه أسـتاذ الاجتمـاع البولنـدي زيجمونـت باومـان «نـزع الإنسـانية مـن أجـل الهـدف البيروقراطـي»[٥٦] والـذي يتمثـل فـي الحفـاظ علـى النظـام القائـم الجالـب للأمـن والاسـتقرار والتقـدم والنهضـة. هـذا بالضـرورة، يُفسـر ساديةَ رجـال السـلطة العقابيـة داخـل أسـوار السـجن مـع السـجناء فقط، مـن خـلال تَوفُّـر عـدة عوامـل أوجدهـا نظـام السـلطة العقابيـة، فوجـبَ عليهـم أيضـا الطاعـة، ولا تَتعـارض هـذه السـادية المُتوحشـة، مـع كَـون الشـخص المُعـذِّب، هـو أيضًـا العطـوف والكوميديـان مـع زوجتـه وأولاده وأقاربـه وجيرانـه، وهـذا مـا نسـتفيض حولـه فيمـا هـو قـادم، مُتسـائلين هـل حقيقـةً يكـره السَّـجان السـجين؟

---

(٥٦) مصدر سابق، زيجمونت باومان، **الحداثة والهولوكوست**، نزع إنسانية الأهداف البيروقراطية، ص. ١٨٥.

مـع التقـارب أكثـر بشـأن كيفيـة «تشـكيل الإنسـان جسـدًا وعقلًا» حسـب وصـف فوكـو داخـل المؤسسـات المِيريـة، نُصـوِّب عينًـا بالمقارنـة بيـن مؤسسـة الجيـش وسُـبل تطويعهـا وإخضاعهـا للمُجنديـن الجـدد لديهـا وبيـن المنظومـة السـجنية وسُـبل تطويـع السـجناء. حكـى المُجنـدون فـي فيلـم العسـاكر التـي بَـثـته شـبكة الجزيـرة(٥٧) في كانـون الأوّل (ديسـمبر) مـن عـام ٢٠١٦، قصـصَ عمالـةِ «عسـاكر» الجيـش، عنـد رؤسـائهم بشـكلٍ شـخصي، مــن تلبيــةِ طلبــاتٍ شــخصية للأســرة، فضــلا عــن خدمــات العمالـة الرخيصـة التـي يعمـل بهـا المُجنـدون لغـرضٍ شـخصي، بالإضافـة إلـى تشـابه رواتـب كلٍّ مـن السـجين العامـل والجنـدي. وهـي المؤسسـة أيضًـا التـي تعتمـد فـي تعاملاتهـا علـى مبـدأ الضعيـف والأكثـر ضعفًـا بيـن العسـاكر، امتـدادًا لمـا فوقهـم مـن رُتــبٍ، حسـب شـهادات أفرادهـا. فضـلًا عـن بدايـات الدخـول هنـا وهنـاك فـي طـور التجريـد مـن الملابـس والسـباب والضـرب بعـض الأحاييـن، مـع بدايـة دخـول مراكـز التدريـب، نقصـد هنـا مراكـز التدريـب التابعـة لقـوات الداخليـة،(٥٨) وليسـت التابعـة إلـى القـوات المُسـلحة.

ويكمـن هنـا الفـرقُ فـي تدجيـن المشـاعر أو بوصـفٍ آخـر: عَسـكرتها.(٥٩) المشـاعر التـي تُبـث للسـجين فـي بدايـات إخضاعـه هـي مشـاعر الذنـب والخـوف والمراقبـة وهـدم عقلـه وذاتـه، وينتـج عنهـا طاعـة مُباشـرة مُتخوفـة مـن العقـاب. بينمـا تُفعَّـل حالـةُ الخضـوع للجنـدي، عبـر دعـوى

(٥٧) «فيلـم العسـاكر»: حكايـات عـن التجنيـد الإجبـاري بمصـر، وثائقـي الجزيـرة، نشـر فـي ٢٧ تشـرين الثانـي (نوفمبـر) ٢٠١٦.

(٥٨) غضـب بمواقـع التواصـل لوفـاة شـاب مصـري أثنـاء أدائـه الخدمـة العسـكرية، شـبكة الجزيـرة الإخباريـة، نشـر فـي ٢ شـباط (فبرايـر) ٢٠٢٠.

(٥٩) مجـدي عطيـة، «عَسـكرة المشـاعر فـي الجيـوش الحديثـة، معنـى أن تكـون جنديًـا»، موقـع بـاب الـوادي، نشـر فـي ٦ كانـون الثانـي (ينايـر) ٢٠١٧.

مشـاعر الوطنيـة والقِيـم المُثلـى فـي الحفـاظ علـى أمـن وسـلامة البـلاد مـن المخاطـر والشـائعات المُتربصـة بهـا دائمًـا؛ لا سـيما فـي السـنوات القليلـة الماضيـة (مـا بعـد ٢٠١٣) والتـي بثـتْ فيها السـلطة حالةَ اسـتـثناء فـي وجـدان الشـعب المصـري.[٦٠] إلا أن جنـدي الأمـن المركـزي، يشـترك أحيانـا مـع السـجين فـي العقـاب، عنـد مُخالفـة أوامـر مَرؤوسـيه، كمـا فـي عـدة حـوادثَ أدتْ إلـى مقتـل عـدة مُجـنَّدين تابعيـن لمُعسـكرات الأمـن المركـزي بيـن عامَـي ٢٠٠٨ و ٢٠١٥، إثـر تعذيـب بضعـة ضبـاطٍ لهـم، بسـبب مُشـاداتٍ بينهمـا وعصيـان للأوامـر.[٦١]

(٦٠) أحمـد عبـد الحليـم، «الجنديـة المصريـة: مـن نَـزعِ فـأس الفـلاح حتـى عَسـكرة المشـاعر»، مجلـة فسـحة الثقافيـة، نشـر فـي ٦ نيسـان (أبريـل) ٢٠٢١.

(٦١) الوثائقـي: «مـوت فـي الخدمـة» يرصـد الانتهـاكات ضـد أفـراد الأمـن المركـزي فـي مصـر، وثائقــي بــي بــي ســي، نشــر فــي ٣٠ آذار (مــارس) ٢٠١٦.

الجسد المَريض

مـع كل هـذا، يمتلـك التعفـن والمـرض الجسـد. والمـرض هنـا نوعـان: مـرض عضـوي أو نفسـي/عقلي. المـرض العضـوي، مُتمثـل فـي أمـراض السـكر والقلـب وضعـف المناعـة والأنيميـا الحـادة والقلـب، وغيـر ذلـك مـن أمـراض قلبيـة وبطنيـة وعظاميـة، تُصيـب السـجناء كمـا تصيـب الأحـرار فـي الخـارج. لكـن الفـرق هنـا أن الأحـرار يمكنهـم الذهـاب إلـى المستشـفيات الحكوميـة أو العيـادات الخاصـة، وإجـراء الفحوصـات، واتخـاذ الإجـراءات اللازمـة نحـو الشـفاء، أمـا السـجناء فـلا حيلـة لهـم، سـوى الشـكوى، وانتظـار اسـتجابة إدارة السـجن لمـا قَدمـوه مـن شـكاوى. فـي الغالـب، لا تسـتجيب إدارة السـجن بشـكلٍ سـريع، لأوجـاع السـجناء، إلا فـي حـالاتٍ قليلـة، مثـل إغمـاءات السـجناء وفقدانهـم الوعـي، حينهـا يتـم إخـراج السـجين إلـى مستشـفى السـجن أو مستشـفى خارجـي، حسـب قـرار دكتـور السـجن. هنـا أيضـا، تلعـب الطبقيـة دورًا، وهـذا إن كان السـجين يتمتـع بطبــقية سـجينية. حينـذاك، تسـتجيب إدارة السـجن لطلبـه، نظـرًا لأنـه مـن سـجنائها المُميزيـن الذيـن لا يُطـبَّق عليهـم ممارسـات العقـاب والنبـذ.

أمـا المـرض النفسـي أو النفسـي العقلـي، أي الاضطـراب أو الجنـون Disorder Or Insanity، وهـو مـا يَعنـي إصابـة أحـد السـجناء بالهذيـان النفسـي والعقلـي، فيُترجـم ذلـك فـي ممارسـاتٍ غيـر عقلانيـة، مثـل الصـراخ الدائـم، الضحـك الدائـم، الحديـث الدائـم، الصمـت الدائـم، ضـرب وسـب الأجسـاد مِـن حولـه دون التفرقـة بيـن سـجينٍ ورجـل سُـلطة، صَـرع وتشـنج حـد الإغمـاء، تشـويه الجسـد، وغيـر ذلـك. بالطبـع، لا توجَـد أي إحصائيـاتٍ عـن السـجناء الذيـن يُعانـون مـن اضطرابـات

نفسـية وعقليـة داخـل السـجن فـي مصـر، هـذا لأن وجودهـم مـن الأسـاس فـي السـجن شـيء غيـر صِحـي وغيـر قانونـي، فمـنَ المُفتـرض أن يتـم نقـل مَـن يتـم تَشـخيصه بالاضطرابـات النفسـية/العقلية، والتـي تصـل بالجسـد إلـى ممارسـات غيـر طبيعيـة، ممارسـات تضـرُّ بالنفـس والآخريـن، إلـى المصحـات النفسـية والعقليـة المُخصصـة لاسـتقبال مـن يعانـون، وبدورهـم يتـم التشـخيص والبـدء فـي العـلاج.

شـهاداتُ مَـن قابلناهـم، تسـرد أنهـم رأوا بعض الحـالات التي كانـت تُعاني مـن اضطرابـات، لـم يسـتطيعوا أو يعرفـوا تشـخيصها، ولـم تهتـم إدارة السـجن بِهـم أبـدًا. هـذه الحـالات، كانـت تُعانـي مـن صدمـاتٍ نَفسـية، تُـترجَم فـي مُمارسـات، أشـبه بجنونيـة، مثـل ضـرب وشـتم جميـع النـاس مِـن حولهـم، الصـراخ الدائـم أو الصمـت الدائـم، وربمـا هـذا الصمـت أو الصـراخ يأتـي مـن نفـس الشـخص، لكـن علـى فتـراتٍ، بمعنى أن الشـخص المُصـاب، يمكـث لعـدة أشـهر لا يتوقـف عـن الـكلام أو الصـراخ أو السـبِّ أو الضـرب، ومـن ثـمَّ تأتـي عليـه شـهور أُخـرى لا يتكلـم، يمـارس حياتـه بصمـتٍ تـام.[٦٢] يُرجِـع الطبيـب النفسـي الإنجليـزي تيـري كوبـرز، والـذي ألــف دراســةً عَنونهــا «الجنــون فــي غياهــب الســجون: أزمــة الصحــة العقليـة خلـف القضبـان ودورنـا فـي مواجهتهـا»، والصـادرة بالإنجليزيـة Prison Madness: The Mental Health Crisis Behind Bars and What We Must Do About It عـام ١٩٩٩، حيـث تنـاولَ فيهـا أثـر ظـروف السـجن المَعيشـية علـى الصحـة النفسـية والعقليـة الخاصـة بالسـجناء، إذ إن اضطرابــات الســجناء جــاءت بســبب الظــروف التــي يتعرضــون لهـا طيلـة مـدة سَـجنهم، مـن عُمـران مميـتٍ ومُهيـن وكئيـب، ازدحـام

(٦٢) مرويات، ضمن المقابلات.

وتَكـدس الأجسـاد بعضهـا فـوق بعـض، فقـدان الخصوصيـة، الاعتـداءات العنّفـية، سـواء الضـرب الجسـدي، أو العنـف الجنسـي، الإهانـات الدائمة، الحبـس الانفـرادي.[٦٣] كُل هـذه الممارسـات والمَرئيـات الحياتيـة، تُسـبِّب مـع عوامـل أُخـرى، ربمـا تكـون عوامـل لهـا علاقـة بالطفولـة أو الصدمـات الحياتيـة التـي عانـى منهـا السـجناء قبـل دخولهـم السـجن. كل هـذا أو بعضـه، يتجمـعُ كـي يكون سـببًا رئيسـيًّا فـي الاضطـراب العقلي والنفسـي.

هـذا الاضطـراب، عندمـا يأتـي علـى شَـكل صـراخ وسـبٍّ وتَشـنج وصـرَع مُـلازم للسـجين، تتدخـل السـلطة، هـذا مـن المُلاحَـظ، علـى عكـس الاضطـراب الصامـت، التـي لا تهتـم السُـلطة بـه. وهـذا مـا يأخذنـا إلـى وضـع الاضطراب/الألـم فـي ثـوب المُقاومـة الغيـر مَقصـودة، مُقاومـة سُـلطة نَـتجتْ مـن أفعـال السـلطة ذاتهـا. هـذه المُقاومـة تتمثـل فـي جسـدٍ لا يهـدأ، يصـرخ ويَسـب ويضـرب، ولـو بغيـر إرادتـه، جسـدٌ مُتألـم مُقـاوم، عكـس مـا تُريـده السـلطة، جسـدٌ متألّـمٌ صامـتٌ، لا يتكلـم إلا بمُفـردات الطاعـة والخضـوع.[٦٤] لذلـك، تتدخـل السـلطة وتحـاول أخـذ هـذا الجسـد، وتُشـخِّصه، وتعمـل علـى تهدئـته لا بهـدف العـلاج، بـل مـن أجـل هندسـته مـرةً أُخـرى علـى الاستسـلام للمَرئيـات الحياتيـة، وإن لـم تُفلـح تطـرده خـارج المنظومـة السـجنية، ليعيـش فـي المصحـات النفسـية، لكـن تحـت سُـلطتها القانونيـة.

---

(٦٣) تيـري كوبـرز، **الجنـون فـي غياهـب السـجون: أزمـة الصحـة العقليـة خلـف القضبـان ودورنـا فـي مواجهتهـا**، ترجمـة أميـرة علـي عبـد الصـادق، مؤسسـة هنـداوي للتعليـم والثقافـة، القاهـرة، ٢٠١٥، ص. ٧٣.

(٦٤) مرجع سابق، دافيد لو بروتون، **تجربة الألم**، ص. ١٩١.

الجسد الميت

السجناء في مصر، لا سيما أصحاب الأحكام الطويلة، الذين يَعرفون أن لا مفر قريب من هذا الجحيم السجني، يُدركون أن سببَ تعاستهم واضطرابهم النفسي، هو بقاؤهم من الأساس على قيد الحياة، بقاء أجسادهم تتحرك بكلِّ ما فيها من عقلٍ وروح ونفس، ولذلك قد يُفكِّرون أو يُقبلون على الخلاص مِن حياتهم عن طريق الانتحار Suicide، قتل نفسهم، يأسًا وتمردًا، احتجاجًا على نمط عَيشهم، وهروبًا من استبدادٍ لا يُقاوَم؛ لأنهم يرون أن الاستسلامَ ليس له جدوى، أي لن يُخفِّف المُعاناة. كثيرًا ما نسمع عن محاولات انتحارٍ فاشلة أو ناجحة، للعشرات من السجناء، خاصة السجين السياسي، التي تُعرَف أخباره بواسطة المنصات الإعلامية والمنظمات الحقوقية، بالرغم من أن انتحار السجين الجنائي تواجدَ بشكلٍ دوري، إلا أن الاهتمامَ كما ذكرنا ينصبُّ على السجين السياسي.[٦٥]

قسَّم الاجتماعيُّ الفرنسي إيميل دوركايم ظاهرةَ الانتحار (١٩١٧-١٩٥٨)، في دراسته الشهيرة المُعنونة بذات الاسم إلى أربعة أنواع.[٦٦] هذه الدراسة التي أثنى عليها الكثيرون من عُلماء النفس والاجتماع، منهم الفيلسوف الفرنسي المعاصر جوهان ميشال، إذ نسبَ إلى

---

(٦٥) انظر التقرير الحقوقي لمنظمة «نحن نسجل» we record الصادر لعام ٢٠٢١، بعنوان حصاد عام ٢٠٢١، حيث أصدرت المنظمة تقريرًا يحوي ٦٠ حالة وفاة (٥٢ سياسي، ٨ جنائيين بينهم ٦ أطفال). من المؤكد أن مَن مات داخل السجون من السجناء الأساسيين هم أكثر من ٨، لكن المنظمة تركز أكثر على السجناء السياسيين، فضلا عن صعوبة توثيق موت السجين الأساسي أيضا.

(٦٦) إميل دوركايم، **الانتحار**، ترجمة حسن عودة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ص.١٧٠-٢٦٥-٣٠١.

إيميـل دوركايـم تفكيـك مـا يُعـرف بالواقعـة الجماعيـة، أو الوقائـع الاجتماعيـة، بمـا أنـه لـه الفضـل فـي إخـراج الظاهـرة مـن التحليـل النفسـاني الفردانـي إلـى الجمعانـي، وبَحـث فـي أسـباب الاجتمـاع بفَضاءاتـه الخارجيـة المُتعـددة، لـيُحاكي ويُفسِّـر مفهـوم وممارسـة الانتحـار مـن منظـورٍ اجتماعـي.(٦٧)

النـوع الأول، وهـو مـا سَـماه الانتحـار الأنانـي Selfishness Of Suicide، أي شـعور الإنسـان بالعزلـة عـن الاجتمـاع البشـري الـذي يـدور حولـه، مـن علاقـاتٍ وروابـط إنسـانية ومنافـع متبادلـة، مـا يـؤدي إلـى تنامـي المنفعـة الشـخصية عنـد الفـرد علـى حسـاب أي منفعـة أخـرى، ويـرى الشـخص فـي منفعتـه الشـخصية الخـلاص مـن حياتـه، غاضًّـا النظـر عـن الاجتماعـات مـن حولـه، خاصـةً الاجتماعـات العلاقاتـية القريبـة منه، مثل الوالـد، الوالـدة، الأخـوات والأصدقـاء. هـذا علـى عكـس النـوع الثانـي الـذي سَـماه الإيثـاري Altruistic Suicide، وهـو نـوع ينظـر الإنسـان فيـه إلـى احتياجـات المجتمـع مـن حولـه أكثـر تحدقًـا مـن احتياجـه الفـردي، غيـر أن هـذه الاجتماعـات التـي قـدم لهـا الإنسـان الإيثـاري كل اهتماماتـه قـد تدفعـه إلـى الانتحـار، فيمـا لـو حـدث خلـل فـي نظرتـه إلـى هـذه الاجتماعـات، الخلـل هُنـا يكمـن فـي صدامـات وتَعنيفـات ناتجـة مـن الدوائـر المُقربـة لديـه، والـذي يـرى فـي وجودهـا التصالحـي معـه وجـودًا حياتيًّـا لكيانـه الذاتـي.

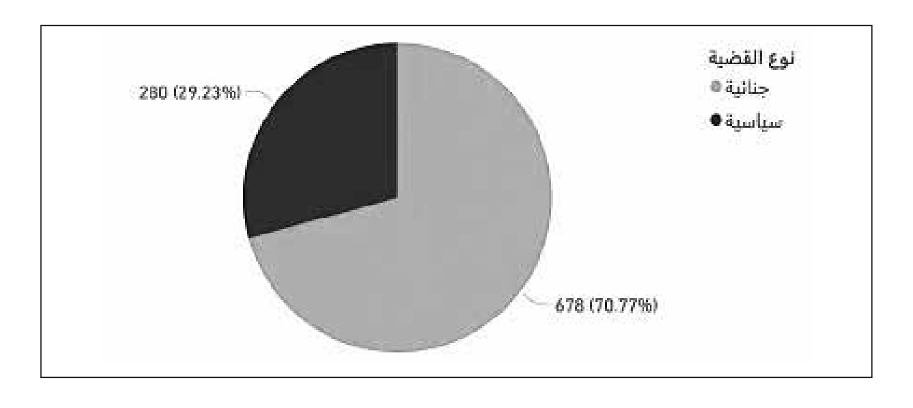
بينمـا كان المعيـاران الثالـث والرابـع عنـد دوركايـم أكثـر تقاربًـا. الثالـث

(٦٧) جوهـان ميشـال، **صناعـة العلـوم الاجتماعيـة مـن أوغسـت كونـت إلـى ميشـال فوكـو**، ترجمـة الحسـين الـزاوي، دار الروافـد الثقافيـة - ناشـرون، دار بـن النديـم للنشـر والتوزيـع، بيـروت ٢٠٢١، ص. ٣٦.

ما يُعرف بـ الانـتحار اللا-معيـاري Non-Normative Suicide هـو الـذي يظهـر عنـد نشـوء اضطـرابٍ فـي سـلوك وضوابـط المجتمـع، كإطلالـة الحداثـة Modernism علـى مجتمـعٍ ريفـي أو كسـاد اقتصـادي مفاجـئ أو انتعـاش دون تـدرج، أي وجـوده فـي فضـاءٍ لـم يسـتطع التكيـف معـه، ومـن ثـمَّ يشـعر الإنسـان بانعـدام جـذوره وفقـدان الهُويـة. وهـذا مـا وُجـد مؤخـرًا فـي انتحـار الكثيريـن والكثيـرات، خاصـةً الشـباب منهـم، لـم يقـدروا علـى مُجابهـة الاغـتراب والابتـذال الـذي حـلَّ وتسـببَ فـي محـو كلِّ المعانـي والقيـم، فأقدمـوا علـى الخـلاص مـن حياتهـم، وهـذا فـي المجتمـع الخارجـي الحُـرّ. الأمـر نفسـه يتكـرر أحيانًـا فـي النـوع الرابـع الـذي أطلـق عليـه دوركهايـم اسـم الانتحـار القـدري Fatalistic Suicide. وهـو النـوع الـذي يُفضِّـل فيـه الإنسـان الانتحـار علـى أن يسـتمر فـي وجـوده داخـل الحيـاة الاجتماعيـة متمثلـةً فـي «النظـام والمجتمـع» اللذيـن يراهمـا أدواتِ قمـعٍ وتَسـلط. نـرى هـذا النـوعَ فـي انتحـار التونسـي محمـد بوعزيـزي، عندمـا أشـعل النيـران فـي نفسـه احتجاجًـا وتمـردًا علـى الظلـم الواقـع عليـه مـن السـلطة التونسـية، فيمـا نتـج عـن ذلـك ثـورة الياسـمين التونسـية فـي كانـون الأوّل (ديسـمبر) مـن عـام ٢٠١٠. أيضًـا، هـذا النـوع الانتحـاري، هـو السـبب الرئيسـي، الـذي يدفـع السـجناء إلـى الانتحـار، وتوقيـف جسـدهم عـن العمـل، ربمـا تتداخـل أسـبابٌ أخـرى عضويـة ونفسـية معًـا، مثـل الجنـون والاضطرابات النفسـية المُتعـددة، التـي أصابـت السـجين بالأسـاس بسـبب القهـر الواقـع عليـه.

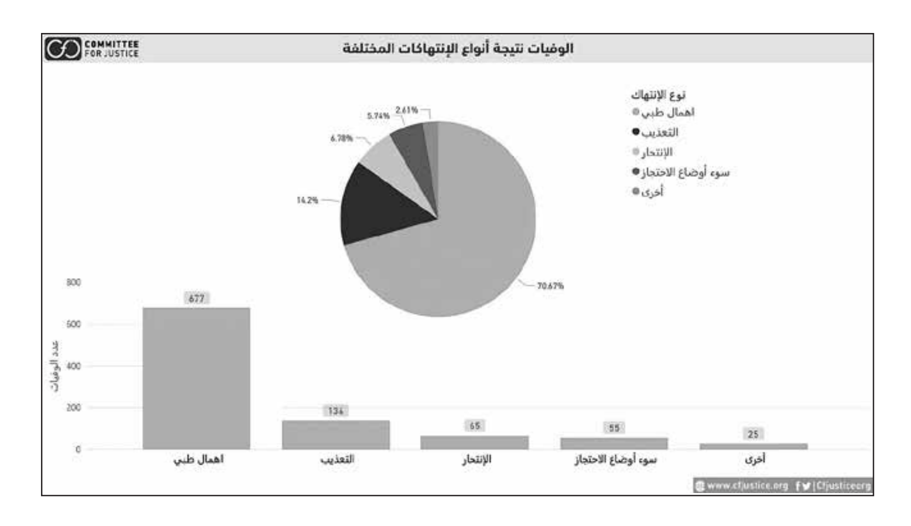
رصـدت منظمـة لجنـة مـن أجـل العدالـة Committee For Justice فـي تقريرهـا الصـادر فـي كانـون الأوّل (ديسـمبر) مـن عـام ٢٠١٩، بعنـوان

«بـدون محاسـبة: حـالات الوفـاة داخـل مراكـز الاحتجـاز المصريـة»[٦٨] والـذي يُقـدر عـددَ الوفيـات داخـل مقـرات الاحتجـاز المصريـة خـلال سـت سـنوات مُنـذ كانـون الثانـي (يوليـو) ٢٠١٣ إلـى تشـرين الثانـي (نوفمبـر) ٢٠١٩ بــ ٩٥٨ حالـة وفـاة. والجديـر بالذكـر أن المنظمـةَ لـم تُفـرِّق أو تسـتثني السـجناء الأساسـيين مـن رصدهـا، عكـس أغلـب المنظمـات الحقوقيـة التـي تُفـرغ طاقاتهـا لظـروف احتجـاز السـجناء السياسـيين فقـط. تنوعـت أسـبابُ الوفـاة مـا بيـن الإهمـال الطبـي والتعذيـب الجسـدي وحـالات الانتحـار وسـوء ظـروف المعيشـة. جـاءت نسـبة وفـاة السـجناء الأساسـيين متفوقـة بمـرةٍ ونصـف علـى السـجناء السياسـيين، مـن حيـث تعـداد الوفيـات، حيـث بلغـوا ٦٧٨ بنسـبة ٧٠,٧٧٪ مـن إجمالـي الوفيـات، مـا يلفـت النظـر دائمًـا أن أيَّ انتهـاكاتٍ حدثـت للسـجين السياسـي، هـي بالفعـل نمط معيشـي روتيني بالنسـبة للسـجين الأساسـي. بينمـا قـدرت المنظمـة مـوت عـدد ٢٨٠ سـجينًا سياسـيًّا مُتمثـلا بالنسـبة المُتبقيـة ٢٩,٣٣٪. وجـاء الانتحـار بالمرتبـة الثالثـة مـن حيـث سـبب الوفـاة بعـدد ٦٥ حالـة، بعـد الإهمـال الطبـي والتعذيـب الجسـدي بتعـداد ٦٧٧ و١٣٦ علـى التوالـي.



(٦٨) تقريـر «بـدون محاسـبة: حـالات الوفـاة بداخـل مراكـز الاحتجـاز المصريـة»، Committee for Justice، نشـر فـي ١٠ كانـون الأوّل (ديسـمبر) ٢٠١٩.

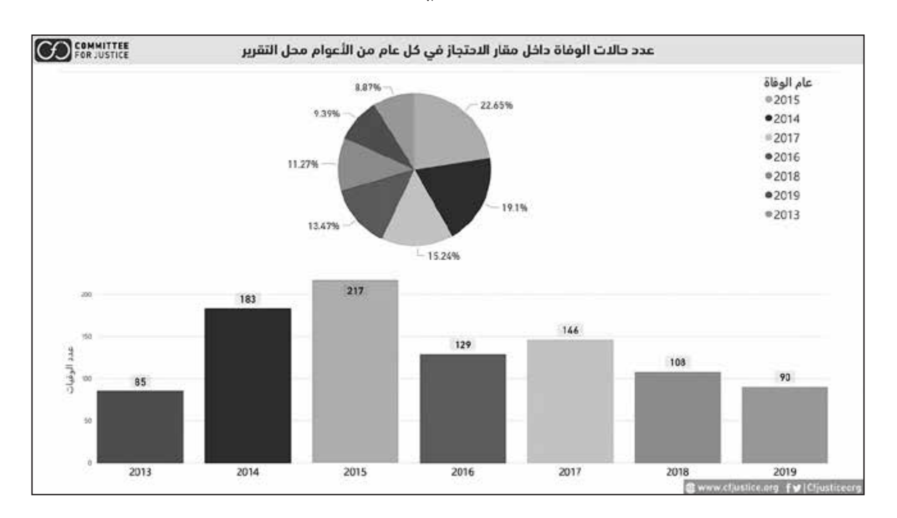
المـوتُ جـراء التعذيـب، حصـل علـى المرتبـة الثانيـة مـن حيـث سـبب الوفـاة، بتعـداد ١٣٦ حالـة وفـاة بيـن السـجين الجنائـي، وهـو الأكثـر موتًـا، والسـجين السياسـي يليـه. يتبيـن مـن تلـك الإحصائيـات أن حـالات التعذيـب التـي تـؤدي إلـى الوفـاة، ليسـت فقـط هدفهـا الاسـتجواب الذي يخـص السـجين السياسـي لـلإدلاء بالمعلومـات التنظيميـة أو السياسـية، أو حتـى التعذيـب بغيـة الانتقـام، بسـبب الخـلاف الأيديولوجـي بيـن مَـن يُمثـل السـلطة ومَـن يُمثـل المُعارضـة، بـل هـي أيضًـا تدخـل فـي إطـار التعامـل السـادي مـع جسـد المُحتجـز، أيًّـا كان سـبب احتجـازه فيمـا سـمَّى ياسـين صالـح، «التعذيـب الإبـادي».[٦٩] وبالتطـرق إلـى النـوع الجنسـي «الجنـدري» لحـالات الوفـاة، للأسـف لـم يَذكـر التقريـر تعـداد وفيـات السـجينات سـواء السياسـيات أو الأساسـيات.



ومـن خـلال عـرض تعـداد الوفيـات، علـى بعـض السـجناء السـابقين قيـد المُقابـلات، الصـادر عـن تقريـر المنظمـة لمـدة ٦ أعـوام، والـذي بلـغ

(٦٩) مصدر سابق، ياسين الحاج، **الفظيع وتمثيله**، ص. ٤٥.

٩٥٨ سجينًا، من أجل استقراء ردود فعلهم على هذا التعداد، أعربوا عن كونه أقل مقارنة بما شاهدوه بأعينهم خصوصًا بالنسبة لفترة ٦ سنوات. ولا سِيما أن موت السجين الجنائي غير متوقف على الحالة السياسية الاستثنائية التي تُكدس فيها السجون بمعتقلي الرأي والمُعارضة، بل هم يعيشون ذلك الاستثناء على مَرِّ عقودٍ طويلة من تاريخ السجن المصري. كذلك في عامَي ٢٠٢٠ و٢٠٢١، رصدت المنظماتُ الحقوقية المَعنية، عشرات الوفيات في السجون المصرية، كان أغلب الرصد أيضًا، يقع على السجين السياسي، خلافًا لما قَدَّمته منظمةُ Committee for Justice في تقريرها سالف الذكر.



المكان: مصر قبل الجمهورية، والزمان: يوم ٦ تشرين الثاني(نوفمبر) عام ١٨٥٨، وفي إحدى السرايات التابعة للخديوية العلوية (نسبةً إلى أسرة محمد علي) وهي سرايا إلهامي باشا ابن عباس باشا، وهو أخو خديوي مصر عهدئذٍ سعيد باشا. في نهار هذا اليوم، وقع العقاب على أحد عبيد حقل السرايا وكان اسمه سلطان العبد، حيث جُلِدَ ما يزيد عن ألف جلدة بأمرٍ من ناظر الإسطبل عمر بك، وذلك

لـتَخلفه يوميـن عـن ميعـاد رجوعـه إلـى الإسـطبل. لـم يكـتفِ عمـر بـك برسـم عقابـه علـى جسـد سـلطان العبـد، بـل حـرم جسـده مـنِ الْـتـئام جروحـه مـن خـلال منـع الطعـام والشـراب عنـه، حتـى زاد العـذاب وفقدت الـروح الجسـد ومـات سـلطان العبـد. إثـر ذلـك، اجتمـع عشـرات العبيـد (المُسـتعبَدين) غاضبيـن ممـا حـدث لـرفيقهم وهربوا مـن السـرايا ذاهبين إلـى الضبطيـة ناحيـة الأزبكيـة بالمحروسـة (القاهـرة حاليًـا)، وبدورهـم قـد أبلغـوا عـن الحـادث. وبالفعـل ذهبـت قـوةٌ مـن الضبطيـة وقبضـتْ علـى القاتـل عمـر بـك، وبعـد عـدة أشـهر عُوقـبَ بالنفـي خـارج مصـر غيـر عائدٍ إليهـا مـرةً أُخـرى.[٧٠]

لا تـدلُّ هـذه الحكايـة فـي عُمقهـا علـى وَحشـية ذوات السـرايا علـى العبيـد العامليـن لديهـم أو حتـى علـى عدالـة الضبطيـة والمحكمـة (الدولـة - السـلطة) فـي القصـاص للمقتـول، فلـو كان حُكمًـا عـادلًا لـكان جُلـد مثلـه حتـى مـات، أو وضـع فـي السـجن كعقوبـةٍ أقـل. مـع العلـم أنـه حينـذاك، مَـن كان يرتكـب السـرقة أو التشـرد أو الهـروب مـن الجيـش مـن عمـوم السـكان فـي مصـر، كان يُعاقَـب بعقوبـاتٍ شـديدة مثـل القتـل والجلـد والسـجن والكَـيِّ وقطـع أجـزاء مـن الجسـد كاليـد.[٧١] ولكنهـم اكتفـوا بـنَفيه ليـس لـتَحقيق العدالـة، بل لأنـه تجاوز حـق الدولـة فـي إنهـاء حيـاة أحـد الأجسـاد المُسـجَّلة لديهـا وأحـد أدوات الإنتـاج الحيويـة المَملوكـة لهـا. هـذا مثـالٌ ليـس بـأدق مـن مثـال أجسـاد السـجناء التـي تملكهـا السـلطة السـجنية، إذ لا تسـمح

(٧٠) خالـد فهمـي، «فـي كيفيـة تحويـل المواطنيـن إلـي خلعـاء بـلا ديـة: التعذيـب مـن غوانتانامـو إلـى أقسـام الشـرطة»، أخبـار الأدب، عـدد ٧١٨، نشـر فـي ١٧ نيسـان (أبريـل) ٢٠٠٧.

(٧١) خالـد فهمـي، **الجسـد والحداثـة**: الطـب والقانـون فـي مصـر الحديثـة، ترجمـة شـريف يونـس، دار الكتـب والوثائـق القوميـة، القاهـرة، ص. ٢١١.

السلطة أبدًا بموت سجينها، بل وتُقاومه بشَتَّى الطرق حتى لا يعتدي أو يتخلص من جسده، هذا لأنها تحتكر الجسد، ولا تسمح بمَوته إلا على يَدها.(٧٢)

محاولاتُ الانتحار متنوعةٌ ومُتعددة، أشهرها الشنق بأطراف الملابس أو الأغطية، ومن ثم تقطيع الشرايِين أو الذبح بواسطة الآلات الحادة المُهرَّبة. مُسير/سجين(٧٣) سابق لإحدى العنابر يَحكي عن الانتحار(٧٤) مُستطردًا: «طرق الانتحار مُختلفة، في عنابر الرجال، بواسطة الآلات الحادة عن طريق الذبح أو قطع الشرايين. الآلة الحادة هنا ممكن تكون شفرات، أمواس، عن طريق تهريبها أو أخذها من مكن الحلاقة البلاستيكية، أو حتى أثناء المشاجرات، عن طريق تكسير زجاج التلفزيون، وممكن عن طريق الشنق. صنع حبل متين وربطه وعلق نفسه ليلًا، أو حتى عن طريق القفز إن توفر أمامه مكان عالٍ. ولكن مَن يحاول الانتحار ويفشل يكون عقابه قاسٍ جدًّا بالضرب والتكدير والذهاب لعدة أيام لا تقل عن أسبوع في التأديب،(٧٥) وهي غرفة انفرادي، حيث يكون مجردًا من كل شيء عدا بذته الميرية

(٧٢) أحمد عبد الحليم، «الجسد والسلطة والحق في القتل»، مجلة جدلية، نشر في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٢٠.

(٧٣) المسير: هو السجين الذي يعمل تحت طوع إدارة السجن، إما بعرض نفسه أو بتشغيله استباقًا من قبل إدارة السجن، وبدوره يتولى التوزيع أو الإشراف على توزيع التعيين، وشؤون الزيارة وغير ذلك. جراء ذلك، يتمتع بامتيازات كثيرة، منها مصاحبة رجال السلطة، والخروج يوميًّا من الزنزانة، عدا الجُمعة، وغالبًا ما يكون تابعًا وعين لإدارة السجن تُراقب بها بقية السُجناء، لاسيما داخل الزنازين. مصدر سابق، أحمد سعيد، ص. ٥٩.

(٧٤) نقلنا هنا نص الشهادة، ضمن مقابلاتنا.

(٧٥) الفصل الثاني، تأديب المسجونين، تشريعات السجون المصرية، المبادرة المصرية للحقوق الشخصية، نشر في ١٧ أيّار (مايو) ٢٠١٧.

فقـط، والغريـب فـي هـذا الأمـر أن هنـاك مَـن ينتحـرون وهـم فـي غُـرف التأديـب عـن طريـق الشـنق وينجحـون. السـجين الجنائـي أم الاختـراع لأي شـيء داخـل السـجن. ضبـاط المباحـث والعنابـر ومعهـم مُسـير العنبـر ونبطشـي الزنزانـة حريصـون جـدًّا عـدم انتحـار السـجين أو موتـه داخـل السـجن، ولذلـك هـم يراقبـون جيـدًا مَـن يُهـدد بفعـل هـذا الأمـر، لكـن الشـخص المُنـتحر يُسـتدعى لـه طبيـب السجن لمعرفـة إن كان توفـي أم مـا زال علـى قيـد الحيـاة. فـي حالـة الوفـاة، لا تُلمـس الجثـة حتـى تُسـتدعى النيابـة لتأتـي وتـرى، ومـن بعدهـا تُقـرر: نقـل الجثـة إلـى الطبيـب الشـرعي أم دفنـه مباشـرةً. لـو كان القـرار هـو الدفـن، يُسـلم لأهلـه عـن طريـق السجن ذاتـه أو قسـم الشـرطة التابـع لمنطقتـه فـي محافظتـه. طبعًـا أسـباب الانتحـار هـي اليـأس والاكتئـاب مـن الحيـاة داخـل السـجن، خاصـة لـو وُجـدت مشـاكل خـارج السـجن تخـص عائلـة السـجين. والإحسـاس بالقهـر ومذلـة النفـس؛ وبذلـك تنتهـي القصـة»

يـوم مـوت أحـد السـجناء، يدخـل السـجن فـي حالـة اسـتثناء قُصـوى، إذ لا يسـمح للسـجناء فـي هـذا اليـوم بالخـروج مـن أجـل التريـض فـي الأوقـات المعتـادة، ولا يخـرج مـن الزنازيـن إلا عـدد قليـل مـن المُسـيّرين والعامليـن مـن السـجناء فـي مطبـخ ومخبـز وورش تصنيـع السـجن. كذلـك، تُفـرض حالـة الطـوارئ داخـل السـجن، وذلـك للسـيطرة علـى السـجناء، خاصـةً فـي حالـة مـوت السـجين منتحـرًا أو إثـر تعذيـب أحـد الضبـاط لـه، حيـث توجـد احتماليـة لمقاومـة أو احتجـاج زمـلاء السـجين الميـت، سـواء بهتـاف السـجناء أو دَقهـم علـى أبـواب السـجن وتجمهرهـم واعتراضهـم أو حتـى إضرابهـم عـن اسـتلام التعييـن، بالإضافـة إلـى حـرص إدارة السـجن علـى حمايـة أفرادهـا فـي

حالـة اتهـام أحدهـم مـن الطـبِّ الشـرعي بالإهمـال الطبـي أو تعذيـب السـجناء أو غيـر ذلـك.

لا يتبقـى أمـام السـجين مـن ممارسـات، تُشـعره بالحريـة سـوى ممارسـة الجنـس أو الاسـتمناء، الجنـس هنـا كممارسـةٍ تتـم بشـكلٍ خفـي، وتكـون علاقـة مثليـة، بعـض النسـاء أو بعـض الرجـال. والاسـتمناء هُنـا وهـو التقليـد المُتبـع لفَـكِّ الكبـت الجنسـي. كذلـك تشـويه الجسـد بـالآلات الحـادة، أو رسـم الوشـوم والتاتوهـات، أو التخلـص مـن الجسـد نهائيـا عـن طريـق قتلـه. لكـن السـلطة تُراقـب الجسـدَ مراقبـة شـديدة وفَعالـة، مـن خـلال كافـة أدواتهـا وتكتيكاتهـا. السـلطة تؤمـن أن هـذا الجسـد ملـكٌ لهـا، هـي فقـط التـي تسـتطيع تَشـويهه عبـر الضـرب أو الجلـد، أو قتلـه عـن طريـق التعذيـب حـدَّ الإبـادة (حـوادث فرديـة)، ولذلـك هـي تَحـرُس الجسـد باسـتمرار، تأتـي تفتيشـات السـلطة دائمـا، يُطلـب مـن السـجناء خلـع الملابـس، لرؤيـة الجسـد، إن كان شُـوِّه أو رُسـم عليـه، تُراقـب مَـن يريـد الانتحـار، عـن طريـق تَوصيـة السـجناء عليـه، بـأن يكـون تحـت أعينهـم، ويُجـرَّد ويُفـتش دائمـا، للبحـث عـن أي آلاتٍ حـادة لديـه، وأحيانـا يُعاقَـب بالضـرب المُبـرح إن عُـرف أن لديـه نيـة للانتحـار، ويتـم تَخطيـره، أي يُصنـف ضمـن الخطريـن؛[٧٦] وهـذا مـن أجـل إقناعـه وتخويفـه بشـأن عـدم القـدوم علـى فعـل الخـلاص.

(٧٦) التخطيـر: هـي علامـةٌ حمـراء توضَـع علـى بطاقـة السـجين، للدلالـة علـى أنـه سـجين مُشـاغب، ومـن الممكـن نقلـه إلـى عنبـر يسـمى «عنبـر الخطريـن»، مصـدر سـابق، أحمـد سـعيد، ص. ١٩.

الفصل الثاني:

الجـــنـــس والســـجـــن

النفـس والجـنـس

المسـألة الجنسـية داخـل الفضـاء السـجني، تُعـد مـن أهـم شـواغل السـجناء بالداخـل. السـجناء مـن الرجـال والنسـاء، جميعهـم بالغـون، عـدا المتواجديـن فـي الإصلاحيـات، لـم يَبلغـوا السـن القانونـي للرشـد وهـو ١٨ عامًـا، لكنهـم ربمـا قـد يكونـوا بلغـوا جنسـيًّا. الجنـس وأفـكاره ومُخـيلاته تـدور فـي كلِّ رؤوس السـجناء، حيـث الشـباب الذيـن لـم يُمارسـوا الجنـسَ مـن قبـل، الرجـال أو النسـاء المتزوجـون، والـذي قاطعَـتهم الممارسـة الجنسـية بسـبب دخولهـم السـجن. تتعقـدُ إشـكالية الاشـتياق أكثـر، عنـد السـجناء والسـجينات المحكـوم عليهـم بعـدد سـنوات كثيـرة، حيـث لا يسـتطيع أي إنسـان المكـوث سـنوات طويلـة دون ممارسـة الجنـس. الجنـس حـقٌّ إنسـاني، علاقـةٌ فطريـة وطبيعيـة، تمـد الإنسـانَ بمزيـدٍ مـن الاسـتقرار والسـواء النفسـي والعقلـي والجسـدي.

منـذ البدايـة، كانـت علاقـة السـلطة السـجنية بأعضـاء السـجناء التناسـلية، علاقـةٌ مسـتباحة، تراهـا وتلمسـها بهـدف التفتيـش، ومـن زاويـة أخـرى، بهـدف تَعريـة السـجين أمـام ذاتـه وأمـام السـلطة. إذ

لـو كان التفتيـشُ هدفًـا رئيسـيا ووحيـدًا، فـإنَّ ثمـةَ أجهـزة حديثـة، تسـتطيع كشـف كل المُقتـنيات التـي مـنَ الممكـن أن يُخبـأها السجناء داخـل أو بجانـب أعضائهـم التناسـلية. لكـن التفتيـش الذاتـي العـاري، يُفقـد السـجين كينونــته، وهـذا مـا يسـتغربه الكثيـرون مـن السـجناء، خاصـةً السـجينات، لأنهـم لـم يتوقعـوا أن تتعامـل سـلطة السـجن مـع أجسـادهم/نّ بتلـك الاسـتباحة ، حتـى أن الأمـر يصـل إلـى دعـك الخصيتيـن عنـد التفتيـش بواسـطة رجـل السـلطة، وبعـد الانتهـاء مـن التفتيـش يُأخـذ السـجين «الإيـراد الجديـد».

وبِخصـوص السـجينة، تتعامـل السـلطةُ العقابيـة معهـا بتلـك الإجـراءات بـلا اختـلاف، غيـر أن «رجـل» السـلطة تكـون امـرأة. سـواء مسـؤولة داخـل السـجن، أو سـجينة جنائيـة قديمـة تسـتخدمها السـلطة فـي تفتيـش السـجينات الجديـدات. يتـم التفتيـش فـي غرفـةٍ مـا داخـل أحـد المبانـي السـجينية بالداخـل، تطلـب المفتشـة مـن السـجينة خلـع ملابسـها كُليـا ومـن ثـمَّ تنحنـي إلـى الأمـام بجَسـدها، وبدورهـا، أي المفتشـة، تمسـك كيسًـا فـي كفـة يدهـا وتفحـص فتحـة شـرج السـجينة، ومـرة أُخـرى عنـد مِهبلهـا، وبذلـك ينتهـي التفتيـش.[1]

بهـذه الإجـراءات، تُبرهـن السـلطة العقابيـة منـذ البدايـة اسـتباحتها لجسـد السـجين واقتحامهـا خصوصيتـه، بـل وتعريتـه أمـام ذاتـه. يشـعر بطريقـة أو بأُخـرى أن لا قيمـة لمـا يُسـمِّيه «خصوصيتـه وحاجتـه فـي الاحتفـاظ بأقـل الأشـياء التـي تجعـل منـه إنسـانًا ذا قيمـة»، ولـه احتياجـات إنسـانية تُسـاعده علـى العيـش والتأقلـم، وليـس جسـدًا

(١) العنـف ضـد المـرأة: سـجينة سياسـية سـابقة فـي مصـر تـروي قصتهـا مـع «كشـوف العذريـة فـي السـجن»، بـي بـي سـي عربـي، نشـر فـي ٢٧ تشـرين الثانـي (نوفمبـر)، ٢٠٢٠.

خشـبيًّا أو آلـة مُرقمـة، تتعامـل معهـا السـلطة السـجنية القائمـة علـى حياتـه.[٢]

الجنـسُ عنـد عالـم النفـس الشـهير سـيغموند فرويـد، هـو تفسـيرٌ لـكل شـيءٍ واقعـي وغيـر واقعـي. يُعطـي فرويـد الاحتيـاج الجنسـي للإنسـان أهميـةً كبيـرةً جـدًّا، أهميـة يسـتطيع مـن خلالهـا معرفـة ومعالجـة السـلوكيات العصبيـة للإنسـان التـي برأيـه، لغزهـا الوحيـد فـي الاحتيـاج والنشـاط الجنسـي لـه.[٣] هـذا لا يعنـي أن كل مـا قالـه فرويـد بخصـوص تفسـير الأحـلام، أو ماهيـة الجنـس النفسـية والاجتماعيـة، أو رمزيـة الأعضـاء التناسـلية فيمـا يُعـرف بـ«حسـد القضيـب» Penis Envy وغيـر ذلـك ـ نحـن نـتفق معـه، بـل علـى العكـس، نحـن نـرى كمـا هـو يـرى أن الجنـسَ مسـألة حياتيـة هامـة، وحرمـان مُشـتهِيه مـن ممارسـاتها، أمـر يُحطِّـم ويُشـتت الـذات والعقـل الإنسـانيّ.

فـي مصـر، يُحـرَم السـجين لسـنواتٍ طويلـة مـن عمـره مـن هـذا الاحتياج الغريـزي، مـن الجِمـاع مـع الزوجـة. وتُحـرَم الزوجـة كذلـك مـن جِمـاع زوجهـا. ونحـن نتكلـم عـن العلاقـات الزوجيـة، بمـا أن القانـون المصـري مـن الأسـاس لا يسـمح بالجنـس خـارج إطـار الـزواج، ويُسـمِّيه «الزنـا»، ويُجرمـه ويُحاسـب عليـه بالسـجن، لذلـك لـم نسـتدعِ ضمـن مفرداتنـا العلاقـات الجنسـية الخارجـة عـن إطـار الـزواج، بمـا لا يُناسـب السـياق الواقعـي. هـذا الحرمـان الجنسـي، يسـبب أضـرارًا نفسـية وسـلوكية لـكلٍّ

---

(٢) بسـمة عبـد العزيـز، **ذاكـرة القهـر**: دراسـة حـول منظومـة التعذيـب، دار التنويـر للطباعـة والنشـر، القاهـرة، ص. ٢٨٢.

(٣) للمزيـد حـول الاحتيـاج الإنسـاني إلـى الجنـس، انظـر: سـيغموند فرويـد، **الحيـاة الجنسـية**، ترجمـة جـورج طرابيشـي، دار الطليعـة للطباعـة والنشـر، بيـروت.

منهمـا، السـجين أو السـجينة، مـع شـريكته وشـريكها ـ مـا يترتـب عليـه تكسـير نفسـية السـجين/ة داخـل السـجن. وربمـا فـي الخـارج تحـدثُ حـالات طـلاقٍ أو خلـعٍ مـن كلا الطرفيـن وتـذوب الأسـرة بشـكلٍ كامـل بسـبب نظـام لا يُراعـي أدنـى الحقـوق الغريزيـة عنـد السـجناء.

كواليسُ جنسية: الاستِمناء والمِثلية

يبقى السجينُ حائرًا متحيرًا مع هذه الغريزة التي تُلح عليه دائما، ولا طريقة أو خَلوة تجمعه بزوجته أو زوجها. وحتى السجين الأعزب، لا مخرجَ له حتى يقيم علاقات جنسية في الخارج، سواء داخل إطار الزواج أو خارجه، لذلك يلجأ السجين إلى عدة وسائل وطرق لتَصبير حاجته إلى الجنس، كممارسة العلاقات المِثلية Homosexual أو الاستمناء Masturbation، سواء بمفرده أو مع شريكته/شريكها خفاءً أثناء الزيارة.

عندما يجتمع السجين مع زوجته خلال زيارتها له، يحاول بعض السجناء التقرب من زوجته أكثر وأكثر، وإقامة علاقة غير متكاملة معها، مثل تقبيلها أو ملامسة جسدها بطريقةٍ حميمية، وهي الأُخرى بدورها تفعل مثله، وقد يصل إحداهما إلى النشوة. لكن، مثل تلك الأمور تكون بطريقةٍ مواربة عن أعين مُخبري ورجال السلطة المتواجدين في فضاء الزيارة من أجل المُراقبة، لأنه إن حدث وتمتْ رؤية الزوجين وهما يُلامسان بعضهما البعض بطريقةٍ حميمة، تُلغَى زيارة السجين، ويُؤخذ إلى التأديب بعد ضربه في معظم الأوقات، بسبب عدم احترامه آداب الزيارة. ومن أجل ذلك، تُحاول السلطة إغلاق الحمامات إن وجدت في قاعات الزيارة، حتى لا يتم دخولها من قِبل المتزوجين، وينتشر مُخبرو وأمناء الشرطة لمراقبة السجناء والزائرين لضمان عدم وجود أي مخالفات أخلاقية. السجناء يعرفون بالطبع عقاب السلطة لهم عند إمساكهم في تلك الحالة مع زوجاتهنّ، لكنَّ الاحتياج يغلب أحيانًا الخوف من العقاب والتأديب.

فـي وقـتٍ آخـر، تحديـدًا عـام ٢٠١٦، داخـل إحـدى السـجون فـي منطقـة الدلتـا،[٤] أتـى طاقـمُ تمريـض (الطاقـم عبـارة عـن مُمرضـاتٍ شـاباتٍ) لـتَطعيم نـزلاء السـجن كافَّـة. تأهـبَ السـجن كسُـلطة، وقـام رؤسـاؤه باسـتدعاء كتيبـةٍ مـن قـوات الأمـن المجـاورة للسـجن لوجودهـم فـي حالـة حـدوث أي شـغب. كان حديـث السـجناء وقتهـا فـي أعينهـم، وهـم يتحسسـون عـن بُعـد أجسـاد المُمرضـات، فهـم فـي حرمـانٍ دائـم لرؤيـة أجسـاد الطـرف الآخـر مـن العلاقـة، لذلـك كان الأمـر بالنسـبة للسـجناء شـيئًا غيـر اعتيـادي وحديثًـا للسـاعة واليـوم ـ حيـث رأوا أجسـاد النسـاء عـن قـرب، وأيـادي الممرضـات تلمـس أجسـادهم لإعطائهـم حقنـة التطعيـم، مـا أدى إلـى اشـتعالٍ بالرغبـة الجنسـية لهـؤلاء السـجناء الرجـال. أيضـا، تعـرف السـلطة خطـورة هـذا الأمـر سِـيما مـن السـجناء الأساسـيين، حيـث يكونـون أكثـر جـرأةً مـن السياسـيين الـذي يغلـبُ عليهـم الطابـع الأخلاقـي، هـذا ليـس ذَمًّـا فـي فئـةٍ عـن فئـة بـل حكـي واقعـي، ربمـا تختلـف الظـروفُ التـي أوصلـت السياسـي أو الجنائـي لمـا همـا عليـه الآن، النشـأة والتربيـة والطبقـة الماديـة؛ هـذا موضـوع آخـر. لكـن واقعيًّـا، احتماليـةُ اعتـداء السـجين الأساسـي، سـواء مـن خـلال التحـرش اللفظـي أو الاعتـداء الجسـدي المباشـر، موجـودة. فالسـجين الجنائـي، يظـل برغـم تطويعـه وخوفـه مـن السـلطة، إلا أنـه فـي أحاييـن عـدة، قـادر علـى إحـداث مـا لا يُـتوقع، سَـب السـجن وضباطـه، رَد الضـرب بالضـرب، يفعـل هـذا مـن بـاب الجنـون، أنـه لـم يعـد يخـاف مـن «العقـاب أو المـوت». ولذلـك، اسـتدعتِ السـلطة قـواتٍ الأمـن لـمَنع الشـغب تَخوفـا مـن أي حـالاتٍ للتحـرش أو مـا شـابه.

(٤) مرويات سجين سابق، ضمن المُقابلات.

يُسمح للسجناء دخول الجرائد والمجلات مع الزائرين أو حتى شرائها من داخل «كانتين» السجن. وفي عنابر النزلاء الجنائيين تتوفر بعضُ قنوات التلفزيون للمشاهدة، عكس السياسيين الذين لا يَتمتعون بمشاهدة قنوات التلفاز، وهذا ربما لإمكانية عزل عقولهم عن متابعة الأحداث السياسية في البلاد.(٥) تتوفر داخل تلك الجرائد والمجلات وقنوات التلفزيون صور لفنانات أو راقصات ضمن الأخبار واللقاءات الفنية وغيرها، ولذا تكون تلك الصور هي بمثابة مِخيال جنسيٍّ جديد ودائم في عقلية السجين المحروم من حاجته الغريزية لجسد المرأة. ومن هذا المِخيال وغيره من مخيالات الفانتازيا الجنسية المُتجددة والمُتنوعة بشكلٍ دوريّ، يتجدد لدى السجناء الاشتهاء بالجنس، ويتوجهون إلى ممارسة الوسيلة الأولى والأساسية، وهي تفريغ المنويات الجنسية عن طريق دعك اليد بالقضيب، فيما يُعرف بالاستمناء. وهي تحدث بالفعل بين الرجال المتزوجين أو العزباء، حيث يذهب كل منهم إلى الخلاء (دورة المياه)، أو حتى ليلًا خلال النوم، ومن ثمَّ يُفرغ منيته على مِخياله الجنسي الذي أتى به لنفسه. وينطبق الأمر على السجينات دون أيِّ فرق، النساء اللواتي لا يختلفن عن الرجال في حاجتهن للإشباع الجنسي، فضلا عن الاحتلام وهي الظاهرة الطبيعية التي تحدث للبالغين أثناء نومهم، عند استدعاء عقلهم اللاواعي مخيالًا جنسيًّا معينًا، ما يتسبب في قذف القضيب للمنويات بشكل لا-إرادي.

---

(٥) تعمل السلطة السجنية على عزل عقول السجناء السياسين، لأسباب عدة نفسية وأمنية، بدايةً من عزلهم وعدم معرفتهم الأخبار السياسية، وما يحدث في البلاد. فهذا نوعٌ سلطوي لتفكيك النفس والعقل. كذلك أمنيًا، لوقف حدوث أي شغب، في حالة عدم استقرار السلطة السياسة بالخارج.

أما ممارسة الجنس بفعلٍ حميميّ، أي جنس مِثلي العلاقة،[٦] يتمّ عبر طريقتَين: إما أن تكون العلاقة اعتدائية، أي يعتدي طرفٌ على الآخر، سواء بالتحرش، أو بلمس جسد الآخر أثناء النوم أو الاغتصاب (وهذا ما ذكرته شهاداتٌ كثيرة، وحتى تواجدت الاعتداءات في مروياتٍ أدبية، أشهرها رواية «شرف»، للكاتب المصري صنع الله إبراهيم) هذا ربما، يُغضب بعض الجمعيات المناهضة للهوموفوبيا Homophobia، لأن بعض هذه الجمعيات، لا تُفرق بين حق الإنسان في اختيار جندريته والنمط الجنسي الذي يُريده، وهذا هو ما تدافع عنه، إذ هي تدافع عن المبدأ وليس عن الشخص ذاته ـ وبين أنه من الممكن أن يكون مثلي الجنس شخص سيء أخلاقيًّا معتدٍ على الآخر، مثله مثل الرجل المُتحرش بالنساء، لكنه، أي المثلي، من المُحتمل أن يتحرش بالرجال، والمثلية بالنساء. هنا الاعتداء يرجع إلى مرجعية أخلاقية، وليست مرجعية جندرية.

أما الطريقة الثانية فتكون بالتراضي بين الشخصين، وعلاقتهما تتم بسريةٍ كبيرة وتَحفُّظ وانتباه، خوفًا من أن يكتشفَ أحدهم الأمر ويُبلغ السلطات، ما يعني عقابًا كبيرًا، ليس من السّجان وحده، بل أيضًا من نزلاء ونزيلات السجن.

في الاعتداء، يقول أحدُ السجناء السابقين، «كان زميلي في الزنزانة، والذي ينام بجواري، يستيقظ ليلا بعد أن يكون الجميع نيام، وفي الظلام، أجده، يمد يدَه ليمسك جسدي، ويحكُّ قضيبه في مؤخرتي،

---

(٦) عمر حاذق، «السجين مثليّ الجنس»، السفير العربي، نشر في ٢٧ أيلول (سبتمبر) ٢٠١٦.

لـم أصـدق إلا عندمـا تكـرر الأمـر أكثـر مـن مـرة، ولـم أفعـل أي شـيء، سـوى أنـي بدلـتُ نمرتـي (مـكان النـوم) مـع سـجين آخـر».

وعــن الاعتــداء أيضًــا، تحكــي سـجينةٌ سـابقة: «كانــت توجــد ســجينةٌ معنــا، طويلــة وقويــة للغايــة، تقــف عنــد الحمامــات التــي ندخلهــا أثنـاء التريـض، وتحـاول توقيـف السـجينات، كـي تتحـرش بهـن وتُمسـك أجسـادهن عنـوةً، لكنهـا أيضـا، كانـت تخـاف نظـرًا للعقـاب الشـديد مـن السـلطة».

أمـا عـن العلاقـة الرضائيـة يقـول سـجينٌ سـابق: «كنـت سـجينًا، وقـد بحثــتُ ووَجــدت صديقًــا لــي، وزادت عاطفـــتنا المتبادلــة، ولاحــظ السـجناء الذيـن معنـا تقاربنـا، فحصلـتْ مشـكلات بيننـا وبينهـم. أبلغـوا إدارة السـجن، لكننـا نفينـا أي علاقـة بيننـا، خوفًـا مـن العقـاب، واتهامنـا طيلـة مـدة سجننا بالشـذوذ. وقـد عُوقبنـا... وذهـب كل واحـد مِنـا إلـى زنزانـة أُخـرى».

سـجينة سـابقة أُخـرى تحكـي: «دائمًـا مـا كانـت مسـيّرة العنبـر تُحـذر اللواتـي يقتربـن مـن بعضهـنّ، ويجلسـن علـى سـريرٍ واحـد، أو يتبادلـن القبـل، ويتبادلـن حـركاتٍ حميميـة، وتُهدِّدهـن بتبليـغ السـلطة. وقـد حـدث ذلـك مـع اثنتيـن، وقـد نُقلـت كل واحـدة إلـى عنبـر آخـر. حصـل ذلـك بطريقـة مهينـة ومؤذيـة».

نقـل لنـا مسـيّرُ أحـد العنابـر لمـدة ٣ سـنوات، الكواليـس التـي رآهـا بشـأن العلاقـات المِثليـة: «رأيـتُ الكثيـر مـن الحـالات، بخاصـة فـي عنابر السـجناء الجنائييـن. السـجين السياسـي، يكـون أكثـر تَحفظًـا ولا يسـتطيع البـوح بسِـره، أو التعبيـر عـن مشـاعره المثليـة، لكـنَّ الجنائـي يكـون أكثر

عشـوائية، تحـدث تلـك العلاقـات إمـا ليـلًا، حيـن تبقـى مصابيـح قليلـة مضـاءة، أو أثنـاء التريضـات، فـتُقام العلاقـة فـي الزنازيـن الفارغـة أو الحمامـات».(٧)

مـن قـراءاتٍ وشـهادات سـابقة وحالية، تبينَ أنَّ مُمارسـة العلاقـات المِثلية داخـل المجتمـع السـجيني ليسـت بالنسـبة الهينـة، لكـن تصريحـاتٍ سـابقة لـوزارة الداخليـة المصريـة قالـت إن وجـودَ مثـل تلـك العلاقـات بالفعـل أمـر واقعـيّ، ولكنهـا بنسـبٍ بسـيطةٍ جـدا، وتكـون خفـاءً بيـن مُريـدي تلـك العلاقـة، وهـى غيـر مقبولـة تمامًـا سـواء وسـط السـجناء أو السـلطة. كذلـك، لا تهتـم السـلطة بإبـداء مـا وراء إقامـة هـذه العلاقـات. بعـض الأطبـاء فـي وقـت سـابق، وعلـى رأسـهم نقيـب الأطبـاء المصـري السـابق الدكتـور حمـدي السـيد، ذكـروا أن انتشـار حـالات المِثليـة بيـن السـجناء، هـو أمـرٌ فُـرِض علـى السـجين نفسـيًّا وجسـديًا نظـرًا لحرمانـه واحتياجـه لإقامـة العلاقـة الجنسـية، أيضًـا عـن طريـق احتـكاك الأجسـاد فـي الزنازيـن الضيقـة، حيـث ينـام السـجين ملاصقًـا بشـدة لجسـد السـجين الآخـر، وربمـا فـي أوقـاتٍ كثيـرة، يصـل هـذا الالتصـاق لاحتكاك قضيـب الجسـد فـي مؤخـرة الجسـد اللاصـق، فضـلا عـن اسـتباحة عُـريِّ الجسـد فـي السـجون، نظـرًا إلـى العمـران الضيـق والـذي تنتفـي فيـه الخصوصيـة، حيـث فـي أماكـن الاحتجـاز الأكثـر عشـوائية، أي أقسـام ومراكـز الاحتجـاز الفوريـة، ربمـا يسـتحم السـجين مـع زميلـه فـي وقـتٍ واحـد. وغيـر ذلـك مـن مواقـف مسـتبيحة للجسـد وعوراتـه تصـل إلـى العنـف الجنسـي والاغتصـاب.(٨)

---

(٧) ٥ مرويات: سجينان وسجينتان ومُسيّر، ضمن المُقابلات.

(٨) «تقنيـن الخلـوة الشـرعية فـي ظـل السياسـات الإصلاحيـة داخـل السـجون المصريـة»، مؤسسـة ماعـت للسـلام والتنميـة وحقـوق الإنسـان، نشـر فـي ١٣ تشـرين الأوّل (أكتوبـر) ٢٠٠٨.

هــذه الوســائل والطــرق التــي يســتخدمها الســجناء والســجينات فــي حاجتهـم/ن الجنسـية، ليسـت سـرديات لحظيـة حدثـت مؤخـرًا، بـل هـي سـرديةٌ تاريخيـة موجـودة منـذ نشـأة السـجون الحديثة في مصر وتكدسـها بالسـجناء. تجـد حكايـات الروائـي صنـع اللـه إبراهيـم فـي مذكراتـه «أيـام الواحـات» عندمـا كان سـجينًا لـدى النظـام الناصـري، فيمـا يخـص اسـتباحة الجنائييـن لحرمـات الأجسـاد، بـل وتجسسـهم أيضًا عليهـا. يتذكـر بينما هو نائـمٌ علـى سـريره يحـاول الاسـتمناء بيـده، حيـث انقـضَّ عليـه سـجينٌ آخر ليكشـف عمليـة اسـتمنائه حتـى أفسـدها عليـه. يَحكـي صنـع اللـه أيضًـا، ذكـرى أُخـرى فـي كتابـه[٩] «شـرف» عـن العلاقـات الجنسـية المثليـة التـي كانـت قائمـة بيـن السـجناء فضـلًا عـن حـالات أُخـرى، اتسـمت بالعنـف الجســدي الــذي وَصــل إلــى اغتصــاب جنســيٍّ أحيانًــا، نتيجــةً لفَقرهــم الجنســي وحرمانهــم مــن الإنــاث لأعــوام كثيــرة حتــى شُــوهت ميولهــم وأصبحــت «شــاذة»، بتعبيــر رفقــاء الروائــي صنــع اللــه.[١٠]

هــذا يأخذنــا إلــى التعمــق فــي الســردية الثقافيــة الســجنية، بمــا أنهــا ثقافـة ذكوريـة بامتيـاز، تصنعهـا السـلطة بقانونهـا وبعرفهـا عبـر نظامهـا المرئـي، ويتطــبّع معهـا السـجناء، حيـث الأقـوى يـأكل الأضعـف. مكانـةُ السـجين ترتقـي أو تنخفـض حسـب قـوة العضـلات وفحولتهـا، خشـونة الصــوت، وطريقــة المشــي. إذ يُكنــى الســجين الــذي لا تتوفــر فيــه تلـك السـمات بألقـابٍ مثـل (الحـاج ـ عجلـة ـ جـدع ميـري)[١١] وهـي

(٩) صنع الله إبراهيم، **شرف**، مؤسسة دار الهلال، روايات الهلال، القاهرة، ١٩٩٧، العدد ٥٧٩، ص. ٥٣٥-٥٣٦-٥٣٧.

(١٠) صنع الله إبراهيم، **يوميات الواحات**، دار المستقبل العربي، القاهرة، ٢٠٠٢، ص. ١٠٦.

(١١) هـذه الألقـاب لهـا إيحـاء جنسـي سـلبي، «حـاج» علـى سـبيل المثـال، تعنـي الرجـل الـذي يشـتهي الأطفـال، أو العاجـز جنسـيًّا. كذلـك عجلـة، تعنـي الرجـل الـذي يُحـب أن يُضاجـع مـن قبـل الرجـال. للمزيـد انظـر أحمـد سـعيد، **كلام حبسـجية**، ص. ٢٧.

ألقاب لها إيحاء جنسي داخل الثقافة السجينية، دلالتها أن هذا السجينَ يميل إلى المضاجعة من الرجال، أي أنه ليس رجلًا كاملًا، «مَرة أو خول» باللهجة الدارجة في الثقافة المصرية الشارعية. في الفضاء السجني النسائي، تُلقب السجينة التي يُلاحظ عليها مَيلها إلى ممارسة الجنس المثلي بألقاب (مخاوية ـ مَركوبة)[١٢] ويُنبذون جميعهم وتُسلَّط عليهم أجساد زملائهم/ن للافتراء عليهم واحتقارهم داخل الزنزانة والعنبر، بينما تُعاقب السلطة السجناء والسجينات، بعمل محضرٍ لهم، وتأديبهم بشكلٍ عنيف جدا، أحيانًا بفلك (من الفلكة) الرجال وسط ساحة مَكانية فارغة للعقاب، وضرب مُبرح من مُخبري السلطة للنساء، ومن ثمَّ عزلهم في التأديب أو نقلهم إلى عنبرٍ أشد قسوة معيشية، وأوقات أُخرى تَغريبهم إلى سجنٍ آخر.[١٣] هذا أيضا، يتبين في معاملة مَن قُبض عليهم من المثليين جنسيًّا من الأمن المصري، إذ رَووا شهاداتٍ بعد خروجهم، أن الأمن المصري لم يُعاملهم وكأنهم متهمون، بل عاملهم عبر إيحاءاتٍ جنسية، ووصى عليهم السجناء في الحجز، أن يُضايقوهم، بما أنهم ليسوا رجال، بل «شِمال» يُحبون أن يُنكحوا، كما سردت شهاداتهم.[١٤]

(١٢) نعوت لها دلالة جنسية: مَركوبة، أي أنها تُحب أن تُركب، أي تُضاجع. مخاوية في الأمر العادي والطبيعي، تعني أن يكون الشخص غير طبيعي، وتقال مخاوي/ة، أي معها عفريت داخل جسده، لكنها في الفضاء السجني النسائي، تطلق على من يُعرف عنها أنها مثلية الجنس.

(١٣) Human Rights Watch, “Egypt: Security Forces Abuse, Torture LGBT People,” October 1st, 2020.

(١٤) Ahmed El Hady, “The Crisis of LGBTQ Communities in Egypt: Questions for Ahmed El Hady,” The Century Foundation, May 2, 2019.

هـذا العقـاب قـد يكـون كافيًـا لـردع أي سـلوكٍ جنسـيٍّ يصـدر مـن السـجناء بعضهـم مـع بعـض، لذلـك يحـرص السـجين وخاصـةً الرجـل أن يكـون شـديدًا فـي كلامـه، غليظًـا، كمدلـولٍ علـى ذكوريتـه الكاملـة التـي تتماهـى مـع الثقافـة السـجينية، حيـث أي حـركات شـفهية أو جسـدية تـدل علـى ثقافـةٍ أنـثوية داخـل الفضـاء السـجيني، تجعـل منـه عُرضـةً لكثيـر مـن المصائـب كالانتهـاكات الجنسـية مـن زملائـه السـجناء، وكُنيتـه وسـطهم بأسـماءٍ أنـثوية (مـرَة ـ أو أي اسـم نسـائي)، أو شـتائم دالـة علـى عـدم ذكوريتـه (خـول ـ شـرموط)، فضـلًا عـن عـدم أخـذ حَقـه فـي الطعـام أو النـوم مثـل بقيـة زملائـه بحجـة أنـه ليـس رجـلًا، بـل وضعيفًـا غيـر قـادرٍ علـى أخـذ حَقـه بالقـوة، ناهيـك عـن العقـاب الـرادع مـن السـلطة إثـر التبليـغ عـن أي سـلوك ينتهـك الثقافـة الذكوريـة داخـل السـجن.

تُـدرك السـلطة السـجنية جيـدًا الاحتيـاج المتـلازم والغريـزي لسُـجنائها رجـالا ونسـاءً، ولكنهـا تحـاول حَوكمتـه بعـدة وسـائل، غاضـة البصـر عـن هـذا الاحتيـاج، وتُبـرر ذلـك دائمـا أنهـا ليسـت جهـةً تَشـريعية، بـل هـي جهـةٌ مُنفِّـذة للقانـون، فحيـنَ يُشـرَّع قانـون لـتَلبية الاحتيـاج الجنسـي للسـجين، وقتهـا تبـدأ السـلطة العقابيـة فـي تنفيـذه وفقـا للوائـح المتاحـة. قـد يبـدو ومـن ناحيـة قانونيـة هـذا الأمـر منطقيـا، ولكنـه وطبقـا للفلسـفة المرئيـة، وبالنظـر إلـى الحيـاة السـجنية شـيئًا خيالــيًّا. السـجين فـي نظـر السـلطة العقابيـة جسـدٌ مُرقّـم فقـط، تَسـتلمه وتُهندسـه علـى الخضـوع والطاعـة للقانـون المرئـي وفقًـا لنظـام حياتهـا، بـل تصنـع مـن جسـده آلـة إنتـاج جديـدة، تسـاعده فـي العمـل داخـل السـجن فـي الـورش والتصنيـع ومَخابـز العيـش والكانتيـن والحلاقـة والمَطبـخ لطهـي الطعـام؛ وتلـك الخدمـات بالطبـع

تُقـدم لآلاف السـجناء المتواجديـن داخـل السـجن، أي السـجناء هـم آلـة عمـل فـي منظومـة رأسـمالية.[١٥]

لـذا، هـي تعـرف بالتأكيـد اسـتمناء السـجين/ة لتفريـغ كَبتـه الجنسـي المتـلازم والمتجـدد، فضـلا عـن محاولـة تَشـكلات علاقـات مِثليـة الجنس، ولكـن هـي تُحوكِـم الوسـائل، عـن طريـق أدواتهـا، وهـي تفتيـش الجرائـد والمجـلات التـي تدخـل للسـجين، إن تواجـدتْ فيهـا صـور غيـر لائقـة ومثيـرة، تمنـع دخولهـا علـى الفـور؛ وهـذا يرجـع لِنسـبية الحكـم لـدى المفتــش. أيضًــا، تمنــع الســلطة القنــوات الفضائيّــة فــي تلفزيونــات العنابـر، تكتفـي بعـدة قنـوات لمُشـاهدة المباريـات والقنـوات الرسـمية التــي تبــث أهــم الأخبــار القوميــة مثــل إنشــاء المشــاريع الحكوميــة الكبـرى وغيـر ذلـك، ومَـن يتحكـم فـي المشـاهدة هـو نوبتجـي الزنزانـة وهـو علـى صلـةٍ رسـمية بـرجال السـلطة، ناهيـك عـن دوره فـي مراقبـة سـلوك السـجناء، المُتمثّـل فـي كيفيـة نومهـم بعضهـم بجانـب بعـض، حيــث يُجــرَّم فــي كافــة الســجون نــوم ســجينين أو ســجينتين علــى سـريرٍ واحـد، بجانـب عـدم إطفـاء نـور الزنزانـة أو العنبـر ليـلًا، لضمـان بقـاء السـجناء والسـجينات تحـت عيـن نوبتجـي/ة الزنزانـة أو مخبـري وأمنـاء العنبـر، وذلـك لمنـع اقتـراب السـجناء والسـجينات مـن بعضهـم/ نّ، بالإضافـة إلـى سـلوكهم فـي طريقـة الحديـث والضحـك وغيـر ذلـك، ويُبلِّـغ عنهـم إن وُجـدَتْ أي علاقـةٍ جنسـيةٍ بيـن السـجناء والسـجينات، كـي تتـم معاقبتهـم وتأديبهـم بواسـطة رجـال السـلطة.

---

(١٥) حلقـات عـن تشـريعات السـجون المصريـة، الفصـل الرابـع، تشـغيل المسـجونين وأجورهـم، المبـادرة المصريـة للحقـوق الشـخصية، نشـر فـي ٢٤ كانـون الثانـي (ينايـر) ٢٠١٧.

الجنس في السياق التاريخي والحقوقي

منذ أواخر القرن التاسع عشر، بدأت الحكومةُ الخديوية تحت الإشراف والرعاية البريطانية في التوسع في بناء السجون. وقتئذٍ تم بناء سجن سوهاج وأسيوط والجيزة في الفترة بين ١٨٨٤ إلى ١٩١٢،[١٦] زاد هذا التوسع أكثر في فترة حكم ضباط المؤسسة العسكرية بدايةً من حكم الرئيس العسكري الأول محمد نجيب، وصولًا إلى الرئيس الحالي عبد الفتاح السيسي، (نستثني هنا فترة حكم الرئيس المعزول محمد مرسي حزيران (يونيو) ٢٠١٢ - يوليو ٢٠١٣) حيث تم بناء منطقة سجون طرة وهي الأشهر حاليًّا في مصر في منتصف التسعينيّات من القرن الماضي. وافتُتح بعد عام ٢٠١١ إلى نيسان (أبريل) من عام ٢٠٢١، ٣٥ سجنًا آخر، ليصل التعداد النهائي للسجون في مصر إلى ٧٨ سجنًا بنوعيه العمومي والمركزي، ناهيك عن افتتاح ما عُرف بـ «مجمع سجون منطقة وادي النطرون»، حيث افتتح في تشرين الأوّل (أكتوبر) من عام ٢٠٢١، وصرحتْ جهاتٌ معنية بأن نسخةَ المُجمع على طراز السجون الأمريكية، حيث ستتوفر فيه كل سبل الرعاية الإنسانية والاجتماعية والقانونية والتعليمية وحتى الترفيهية، وسيتم غلق عددٍ من السجون صغيرة الحجم، والتي لم تعد تصلح لمعيشة السجناء، مثل سجن المنصورة وطنطا وغيرهم، ومن ثم نقل مَن هم فيها إلى المُجمع الجديد. هذه الأخبار، أثارت سخريةَ كثيرين، بسبب ما عايشوه في سجون

(١٦) «من سجن يوسف إلى سجن كرموز: قصة أقدم السجون المصرية»، الخليج أون لاين، نشر في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٦.

مصـر، ناهيـك عـن الثقافـة الشـعبية المصريـة الآخـذة عـن السـجون المصريـة فكـرة سـيئة، فـلا يحتـاج الإنسـان المصـري إلـى أن يحتـكَّ بمنظومـة السـجن، حتـى يـذوق مرارهـا، إذ المنظومـة السـجنية عنـد الجميـع سُـمعتها سـيئة للغايـة، لكـن يبقـى هـذا المشـروع قيـد أملٍ إن أرادت الدولـة المصريـة، وفـي قلبهـا السـلطة السياسـية، تغييـر وتحسـين ظـروف احتجـاز السـجناء فـي مصـر.[١٧]

وبالنسـبة لعـدد السـجناء، فـلا توجـد إحصائيـةٌ ثابـتة فـي مصـر عـن السـجناء بشِقَّـيهم السياسـي والجنائـي، حيـث يتـم يوميًّـا الإفـراج والحكـم علـى عشـرات أو مئـات السـجناء. أفـادت بعـضُ التصريحـات الرسـمية أنَّ فـي مصـر ١١٤ ألـف سـجين، بينهـم كحَـدٍّ أقصـى ٦٠ ألـف سـجين سياسـي. تقريـرٌ آخـر، أصدرتـه الشـبكة العربيـة لمعلومـات حقـوق الإنسـان فـي نيسـان (أبريـل) مـن عـام ٢٠٢١، رصـدتْ بـه أعـدادَ السـجناء بـنَحو ١٢٠ ألـف سـجين ومحبـوس احتياطـيًّا ومحتجز، مُقسَّـمين كالتالـي: عـدد السـجناء والمحتجزيـن السياسـيين فـي مصـر، (نحـو ٦٥ ألـف سـجين)، وهـم بدَورهـم ينقسـمون إلـى: (نحـو ٢٦ ألـف محبوسـين احتياطيًّـا)، (نحـو ٣٩ ألـف سـجين محكـوم عليهـم). أمـا عـدد الجنائييـن السـجناء والمحبوسـين احتياطيًّـا لجرائـم عاديـة وجنائيـة، (نحـو ٥٤ ألـف سـجين)، وهـم ينقسـمون إلـى: (حوالـي ١١ ألـف محبـوس احتياطـيًّا)، (حوالـي ٤٣ ألـف سـجناء محكـوم عليهـم).

فـعدد السـجناء المحكـوم عليهـم إجمـالًا، سياسـي وجنائـي، (٨٢ ألـف تقريبًـا). عـدد المحبوسـين احتياطيًّـا (٣٧ ألـف تقريبًـا). عـدد المحتجزين

(١٧) «مجمـع سـجون وادي النطـرون الجديـد فـي مصـر: احتفـاءً بـ«فرصـة حيـاة» وسـخريةً مـن «تناقـض حكومـي» فمـا القصـة» بـي بـي سـي، نشـر فـي ٢٩ تشـرين الأوّل (أكتوبـر) ٢٠٢١.

غير المعروف أسباب احتجازهم (نحو ١٠٠٠ محتجز).[١٨]

إذن، يعيش الآن في أقل تقدير ما يَقرب من ١٢٠ ألف سجين، منهم ٨٢ ألف محكوم عليهم، وهم في حاجةٍ إلى حَقهم في الممارسة الجنسية، ومع مرور تلك السنوات وتوسع الدولة وبيروقراطيتها السجنية في الإنشاء والتكدس، إلا أنه لم يُقنَّن قانونٌ للخلوة الشرعية وحق الزوج في جماع زوجته والعكس، لكنَّ هذا الحق اقتصر على أُناسٍ بعينهم وفقًا لمصالح وتسهيلات إدارة مصلحة السجون والقائمين على السجن لسجينٍ بعينه دون سجين آخر، حيث تعود أولى الخلوات الشرعية في السجون المصرية إلى عام ١٩٥٢، عندما سُجن وزير حربية الملك فاروق وهو اللواء حسين سري عامر، وقد سُمح له بالجِماع مع زوجته.[١٩] أيضا أثناء تولي الرئيس المخلوع حسني مبارك الحكم، حيث دخل آلاف السجناء من أبناء وقيادات الجماعات الإسلامية الراديكالية إلى المعتقلات، حينها أول مَن قام بالخلوة الشرعية داخل السجون هو الشيخ عمر عبد الرحمن، حيث اختلى بزوجته عام ١٩٨٣ وجامعها وقد أنجبتْ منه، قبل أن يخرج ويتم القبض عليه ويُسجن مرةً أُخرى في الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن فارقَ الحياة وهو سجين لديها في شباط (فبراير) من عام ٢٠١٧. ومع بداية الألفية وبعد مبادرة قيادات الجماعة الإسلامية لنبذ العنف (بدأت في تمّوز (يوليو) عام ١٩٩٧)، قام القياديُّ بالجماعة نبيل نعيم بالاتفاق مع إدارة مباحث سجن طرة، بتنظيم الخلوة الشرعية للكثير

---

(١٨) تقرير، «في انتظارك: ٧٨ سجن، بينهم ٣٥ بعد ثورة يناير عن الأوضاع الصعبة للسجناء والسجون في مصر»، الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، نشر في ١١ نيسان (أبريل) ٢٠٢١.

(١٩) الخلوة الشرعية؛ حلال شرعًا... حرام أمنيًّا، مصر، نشر في ٢٥ شباط (فبراير)، ٢٠١٨.

مـن قيـادات الجماعـة الإسـلامية مـع زوجاتهـم، كان أشـهرهم كـرم زهـدي وناجـح إبراهيـم وعصـام دربالـة وعلـي الشـريف.[٢٠]

بيـن عامَـي ٢٠٠٠ إلـى ٢٠١٠، وخـلال تلـك المدتَيـن البرلمانيتيـن، طُـرح قانـونُ الخلـوة الشـرعية فـي السـجون المصريـة بواسـطة النائـب أكـرم الشـاعر المنتمـي لجماعـة الإخـوان، سـاعدَته فـي ذلـك الطـرح مناشـداتُ نقيـب الأطبـاء وقتهـا الدكتـور حمدي السـيد، حول ضـرورة تقنيـن الخلوة الشـرعية حفاظًـا علـى صحـة السـجناء، حيـث رجّـح الثانـي أن سـببَ الإصابـة بمـرض ضعـف المناعـة «الإيـدز» بيـن السـجناء، هـو ممارسـتهم الجنـس المثلـي. عندئـذٍ طالـب بضَـرورة تقنيـن وتنفيـذ قانـون الخلـوة الشـرعية منعًـا لانتشـار المِثليـة بيـن السـجناء. فـي السـياق نفسـه، وصـت لجنـةُ حقـوق الإنسـان فـي البرلمـان المصـري برئاسـة الدكتـور إدوارد غالـي، بضـرورة تقنيـن الخلـوة الشـرعية وذلـك لحَـقِّ السـجين فـي حاجتـه الغريزيـة، فضـلًا عـن سـلامته الصحيـة والنفسـية.[٢١]

بيـن تلـك المحـاولات تظهّـر رأيـان متعارضـان: الأول، وهـو مـا تحـدّث عنـه بعـض القانونييـن والبرلمانييـن والأطبـاء بحـق الخلـوة الشـرعية استنادًا لفـتاوى شـرعية قـد صـدرت من قِبـل مُفـتي الجمهورية الأسـبق الدكتـور نصـر فريـد (١٩٩٦-٢٠٠٢) والمفـتي السـابق الدكتـور علـي جمعـة (٢٠٠٣-٢٠١٣)، تؤكّـد علـى حـق وإباحـة الجمـاع بيـن السـجين وزوجتـه أثنـاء فـترة سـجنه، وأن تلـك الخلـوة هـي مـنَ الحـق الدينـي

---

(٢٠) «الخلـوة الشـرعية» عقـاب للأبريـاء خارج أسـوار السـجون، أخبار اليوم، نشـر في ٢٧ تشـرين الأوّل (أكتوبـر) ٢٠١٧.

(٢١) «سـوق المتعة والخلوة الشـرعية في السـجون»، موقع ميدل إيسـت أون لاين، نُشـر في ١٧ تموز (يوليـو) ٢٠٠٧.

والإنساني للسجين، حيث بذلك يُحافظ السجين على نفسه ويتشجع على التوبة والإصلاح، بل ويخاف الرجوع إلى السجن مرةً أُخرى بعد خروجه منه. ومن ناحيةٍ أُخرى تُحافظ المرأة على شرفها وعلى تربية أولادها، ويساعدها ذلك في عدم الانجرار إلى الانحرافات الأخلاقية وإقامة علاقات غير شرعية.

لكنَّ تلك الدعوات ومناقشة تلك القوانين كانت تُقابل بردة فعلٍ مليئة بالتحفظات من وزارة الداخلية، أولها أنها ليست جهة تشريعية، هي جهة مُنفذة للقانون، وفي حالة التقنين يجب على الحكومة أن تُوفِّر لها ما تحتاجه، بشأن تنفيذ ذلك التقنين فيما يخص آلافَ السجناء والسجينات. لأنه ومن البديهي، سيحتاج هؤلاء إلى مبانٍ أُخرى داخل السجن لإقامة تلك العلاقة، وحراسة أخرى عليهم، وجدولة المواعيد، وتوثيق الأوراق التي تُثبت صحة الزواج، وماذا لو زوجة السجين سجينةٌ مثله، فمَن سينتقل إلى من؟ ومن مُكلَّف بالنقل والترحيل؟ والسجين أو السجينة العزباء، بالطبع يُريدون الزواج، وماذا عن الرجل المتزوج بأكثر من امرأة؟ مَن ستأتي منهنّ؟ إلى آخره من إشكالياتِ وإجراءات مُعقَّدة بشأن عشرات الآلاف من السجناء في دولة تمتاز ببيروقراطية عريضة وطويلة في إجراءاتها.

مقابل هذا الرأي، عارض علماء دين وأساتذة في علم الاجتماع وحقوقيون تقنين الخلوة الشرعية للسجين/ة، كالدكتورة سعاد صالح عميد كلية الدراسات الإسلامية بالأزهر الشريف، والنائب العام السابق جمال شومان، حيث أقامَا حجتهم على أن السجينَ هو شخصٌ مُعاقب بسَلب حريته ومنعه من ملذات النفس البشرية، بهدف ردعه عن فعلته الإجرامية التي أَدانه القانون. كذلك من

ضمـن الأسـباب، أن نسـبةً كبيـرة مـن السـجناء، قـد تصـل إلـى أكثـر مـن النصـف مُـدة عقابهـا السـجيني لا يتجـاوز العـام، وتلـك ليسـت مُـدة زمنيـة قاسـية. أيضًـا حاججـوا أن هـذا التقنيـنَ سيُشـجِّع السـجين علـى فعلتـه الإجراميـة مـرةً أُخـرى. وبالنسـبة للمِثليـة الجنسـية داخـل السـجن فقـد صرحـتْ وزارة الداخليـة وقتهـا، أنهـا تُجابـه هـذا الفعـل وتُعاقـب أصحابـه بعزلهـم وتغريبهـم مـن السـجن، وأن هـذا التقنيـن غيـر مُهـم.(٢٢)

بالرغـم مـن تلـك المحـاولات، ومـا نالَـته مـن تأييـدٍ أو رفـضٍ مُطلَـق بيـن الأطـراف المَعنيـة، إلا أن تلـك المشـاريع طُويـت مـرةً أُخـرى، منـذ تولـى النظـام الحالـي حكـم مصـر، أي بعـد ٣ تمّـوز (يوليـو) ٢٠١٣، وانتخـاب رئيـس مصـري عـام ٢٠١٤ وإقـرار البرلمـان الجديـد عـام ٢٠١٥، وبرلمـان آخـر عـام ٢٠٢٠. لكـن، إلـى الآن لـم تُناقـش مسـألة تقنيـن الخلـوة الشـرعية، ولـم تُقـدَّم قوانيـن ومشـروعات جـادة حـول إمكانيـة تشـريع وتنفيـذ حـق السـجناء فـي الـزواج داخـل أقبيـة السـجون المصريـة. يرجـع ذلـك إلـى ضآلـة المعارضـة المصريـة وأصـوات حقـوق الإنسـان داخـل البرلمـان المصـري، بـل والتضييـق الأمنـي علـى بعـض المنظمـات التـي تسـعى بدورهـا فـي إعـداد التقاريـر والدراسـات حـول الإنسـان/ السـجين/ة المصري.

أيضًـا، فالسـجناء السياسـيّون فـي مصـر هـم نصـف السـجناء، حسـب بعـض التصريحـات والبيانـات. السـجين السياسـي الـذي يُنكَّـل بـه داخل أقبيـة السـجون منـذ تسـع سـنوات، ويُعانـي المئـات منهـم مـن الحبـس الانفـرادي، وسـوء المعيشـة مـن طعـام وشـراب ومنـعٍ للملابـس والـدواء،

(٢٢) «تقنيـن الخلـوة الشـرعية فـي ظـل السياسـات الإصلاحيـة داخـل السـجون المصريـة»، مؤسسـة ماعـت للسـلام والتنميـة وحقـوق الإنسـان، نشـر فـي ١٣ تشـرين الأوّل (أكتوبـر) ٢٠٠٨.

وحرمـانٍ مـن الزيـارة فـي بعـض الأحيـان. كذلـك يرجـع هـذا، إلـى خصومـة السـجين السياسـي مباشـرةً مـع سُـدَّة النظـام الجديـد الـذي يُصـرِّح دائمـا أن ليـس لـدى دَولتـه أي سـجين للـرأي، مخالفًـا كل التقارير الحقوقيـة المحليـة والدوليـة. فمـنَ المنطقـي بـدء السـلطة التشـريعية والتنفيذيـة الحاليـة فـي مراعـاة أدنـى حقـوق السـجين مـن معيشـةٍ لا تـؤدى إلـى موتـه كمـا يحـدث بشـكلٍ دوري، حيـث يمـوت سـنويًا، فـي أقـل تقديـر، العشـرات داخـل السـجون المصريـة، فـإن كان حـق العيـش ليـس متوفّـرًا للسـجين، فمـن البديهـي أن لا مكانـة ولا وقـت للتفكيـر فـي حَقـه للمُمارسـة الجنسـية خـلال فتـرة عقابـه.[٢٣]

(٢٣) تقرير، بدون محاسبة: حالات الوفاة بداخل مراكز الاحتجاز المصرية، Committee for Justice، نشر في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠١٩.

الجِنس كمُقاومة

بدايةً، وكما حاجَجنا فيما يخص حقيقة أن السجنَ بعيدٌ عما ينص عليه الدستور والفضاءات الإعلامية والتصريحات الرسمية، على أنه فترة عِقابية علاجية تشمل الإصلاح والتهذيب، كي يعود السجين مُقوِّم للحياة بصورة أفضل ممَّا كان عليها - بل إنه فضاء يخضع للقانون المَرئي، أي القانون الحياتي التي تضعه السلطة، فتخضع له روحُ وجسد السجين. وبما أن السلطة منذ منذ اعتقالها للسجين حتى تسكينه، تُهندسه على إخضاعِ ونفي جسده وكينونته. إذن المُمارسة الجنسية هي بمثابة تَحرر من ذلك الخضوع، أي تُعد الممارسة الجنسية للسجناء ضد ثقافة السلطة السجنية المُتبعة معهم.[٢٤]

يمنح عالمُ النفس الشهير سيجموند فرويد العضو الذكري penis لدى الرجال رمزية نَفسية واجتماعية خاصة؛ فقد كتب عن نَظريته المعروفة بحسَد القضيب Penis Envy، أي أن المرأة تحسدُ الرجل لأنه يمتلك قضيبًا وهي لا تمتلك[٢٥]. في ما بعد، عارضَته وجادلته كتاباتٌ نسوية كثيرة، مثل الكاتبتَين الأمريكيتَين بيتي فريدان في كتابها **اللغز الأنثوي**[٢٦] The Feminine Mystique وكيت ميلت في

---

(٢٤) بول أ. روبنسون، **اليسار الفرويدي**، ترجمة عبده الريس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥. ص. ٢٩-٧٩.

(٢٥) Martin Evan Jay, «Toward a general theory of Sigmund Freud»Encyclopedia Britannica

(٢٦) بيتي فريدان، هي كاتبة ونسوية أمريكية، تنتمي إلى الجيل الثاني من الحركة النسوية الأمريكية. **اللغز الأنثوي**، ترجمة عبد الله بديع فاضل، الرحبة للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٤، ص. ١٣٩.

كتابهـا **السياسـة الجنسـية** Sexual Politics،[٢٧] والفرنسـية سـيمون دي بوفـوار فـي كتابيهـا **الجنـس الآخـر** The Second Sex و**كيـف تفكـر المـرأة** ?How women think، والألمانيـة وإحـدى تلميذاتـه كاريـن هـوري، بالكتابـة عمـا سَـمته حسَـد الرحـم Vagina Envy، أي النظريـة المُعاكسـة، الرجـل هـو الـذي يحسـد المـرأة لأنهـا تمتلـك رحمًـا مـن خلالـه تسـتطيع تربيـة الجنيـن حتـى ميعـاد ولادتـه، أي تتوقـف عمليـة التكاثـر والإنتـاج الإنسـاني دون الرحـم.

وبغَـضِّ النظـر عـن جـدال الأعضـاء التناسـلية والرمزيـة النفسـية لهـم، لـدى النفـس والمجتمـع والسـلطة، ومـدى اسـتحقاق أي منهمـا، القـوة والاسـتفحال والتباهـي،[٢٨] إلا أن القضيـب ثبـتَ صِحـة مكانــته النفسـية والاجتماعيـة والسياسـية، علـى مَـرِّ تاريـخ الأمـم والحضـارات القديمـة والحديثـة، بـدءًا مـن زمـن الفراعنـة والإغريـق إلـى وقــتنا هـذا. وهـذا لا ينفـي أو يُعـارض أطروحـة الفرنسـية دو بوفـوار وأخواتهـا النسـويات حـول أن الحاضنـة الاجتماعيـة هـي التـي تُعطـي القضيـب هذه السـلطة، لا أنـه يأخذهـا بفِعـل قوتـه المُستحقَّـة والمُـتعالية.[٢٩] بل علـى العكس، إنمـا نـال القضيـب سُـلطة سياسـية، تبعتهـا مكانـة اجتماعيـة نفسـية. فهـذا نِــتاج الحـرب والتسـلط علـى الآخـر، إذ صُنعـت تلـك الرمزيـة بواسـطة الحـرب، التـي تَسـتخدم كل الأسـلحة، بمـا فيهـا سـلاح الخـزي، التـي تسـتعمله السـلطات المُنتصـرة عبـر قُضـب جنودهـا، مـن خـلال اغتصـاب أسـراها مـن النسـاء أو حتـى الرجـال، إذ وحسـب الأنثربولوجـي

---

(٢٧) Kate Millett, «Sexual Politics», University of Illinois Press, 2000.

(٢٨) «Karen Horney», Encyclopedia Britannica.

(٢٩) «ماريـا فوسـيه، هكـذا تكلمـت سـيمون دو بوفـوار»، ترجمـة منـى رحـاب شـاكر، نُقـل النـص كامـلا، علـى موقـع الجمهوريـة، بتاريـخ ٢٨ تمّـوز (يوليـو) ٢٠٢١.

الأمريكـي مارفـن هاريـس فـي كتابـه **التحريـم والتقديـس: نشـوء الثقافـات والـدول**، أن الحـرب هـي التـي صنعـتِ اسـتفحال الذكوريـة أو مـا يُعـرف بعقـدة أوديـب Oedipus Complex عنـد فرويـد.(٣٠)

نحـن هنـا لسـنا فـي محـل جـدالٍ بيـن النظريـتَين، بـل نُـبرهن برمزيـة القضيـب لسـببَين: أولهمـا، أن المؤسسـة السـجنية هـي مؤسسـةٌ ذكوريـةٌ بحـتة مـن حيـث ثقافتهـا القانونيـة والعرفيـة فـي فلسـفة التعامـل مـع السـجين، هـي تتعامـل بالأصـح مـع جسـد السـجين كآلـةِ إنـتاج عاملـة وخاضعـة، وفـي مصـر عـددُ السـجناء الذكـور أكثـر مـن الإنـاث. والثانـي، لأن العقـاب كسُـلطة يـرى بذكوريتـه أهميـة تعطيـل قضيـب السـجناء الرجـال، كنـوعٍ مـن أشـكال هندسـة الجسـد للوصـول إلـى الخضـوع النفسـي، أمـا بالنسـبة للمـرأة السـجينة فتراهـا المؤسسـة العقابيـة حسـب ثقافتهـا بـلا قـوة قضيـب Penis مـن الأسـاس حتـى يتم هندسـتها وتعطيلهـا وإخضاعهـا.

أيضًـا ومـن منظـورٍ اجتماعـي، فيمـا يخـص رمزيـة القضيـب، تُـعد الشـتيمة الجنسـية علـوًّا فرويديًّـا آخـر، بمـا أنهـا طريقـة إذلال وخـزي، تُوجَّـه مـن الشـاتم إلـى المَشـتوم. تعتمـد تلـك الشـتيمة علـى الأعضـاء التناسـلية النسـائية إن كانـت مُوجَّهـة للرجـل، فـلا تجـد رجـلًا يشـتم رجـلًا ويُكنيـه بأنـه «قضيـب»، لا بـل يُكنيـه بأنـه مِهبـل أو «كُـس» كمـا هـو المفهـوم فـي الأوسـاط الاجتماعيـة المصريـة. أو يكـون الإذلال مُوجه عبـر اسـتخدام مصطلحـاتٍ تـدل علـى مُومِسيَّة المـرأة، التـي هـي بمثابة أُخـت أو أم للمَشـتوم. تُصـر بعـض الثقافـات علـى تـداول الشـتيمة التـي

---

(٣٠) مارفـن هاريـس، **التحريـم والتقديـس**: نشـوء الثقافـات والـدول، ترجمـة أحمـد م. أحمـد، المركـز العربـي للأبحـاث ودراسـة السياسـات، الدوحـة،٢٠٢٠، ص.٨٣.

تَخص الأخت وليس الأم، لأن الأم معروف عنها أنها امرأة كبيرة، أما الأخت تكون شابة وفي أحايين كثيرة ليست متزوجة، حينئذٍ تكون الشتيمة لها فعالية أقوى من حيث إهانة المَشتوم، ما يثير شعور الخزي لديه ويجعله مخزيا مفضوحا أمام الاجتماعات التي حضرت إذلاله، ناهيك عن طرق إذلالٍ وخزيٍ تتبع نفس النهج، تُستخدم في فضاءات أُخرى غير عامة، أهمها الفضاء السجني في علاقته بين السَّجان والسجين.[٣١]

الرمزية السياسية هنا حاضرة، مَمزوجة بالنفسية بامتياز. في السياق التاريخي، وفي كل أشكال التعذيب والأسر، نرى الجهة المنتصرة أو الأقوى أي التي تتحكم في أسراها بعد كلِّ حربٍ بغض النظر عن دين المنتصر أو جنسيته، تستخدم قضيبَها كرمزيةٍ سيكو-سياسية Psycho-Political Symbolism تدل على الانتصار، حيث نساء برلين المُغتصَبات بعد خسارة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، ونساء البوسنة المغتصبات من قوات الصرب. ليست النساء فقط؛ في العراق، القوات الأمريكية بعد احتلالها الأول، وفي سجن أبو غريب، اغتصبوا الرجال وشوهوا أعضاءهم التناسلية «القضيب» بالقطع والحرق، كدليل واضح أن الخَصي هنا لإذلال الرجال وسلب قوة نفسية مهمة بالنسبة لهم، وجعلهم يعيشون طيلة حياتهم بالخزي الأمريكي.[٣٢]

---

(٣١) رحمة بن سليمان، «القيمي والرمزي في عمليات تعذيب المساجين السياسيين في السجون التونسية - قراءة سوسيولوجية في شهادات بعض الضحايا»، مجلة عمران، عدد ١٤، تشرين الأوّل (نوفمبر) ٢٠١٥. للمزيد، انظر: مصطفى حجازي، **التخلف الاجتماعي**: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، ط.٩، المغرب، ٢٠٠٥، ص. ٤٥.

(٣٢) «The Ghosts of Abu Ghraib», Al Hidaayah Channel, October 15, 2011.

علــى ســبيل المثــال، فــي السِّجنِــية الفلســطينيّة، يُهــرِّب الأســرى مَــنويّاتهم، فيمـا يُعـرف بــ النُطـف المُهرَّبـة Smuggled sperm إلــى زوجاتهــم، كــي تُخصّــب البويضــات وتتــم عمليــةُ التكاثــر والإنجــاب التــي تُحــرم منهــا العائــلات الفلســطينيّة، بســبب أســرِ رجالهــا. تُعــد هــذه الطريقــة إحــدى سُــبل المُقاومــة الســجنية التــي يســلُكلها الأســرى، مُقاومــة لسياســات الاحتــلال السِّــجنية التــي أقــرت عليهــم ضبـط أجسـادهم، وقتلـت فاعليّـة مَنوياتهـم التـي تَخـرج، وبهـذا تكـون حركــة قُضُــب الأســرى لإخــراج نُطفهــم، مقاومــة لمرئيــات الصهيونيــة لإخضــاع الجســد.[٣٣] تلــك الشــواهد التاريخيــة للأســر، يُقويهــا نظريًّــا كتابــاتُ النفســاني النمســاوي فيلهلــم رايــش، حيــث ربــط رايــش الكبــت الجنســي للإنســان بخضوعــه للنظــام أو الســلطة المســتبدة. والعكــس، أي أن الإنســانَ غيــر المكبــوت جنســيًّا، هــو متحــررٌ علــى المســتوى السياســي أيضًــا وليــس النفســاني فقــط، مــا يعنــي أن فعـل الجنـس هـو تحـرر، الاسـتمناء ذاتـه تحـرر، كمـا يصفـه الروائـي المصــري والســجين الســابق رؤوف مُســعد فــي فلســفة وعلاقاتيــة الســجن والحريــة والجنــس.[٣٤] ربمــا لــو تَصورنــا ســجينًا ذاهبًــا إلــى إحــدى قاعــات الســجن المُرتبــة لإقامــة علاقتــه الجنســية، لــكان ذلــك بمثابـة تحـررٍ نفسـي لذاتـه وجسـده مـن أدوات السـلطة التـي دَربـته علــى إدارة جســده بطريقــةٍ مُعينــة، طريقــة ســادو ـ مازوخيــة[٣٥] Sadomasochism، حيـث لا يُسـمح للسـجين أن يتحـدث مـع الضابـط إلا فـي أوقـاتٍ قليلـة، ويتحـدث عندمـا يأمـره الضابـط بذلـك، وتكـون

(٣٣) فيلم «أميرة»: سحبه من ترشيحات الأوسكار وصناعه يردون على اتهام بالإساءة لـ «سفراء الحرية» وللأسرى الفلسطينيين في سجون إسرائيل، بي بي سي عربي، نُشر في ٨ كانون الأوّل (ديسمبر) ٢٠٢١.

(٣٤) رؤوف مسعد، «كتاب السجن، العنف، الحب، الجنس»، مجلة بدايات، العدد ٢٢، ٢٠١٩.

(٣٥) السادو ـ مازوخية، مصدر سابق.

يديـه بجانبـه أو وراء ظهـره، ولا يقـف أمـام الضابـط ووجهـه مرفوعًـا أبـدًا، بـل وَجـب عليـه الانحنـاء والنظـر أرضًـا. كذلـك، عندمـا يمـر ضابـطٌ علـى إحـدى الزنزانـات مـن أمـام البـاب، يجـب علـى جميـع السـجناء الاسـتيقاظ والوقـوف ووجوههـم للحائـط، وأوقـات أُخـرى يديهـم إلـى أعلـى، وتقـنيات جسـدية أُخـرى ضمـن ماكينـة الخضـوع المترسـخة.(٣٦)

قَـارب فوكـو، رايـش فـي تأصيلـه للجنسـانية(٣٧) Sexuality الجماعيـة وهويـتها؛ إذ يُحاجـج الأول بـأنَّ السـلطةَ ومـن خـلال فـرض خطابهـا وتَعمقـه، عـن طريـق الأدوات المنهجيـة فـي التعليـم ومؤسسـات المجتمـع العلميـة والثقافيـة،(٣٨) تُرسِّـخ خطابًـا معينًـا بشـأن الجنـس ورمزيـته فـي عقـول جماهيرهـا، بـل إنهـا تخلـق هويـةً جنسـية علـى المـدى البعيـد فـي مخيالهـم وممارسـاتهم، سـواء كان متعـارف علـى أن تلـك الهويـة سَـوية أو منحرفـة. السـجن كمنظومـةٍ، نمـوذج مُصغَّـر مـن فضـاءٍ يجمـع اجتماعًـا وقانونًـا وسـلطةً. قانـون السـلطة هنـا، يمنـع الاجتمـاع مـن ممارسـة الجنـس، السـجناء ليـس لديهـم هـذا الحـق. وعلـى مـرِّ سـنواتٍ طويلـة، منـذ نشـأة السـجن المصـري وتَوسُّـعه عبـر القـرون الماضيـة، ظهـرتْ ممارسـاتٌ كثيـرة، تخـص الجنسَ المثلـي بيـن

(٣٦) بـول أ.روبنسون، **اليسار الفرويدي**، مرجع سابق، ص. ٢٩-٧٩.

(٣٧) الجنسـانية: هـي طيـفٌ واسـع مـن أشـكال وطبيعـة الانجـذاب العاطـفي والجنسـي (فـي حالـة وجـوده) تجـاه الآخريـن، وتفضيـلات حـول العلاقـات والسـلوكيات والتوجهـات الجنسـية والرومانسـية. وتشـتمل الجنسـانية علـى عـدة محـاور، مثـل الجنـس والحميميـة والمتعـة الجنسـية والميـل الجنسـي. ويُعبـر الأشـخاص عـن جنسـانياتهم مـن خـلال أفكارهـم وخيالاتهـم ورغباتهـم وسـلوكهم وأدوارهـم فـي العلاقـات. وتُعـد جوانـب الجنسـانية المختلفـة ديناميكيـة قـد تتغيـر مـع تغيـر الأفـراد واكتشـاف جوانـب مختلفـة عـن أنفسـهم وعلاقاتهـم. وتتأثـر الجنسـانية بالتفاعـل بيـن عوامـل بيولوجيـة وسـيكولوجية واجتماعيـة واقتصاديـة وسياسـية وثقافيـة وأخلاقيـة وروحانيـة.

(٣٨) ميشـيل فوكـو، **تاريـخ الجنسـانية، الانشـغال بالـذات**، ترجمـة محمـد هشـام، عمـل إفريقيـا الشـرق، المغـرب عـام ٢٠٠٤، ص. ١٣٦.

السجناء، رجال مع رجال أو نساء مع نساء. رجحَ البعضُ أن ظروف السجن، مثل تلاصُق الأجساد واستباحة الخصوصية بحكم العُمران وأسباب أُخرى كاختيار المِثلية كنمطٍ جنسي لهم ـ دفعت البعضَ لإقامة العلاقات. إذ هنا المقصد، أن السلطة عبر قانونها وثقافتها وممارساتها المَرئية بحَقِّ الاجتماع، أي السجناء، فرضتْ عليهم نمطًا جنسيًّا مِثليا. وكذلك، السلطة تَمنعه، بل وتُعاقب مُريديه أشد العقاب، فهي كذلك تمنعه عبر القانون والقوة، لكنها في النهاية تُساهم في تشكيل إطارٍ نفسي وثقافي وقانوني للممارسات الجنسية وأنماطها المختلفة بل وتُمهِّد لها.[٣٩]

ومن خلال فَلسفتها الحياتية، تتشكل العلاقاتُ الجنسية بين أفرادها، لكن ليس لدى المنظومة أي مُمارسات جنسية، غير الممارسات المثلية التي تتواجد بطريقَين لا ثالث لهما: الأولى، وهي أن السلطة لديها سجناء/سجينات لديهم هوية مثلية لإقامة تلك العلاقات. والثانية، وهي كانت أكثر الحجج عند المؤيدين لتَقنين الخلوة الشرعية، هي ظروف السجن من استباحة للأجساد، سِيما الأعضاء التناسلية والالتصاق الدائم لأجساد السجناء لضيق المساحات، مع الحرمان والكبت الجنسي ـ مما يدفع السجين/ة لإقامة العلاقة المثلية مُضطرا، ومُكتسبًا نمطية جنسانية مُغايرة لما كان عليه قبل أن يُسجَن، تلك النمطية سواء كانت مَيلا طبيعيا للسجين أو ميلا مُكتسبًا. وهنا تختلف من سجينٍ إلى سجين، لكن ما يُهم، أن السلطة دفعت السجين إلى «أن ينفي وجوده الجنسي أو يكون

(٣٩) Aurelia Armstrong, «Michel Foucault: Feminism», Internet Encyclopedia of Philosophy.
كذلك توجد ترجمة إلى العربية لهذا المقال، مركز باحثات لدراسات المرأة، ترجمة زينب صلاح، في ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٢٠.

مِثلـي الجنـس فـي الخفـاء خوفا مـن العقـاب، أو يمـارس الجنـس مـع الهـواء»: الاسـتمناء Masturbation.

السـجين/ة تمتلكـه السـلطةُ العقابيـة وفقًـا لفلسـفةِ حياتهـا، منـذ دخوله السـجن حتـى الإفـراج عنـه. تمتلـك السـلطة كل مـا فـي السـجين، روحـه وذاتـه وجسـده، وتبـدأ فـي مَحـو قيمتـه الإنسـانية، بدايـةً بعـريِّ جسـده، واسـتباحة أعضائـه التناسـلية وهـى قَيـد تفتيشـه علـى المـلأ، وعـن طريـق فلسـفة التعامـل اليوميـة. يُهنـدس جسـد السـجين علـى الخضـوع والطاعـة، فينـام ويسـتيقظ ويتحـدث ويعمـل ويتحـرك كمـا تُملـي عليـه فلسـفة القانـون المرئـيِّ التـي تُحددهـا السـلطة. نهايـةً، نُحاجِـج أيضـا أن الممارسـةَ الجنسـية داخـل السـجون وإن شُـرّعت سـتكون ضـد مـا سَـمنياه فلسـفة الحيـاة المَرئيـة داخـل السـجن، حسـب نظريـة فيلهلـم رايـش القائلـة إنّ الاكتفـاء الجنسـي يُحقـق ثـورةً ضـد الخضـوع. وبمـا أن السـجينَ خاضـعٌ كـروحٍ وجسـد لنظـام السـلطة السـجينية، أي أنـه لا يمتلـك الحـق فـي جسـده وفـي إنسـانيته واحتياجهـا الغريـزي، إذ سـتتعارض مَشروعيـته الجنسـية الطوعيـة مـع فلسـفة الحيـاة القائمـة عليـه كُرهًـا.

الفصل الثالث:

حول العمران، الإنسان، المُقاومة

الجسد المُطوَّع

عند دخول أيِّ إنسان إلى أيِّ مكانٍ، لا بد أن يتأثر وجدانه بعُمران ذلك المكان، إن كان صَرحًا معماريًّا تراثيًّا يغلب عليه الزخارف الفنية كالمساجد الأندلسية أو المباني الفرعونية فيُعجب بها بقدرٍ متفاوت. وإن كان في كهفٍ كبير لا فنَّ فيه، بل ويُحيط به الظلام والسكون خلال الليل، فحتمًا سيتخلله شعور الخوف أو الرعب من هذا الظلام والمعمار؛ وغير ذلك من أماكنَ وتصميماتٍ كثيرة، تُثير شعورًا ما في النفس الإنسانية. فماذا عن السجين الذي يُحيط به عمران شُيِّدَ خصيصًا من أجل مُحاصرته.

يتكون أي سجنٍ في مصر، من ساحاتٍ فارغة يتخللها مبانٍ كثيرة أو قليلة. إدارة السجن كرئيس المباحث والمأمور، ومكاتب الضباط، وقاعات ومكاتب أخرى تحوي ملفات السجناء. وأبنية أُخرى فيها (مكتبة ـ مستشفى ـ مدرسة بها عدة فصول دراسية – مطبخ – مغسلة ـ ورش للتصنيع ـ حلاق ـ فرن للخبز، مخازن للطعام والملابس، وغير ذلك). فضلًا عن عنابر السجناء وأبنية مُخصصة للإيراد والتأديب والدواعي وزنازين الإعدام التي تأخذ مبنى وحدها. هذا لا يتواجد

فـي كل الســجون، نظـرًا لاختـلاف المســاحات والتقســيمات وظـروف وكواليـس نشـأة هـذه السـجون.

منــذ القِــدم والســجون فــي مصــر، أشــهرها ســجن القلعــة المتواجــد فــي قلعــة صــلاح الديــن الأيوبــي، والتــي شُــيدت بيــن عامَــي ١١٧٦ و ١١٨٦. وقـد بُــنِيَ السـجن بداخـل القلعـة عـام ١٨٧٤، بأمـرٍ مـن الخديوي إسـماعيل، والـذي بـدَوره ومنـذ هـذا الوقـت، اسـتقبلَ الكثير من السـجناء علـى مـرِّ الحقـب الزمنيـة، قبـل أن يُغلَـق ويُصبـح تراثًـا تاريخيـا يسـتقبل الزائريــن والســائحين. لكــن، شــهدت مصــر الحديثــة، بنــاء العديــد مــن الســجون، أي بدايــة تَوســع وبنــاء ســجون علــى طــراز النظُــم الحديثــة منـذ بدايـة العقـد الثامـن مـن القـرن التاسـع عشـر. بيـن فــترتَي ١٨٨٤ إلــى ١٩١٢، تــم بنــاء ١٥ ســجنًا تحــت الرعايــة البريطانيــة بالتعــاون مــع نظـراء الداخليـة وقتئـذٍ التابعيـن للسـلطة الخديويـة مـن أسـلاف محمـد علــي، كان مــن أشــهرهم ســجن الجيــزة وأســيوط وســوهاج. ثــم بعــد ذلـك تعاقَـب بنـاء عـدة سـجون أُخـرى، وهـم سـجن دمنهـور بمحافظـة البحيــرة وســجن قنــا العمومــي وســجن الاســتئناف وليمــان أبــي زعبــل بالقاهــرة.[١]

ثــم اســتُكمل بنــاء بقيــة الســجون علــى يــد حكومــات ضبــاط مــا بعــد يوليــو ١٩٥٢، بدايــةً بعهــدِ جمــال عبــد الناصــر وصــولًا إلــى محمــد حســني مبــارك الــذي أنشــأ منطقــة ســجون طــرة مــن بينهــا الســجن الأســوأ ســمعةً، ســجن العقــرب ٩٩٢ شــديد الحراســة، والــذي صُمــم علــى طــراز سـجن متاهـة صاحبـة الجلالـة ببريطانيـا، وقيـل إنـه بُنـيَ خصيصًـا

(١) Ahmad Abdel Halim, «Bet. Oppression and Servility Testimonies from Inside Egyptian Prisons», Egyptian Institute for Studies, March 2, 2020.

تأديبًا لأفراد المعارضة من أبناء الجماعات الإسلامية الراديكالية في التسعينات، وهو يعد حاليًا مقبرة المعارضة المصرية،[٢] كما تصفه جميع بيانات المنظمات الحقوقية العالمية والمحلية، وعلى رأسهم منظمة العفو الدولية Amnesty وهيومن رايتس ووتش Human Rights Watch. ومن بعد عام ٢٠١١، افتُتح ٣٥ سجنًا آخر، ليصل التعداد النهائي للسجون في مصر إلى ٧٨ سجنًا بنوعَيه العمومي والمركزي حتى نيسان (أبريل) ٢٠٢١،[٣] ناهيك عن افتتاح ما عُرف بـ «مجمع سجون منطقة وادي النطرون»، حيث افتُتح في تشرين الأوّل (أكتوبر) من عام ٢٠٢١، وصرحتْ جهاتٌ مَعنية بأن نسخة المُجمع على طراز السجون الأمريكية، حيث ستتوفر فيه كل سبل الرعاية الإنسانية والاجتماعية والقانونية والتعليمية وحتى الترفيهية، وسيتم غلق عددٍ من السجون صغيرة الحجم، والتي لم تعد تصلح لمعيشة السجناء، مثل سجن المنصورة وطنطا وغيرهم، ومن ثم نقل من هم فيها إلى المُجمّع الجديد.

من حيث العُمران Urbanism، تميزت كثيرٌ من السجون المصرية وحتى مراكز الاحتجاز الفورية (أقسام ومراكز الشرطة) بوجود أقفاصٍ بداخلها، تلك الأقفاص يُفتَّش فيها السجين، ويجتمع فيها الأهل بالسجين عند الزيارة سواء داخل القفص أو من خلال وجود السجين داخله والأهل خارجه، فيما تُسمَّى بزيارة السلك،[٤] خلالها

(٢) Human Rights Watch «We Are in Tombs: Abuses in Egypt's Scorpion Prison», September 28, 2016.

(٣) تقرير، في انتظارك: ٧٨ سجن، بينهم ٣٥ بعد ثورة يناير «عن الأوضاع الصعبة للسجناء والسجون في مصر»، الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، نشر في ١١ نيسان (أبريل) ٢٠٢١.

(٤) يطلق هذا الاسم على الزيارة التي يكون فيها الأهل من جهة والسجين من الأخرى، ويفصل بينهم سلك أو سلكَين حديديين. انظر أحمد سعيد، **كلام حبسجية**، ص. ٣٧.

يتـمّ أيضًـا تفتيـش الأهالـي عنـد الدخـول. يعنـي حـذف مـن يتـمّ إلـى الزيـارة. ناهيـك عـن وضـع السـجناء بداخلهـا عنـد الدخـول أو الخـروج مـن السـجن، متوجهيـن لأماكـن المحاكمـات أو فـي الترحيـلات إلـى سـجون أخـرى أو إلـى المستشـفيات أو غيـر ذلـك. هـذه الأقفـاص لهـا دلالــتان: أولهمـا، تخـص المراقبـة، أن يكـون السـجين دائمًـا علـى مـرأى مـن الفضـاء السـجني للسـلطة، كنـوعٍ مـن المراقبـة الدائمـة. والثانيـة، تــتمثل فـي دنــوِّ إنسـانية السـجين، وإنزالهـا جبـرًا لمرتبـةٍ حيوانيـة، لأنه ومـن المعـروف أن الأقفـاص هـي المـكان الـذي تــتربى وتعيـش فيـه الحيوانـات.

دائمًـا مـا تــتموقَع أماكـنُ الحجـز فـي أقسـام الشـرطة والمراكـز وبعـض السـجون، أسـفل المبنـى فـي قبـوٍ صغيـر يضـم عـددًا مـن الزنازيـن يُكـوَّم فيهـا السـجناء، بينمـا تأخـذ مكاتـب رؤسـاء سـلطة المبنـى مكانًـا أعلـى، غالبًـا مـا يكـون فـي الطابـق العلـوي مـن المبنـى. قديمًـا، فـي زمـن الإمبراطوريـات التـي حَـوت الملـوك والعبيـد، فمركـز الزنازيـن قبـو القصـور الملكيّـة حيـث يسـجن فيهـا الخارجون عـن طاعة سـلطة الدولة/ الملـك، حيـث يظـل ملـك القصـر فـي عرشـه أعلـى وسـجناء السـلطة أو عبيدهـا فـي قبـو القصـر. بغـض النظـر عـن التشـبيه، وإن كان ملحوظًـا وبشـكلٍ كبيـر، إذ يوجـد رابـطٌ تاريخـي ومُمتـد بشـأن مـكان الاحتجـاز السـفلي، وبيـن دنـو مكانـة السـجين لـدى السـلطة الحاكمـة أو العقابيـة، رابـط عمرانـي لـه دلالـة نفسـية مـن ذاكـرة العقـاب التاريخيـة. علـى سـبيل المثـال، فـي وقتنـا الحالـي، قسـم الـدرب الأحمـر فـي القاهـرة، كان ملحقًـا بسـرايا الحلميّـة، حيـث فـي منتصـف القـرن التاسـع عشـر، تحديـدا ١٨٥٠، أمـر الخديـوي عبـاس حلمـى الأول (١٩٤٨-١٩٥٤) علـي باشـا مبـارك بعمـل تصميـم سـرايا تحـوي عـدة قصـور وملحقـاتٍ، سـجن

واسـطبل وعربخانـة،[٥] إذ كانـت ثقافـة البنـاء الباشـاوية، تُلـزم تواجـد سـجن كملحـق متدنـي ضمـن مبانـي القصـر، يسـتخدمه الباشـا كمُلحـق عقابــي لمَـن خرجـوا عـن الطاعـة. لكن، مـع التحديـث البنيوي للسـجون مـع القرنَيـن السـابقَين، بالتـوازي مـع ازديـاد عـدد السـجناء بالتناسـب الطبيعــي والطــردي مــع الزيــادة السـكانية للمُجتمعـات، صُممـت السـجون وبكثـرة، وعلـى آلاف الكيلـو متـرات فـي مسـاحاتٍ شـاهقة، صُممـت بـأدق التفاصيـل للحفـاظ علـى منظومـة الانضبـاط والتربيـة الشـاملة للسـجناء، فيمـا أصبحـت بعـض مُلحقـات السـرايا، كسـجنٍ أو قسـمٍ لاحتجـاز السـجناء.

بعـد تلـك الإجـراءات، يتفاجأ السـجين أنـه مُحاصـر، ليس فقط بسياسـاتٍ مَرئيـة مُهينـة تعمـل علـى محـو كَينونــته وذاتـه وتحويلـه مـن إنسـانٍ لـه اسـم وذات، إلـى مُجـرد رقـم وسـط أرقـام أخـرى ليـس لهـا مـن ذواتهـا شـيء ـ بـل مُحاصـر مـن مبـانٍ صَلبـة ومُعقـدة التركيـب والهندسـة، مبـانٍ ضخمـة مقسـمة إلـى زنازيـن صغيـرة، مُكدسـة بالأجسـاد التـي هـي أرقامٌ بنظـر السـلطة، لا أُنـاس يمتلكـون أرواحًـا وأحاسـيس. ذلـك التكـدس وسـط تلـك المسـاحات الضيقـة، يجعـل حيـاةَ السـجين جحيميـة يفــتقد فيهـا أي معنـى لوجـوده، حيـث تتراكـم الأجسـاد مفترشـةً علـى الأرض فـوق بعضهـا، بـل يتبـادل البعـض ورديـاتٍ للنـوم وأُخـرى للوقـوف، لعـدم سـعة الزنزانـة لنـوم الجميـع، كمـا يحـدث فـي بعـض زنازيـن أقسـام الشـرطة ومراكـز الاحتجـاز الفوريـة، مـا يسـاعد علـى أن تسـتباح الخصوصيّـات، بـل وتحـدث انتهـاكات العنـف الجنسـي والجسـدي كمـا يـروي الكثيـر مـن السـجناء، أو حتـى فـي أدبيـات السـجون كمـا حكاهـا

(٥) «جرائم تاريخية في حي الحلمية»، مجلة روز اليوسف، نشر في ٢٨ تمّوز (يوليو) ٢٠١٨.

صنـع اللـه إبراهيـم فـي روايتَـيه، **الواحـات وشـرف**، كمـا أشـرنا مـن قبـل؛ ناهيـك عـن إضعـاف وإهـلاك الجسـد.[٦]

ليســت فقــط الضخامــة والصلابــة والتعقيــد والضيــق الــذي يمتلــك العمـران بـه الإنسـان السـجين، بـل الألـوان السـائدة حولـه كلهـا التـي تــتمتع بالدكونــة.[٧] الأســود كلَـون القضبــان، والرمــادي وهــو اللــون المَطــلِي بـه جميـع الجـدران والحوائـط التـي تحيـط بالسـجين. هـذان اللونـان فـي علـم الألـوان، مُـثيران للنشـاط العقلـي والعصبـي للسـجين، حيـث يَمدانـه بشـعور الحـزن والاكتـئاب. فضـلًا عـن أماكـن تواجـد تلـك الزنازيـن فـي الأرض أو حتـى تحـت الأرض، مـا يسـتدعي إحسـاس الدنـو النفسـي.

بعــد أن تــتفاعل السياســاتُ الحياتــية مـع عمـران السـجن، وبمـرور الوقــت يُعــاد إنــتاج هندســة جســد السـجين طبقًــا للحيــاة المَرئيــة الجديـدة. تماهيـات الجسـد كلهـا تـدل علـى الخضـوع والطاعـة لتلـك الســلطة، وكأن الجســد الإنســاني تأكــد أنــه رهيــن ســلطةٍ جديــدة، سـلطةٍ لا يسـتطيع اعتراضهـا، سـلطةٍ قاهـرة أكبـر منـه بكثيـر حسـب وصـف الباحثـة المصريـة بسـمة عبـد العزيـز، عليـه تنفيـذ سياسـتها وفقًـا لمـا تُمليـه عليـه؛[٨] فـتَظهر عليـه بعـض التماهيـات التـي بـدأت بالفعـل تُكـوِّن جـزءًا مـن حياتـه المرئيـة داخـل السـجن مثـل التقرفـص، أي الجلـوس علـى الأرض بواسـطة القـدم وهـي مُقوسـة، وذلـك فـي

(٦) صنـع اللـه إبراهيـم، **يوميـات الواحـات**، دار المسـتقبل العربي، القاهـرة، عـام ٢٠٠٢، ص. ١٠٦.
انظـر أيضـا: صنـع اللـه إبراهيـم، **شـرف**، مؤسسـة دار الهـلال، روايـات الهـلال، القاهـرة، عـام ١٩٩٧، العـدد ٥٧٩، ص. ٥٣٥-٥٣٦-٥٣٧.

(٧) «Your Personality Color», Empower Yourself with Color Psychology

(٨) مرجع سابق، بسمة عبد العزيز، **ذاكرة القهر: دراسة حول منظومة التعذيب**، ص. ٢٨٢.

مجموعـاتٍ عنـد الانتظـار إلـى دخـول الزيـارات أو التفـتيش. اليـدان مُسـتقيمتان بجانـب الخصـر أو وراء الظهـر، والوجـه والصـوت منخفضـان عنـد التحـدث مـع رجـال السـلطة. وعنـد دخـول رجـل السـلطة إلـى الزنزانـة بشـكلٍ مفاجـئ لأي سـببٍ، يقـف جميـع السـجناء من جلوسـهم، وأوقـات يُعطـون وجوههـم للحائـط ويرفعـون أيديهـم لأعلـى، وغيـر ذلـك مـن الروتينيـات الجسـدية التـي أصبحـت متلازمـة للسـجين طيلـة فتـرة بقائـه داخـل المؤسسـة العقابيـة، اسـتعباد ذاتـي Self-bondage «غريـزة الحريّـة دُفنـت قسـرا»(٩) كمـا تصفهـا الفيلسـوفة الأمريكيـة جوديـث بتلـر، واسـتبدالٌ للـذات الخاضعـة بـدلا مـن المُحـرّرة، والتـي سـاعد فـي حَوكمتهـا، العُمـران المُصمَّـم بمنهجيـةٍ تَعـرف كيفيـة إخضـاع مَـن يُـقيد داخلهـا.

---

(٩) جوديـث بتلـر، **الحيـاة النفسـية للسـلطة**: نظريـات فـي الإخضـاع، ترجمـة نـور حريـري، دار نينـوى، للدراسـات والنشـر والتوزيـع، دمشـق، ٢٠٢١، ص. ٤٢.

الجسد المَكروه

أنتجت معسكراتُ الهولوكوست وأخواتها من الإبادات التي نَفذتها سلطاتٌ سياسية بحقِّ فئاتٍ عرقية، ظاهرةً هامة، اتبع طَرفها الكثير من علماء النفس والاجتماع، باختلاف تسمية تلك الظاهرة. وصفَها جورجو أغامبين مُستندًا إلى كارل شميث، بـ حالة الاستثناء State of Exception، ووصفت الفيلسوفة الألمانية حنة آرنت مُنفذوها أنهم مُوظفون قد قاموا بدورٍ مُحدد لهم فيما عرفَته في كتابها بـ تفاهة الشر Banality Of Evil، وأعدَّ لها البولندي زيجمونت باومان، دراسة كاملة عَنوانها الحداثة والهولوكوست Modernity and the Holocaust، نأخذ منها مُسمياتٍ كثيرة لظواهر الإبادة Genocide phenomena بالفعل الوظيفي السلطوي والمُجتمعي. مع ذلك، نستطيع إيجاز شرحها بوصفها، الرجل الذي يرتدي زيًّا وظيفيًّا (ميريا) ومن ثم بعد ارتدائه، تختلف إنسانيتُه مع ذاته، مقارنةً بالوقت الذي يخلع زيه ويرتدي زيًّا آخر (ملكيًّا).

وعلى الرغم من كل العوامل النفسية والاجتماعية والوظيفية التي ستَتداخل لتُفسِّر الشرَّ الذي قام به، إلا أن ذلك كله، لا يعفيه من كَونه ارتكب شرًّا وجرمًا أخلاقيًّا، بل قل قانونيًّا، عكس ما قالت آرنت، مُستندةً على مَقولة إيخمان عند دفاعه عن نفسه خلال مُحاكمته بالقدس يوم ١١ نيسان (أبريل) من عام ١٩٦١،[١٠] بـ «أنه

---

(١٠) في عام ١٩٣٢، انضم إيخمان للحزب النازي ثم بوحدات النخبة إس إس ثم التحق بالشرطة السرية الجستابو وأصبح من قادة الجهاز ومن المسؤولين عن ملف اليهود، ويعتبر إيخمان من مهندسي المحرقة (الهولوكوست). واعتقله الموساد الإسرائيلي أيّار (مايو) من عام ١٩٦٠، ومن ثمّ بدء محاكمته، إلى أن أُعدم شنقا في سجن الرملة في منتصف ليلة ٣١ أيّار (مايو) عام ١٩٦٢.

مُذنـب إلهــيًّا وليـس قانونــيًّا». هـذا مـا نتفـق معـه، ذنبـه القانونـي أنـه تماهـى مـع الاسـتثناء القانونـي الـذي صنـفَ البشـر ومَيزهـم عـن بعضهـم، ليقتـل فئـةً يُريـد قتلهـا. ولأن القانـون الـذي يوُضـع مـن أجـل تعذيـب إنسـان أو قـتله، دون وجـه حـق، لا يُعـد قانونًـا، هـو الاسـتثناء مـن القانـون التـي تضعـه الدولـة، كمـا فـي النازيـة وغيرهـا مـن الأنظمـة الإباديـة والقمعيـة علـى مـر التاريـخ، التـي تؤلّـف قوانيـن لتُشـرِّع ظُلمهـا.(١١)

كان الهولوكوسـت أول بصيـص ضـوء للاهتمـام والدراسـة، باعتبارهـا أحـد أكبـر الجرائـم الإنسـانية فـي القـرن العشـرين، وسـط معقـل الحداثـة الأوروبيـة. ألمانيـا فـي قلبـه، أي أول مجتمـعٍ مُنــظَّم حديـث ارتكـب مذبحـةً بـحَقِّ فرقـة إثنـو ـ دينـية (اليهـود)، إذ لم يكـن المُرتكبـون لتلك الإبـادة جماعـة مـن الغوغـاء، بـل علـى نقيـض ذلـك، أنـاس ارتـدوا زيًّـا رسـميًّا للدولـة، تحصّنـوا بتنظيـر ثقافـي شـعبوي بـه، ارتكبـوا أبشـع أنـواع القتـل الجماعـي والتعذيـب بـلا أدنـى رحمـة. كانـت معسـكرات النازيـة هـي المثـال الـذي حَظِـيَ باهتمـام أسـاتذة الاجتمـاع والنفـس، بشـأن تفسـير ظواهـر عـدة، كإشـكاليات تعامـل السَّـجان أو الجـلاد مـع سَـجينه أو ضحيتـه، والـدور الشـخصي والمحيـط الوظيفـي البيروقراطـي الـذي سـاعد علـى الإبـادة، فضـلا عـن المسـؤولية الأخلاقيـة للمجتمـع كجماعـات أو أفـرادٍ تجـاه التعذيـب، الإبـادات.

حـول ذلـك، قامـت مجموعـةٌ مـن الباحثيـن وعلـى رأسـها ثيـودور أدورنو، دانيـال جـاي ليفينسـون، ونيفيـت سـانفورد، بتقديـم مـادةٍ بحثيـة

(١١) حنـة آرنـت، **إيخمـان فـي القـدس: تقريـر حـول تفاهـة الشـرّ**، ترجمـة نـادرة السنوسـي، ابـن النديـم للنشـر والتوزيـع، الروافـد الثقافيـة، ناشـرون، بيـروت، ٢٠١٤. ص. ٥٣-٧١.

بعنـوان الشـخصية التسـلطية The Authoritarian Personality،[١٢] حـول مـا يخـص التعامـلَ الوحشـي والإبـادي مـن قِبـل النازييـن مـع المعتقليـن اليهـود داخـل المعسـكرات. وخلصـت نهايـةً، أن هـذه الوحشـية ترجـع إلـى خلـقِ شـخصيةٍ مـن نـوع جديـد، شـخصية أكثـر سـادية وعنفًـا، أُلصقـت وأُوجـدت صفاتهـا بوجـود النازيـة، كنظـام سياسـي سـلطوي، يَميـل إلـى القسـوة والغلظـة فـي التعامـل مـع الضعفـاء أو الفئـات التـي أراد إبادتهـا، فـي إهمـال وتنحيـةٍ بشـأن تفسـير وتبـيان الدوافـع والمؤثـرات الاجتماعيـة والوظيفيـة، التـي أدت إلـى ظهـور وتنامـي تلـك الشـخصية التسـلطية.

علـى عكـس مـا قدمـه أصحـاب نظريـة الشـخصية التسـلطية، اتجـه أسـتاذُ علـم النفـس والاجتمـاع الأميركـي سـتانلي ميلجـرام (١٩٣٣ ـ ١٩٨٤)، إلـى دراسـة الدوافـع النفسـية والاجتماعيـة المحيطـة بالشـخص أو الجماعـة التـي ترتكـب أعمـال عنـف، مـن خـلال تجربتـه الشـهيرة باسـمه «ميلجـرام» التـي أجراهـا فـي جامعـة ييـل الأمريكيـة، والمنشـورة نتائجهـا عـام ١٩٧٤، والتـي واجهـت المجتمـع المُتحضـر الحديـث، إذ هـي تخلـصُ إلـى أنـه مـن المُمكـن أن يقـوم بالأعمـال الإجراميـة، أنـاسٌ ملتزمـون بالقانـون وبالـدور الوظيفـي الذيـن هـم تحـت طائلتـه، وليـس أنـاس غوغائيـون متسـلطون، خُلقـت لهـم شـخصيات جديـدة، سـادية وعُنفيـة ـ بـل هـم مثلمـا هـم، لكنهـم مُوظفـون ينفـذّون أوامـر سـلطة عُليـا تأمرهـم بفعـل ذلـك. حثـتِ النتائـج علـى ربـط دافـع الأعمـال الوحشـية ببنيـة السـلطة وبيروقراطياتهـا وإطـار تنظيمهـا المعقـد، وبنـاءً

(١٢) Theodor W. Adorno, Else Frenkel-Brunswik, Daniel Levinson, and Nevitt Sanford, «The Authoritarian Personality,» W.W Norton and Company, 1993.

علـى ذلـك، يمكـن لأيٍّ شـخصٍ حتـى وإن كان يكـره القتـل، أن يقـوم بنفسـه بإبـادة الآخريـن بـلا أدنـى تـردد أو أي شـعورٍ بالذنـب، ليـس لأنـه سـادي، لكنـه جـزء مـن نظـام إبـادة فعّـال.[١٣]

أيضًـا، إحـدى النتائـج التـي استنـتجها ميللجـرام مـن تجربتـه، هـي «التـورط فـي الجريمـة، مـا يعنـي صعوبـة التراجـع»، وقـد لُوحـظ هـذا علـى المُعلِّميـن المشـاركين فـي التجربـة، عندمـا طُلـب منهـم إعطـاء المُتعلِّميـن صدمـات كهربائيـة قوتهـا ١٥ فولـت عنـد اقـتِرافهم الخطـأ، ومـع كل اقتـراف تـزداد قـوة الصدمـة حتـى بلغـت ذروتهـا علـى المُتعلميـن ٤٥٠ فولـت، عندئـذٍ وقـف المُعلمـون حائريـن بيـن التوقـف أو الاسـتمرار فـي الصعـق، مـع كامـل علمهـم بحـدوث أضـرار بالغـة إن اسـتمروا، وبالفعـل لـم يتوقـف عـن الصعـق إلا نسـبة ٣٥٪، أي ١٤ مُشـارك مـن أصـل ٤٠. أسـتاذا علـم النفـس والاجتمـاع جـون سـابيني و مـاري سـيلفر فـي دراسـتهما المُعـنونة تدميـر الأبريـاء براحـة ضميـر Destroying The Innocent With a Clear Conscience [١٤] بقَولهمـا أن المُعلم/المُعـذِّب هنـا، تحـول إلـى عبدٍ تُـقيده أفعالـه وخطواته السـابقة، كذلـك المسـافات الضئيلـة بيـن الخطـوات التعذيبيـة والعقابيـة، بمعنـى أن ازديـاد قـوة الصعقـة شـيئًا فشـيئًا وبمقـدارٍ بسـيط، غضـت البصـر عـن إمكانيـة التراجـع لهـؤلاء المشـاركين، وبذلـك قـد دخلـوا مصيـدةً أو فخًّـا وعجزوا عن الخروج منه.[١٥]

---

(١٣) Saul McLeod, «The Milgram Shock Experiment», Simple Psychology, 2017.

(١٤) John Sabini and Maury Silver, «Moralities of Everyday Life», Oxford University Press, 1982.

(١٥) Allan Fenigstein, «Milgram's shock experiments and the Nazi perpetrators: A contrarian perspective on the role of obedience pressures during the Holocaust», Theory & Psychology, 25.5, November 11, 2015, p. 581-598.

هـذه النتائـج أيضـا تُخالـف أو علـى الأقـل تُـنحّي مـا يعـرف بعلـم نفـس الجماهير/الحشـود Crowd psychology، والـذي يعـود الحديـث بشـأنه، حـول نظريـات المـؤرخ الفرنسـي غوسـتاف لوبـون (١٨٤١-١٩٣١). اشـتهر لوبـون لا سـيما فـي كتابـه سـيكولوجية الجماهيـر The Crowd: A Study of the Popular Mind، بوصفـه الجماهيـر علـى أنهـا كـتلة عقليـة واحـدة، تـتجه إلـى اتجـاهٍ مـا سـواء بالخيـر أو الشـر ضمـن فعـلٍ جماعـي ثائـر، إذ إنّ ارتـكاب الجرائـم والإبـادات يتطلـبُ همجيـةً ووحشـية جماعيـة. هـذا ربمـا يُفهَـم إلـى حـدٍّ كبيـر فـي الأفعـال الجماعيـة التـي تشـهدُها الفضـاءات العامـة، مثـل المشـاجرات الجماعيـة، الثـورات، الحـروب وغيـر ذلـك، مـن أفعـالٍ تغلـبُ عليهـا الغوغائيـة، فتفقـد الجماهيـر عقولهـم ويتحولـون إلـى اللا-عقلانيـة، وبذلـك يرتكبـون أفظـع الجرائـم بواسـطة اللا-عقلانيـة الهمجيـة الجماعيـة. أمـا الفضـاء السـجني أو معسـكرات الإبـادة، فيكـون فيهـا التعذيب/العقاب/الإبـادة، بفعـلٍ وظيفـي عقلانـي، عبـر أنـاسٍ عاقليـن متحضريـن، كمـا كانـوا فـي تجربـة ميللجـرام، والتـي أثبتـت أن التجمعَ المُشـارك فـي التجربـة، كان يغلـب عليـه العقـل والهـدوء دون صيحـاتٍ همجيـة أو محيـط غوغائـي، وبالتالـي لـم يفقـد المشـاركون عقولهـم واتسَـموا جميعهـم بالعقلانيـة، لكـن تَغلَّـبَ عليهـم الـدور الوظيفـي والتباعـد الإنسـاني/الاجتماعي وارتكبـوا أفعـال وحشـية بكامـل إرادتهـم وقواهـم العقليـة.[١٦] وهـذا مـا جُسِّـدَ سينمائـيًّا عبـر أفـلام عالميـة كثيـرة حـول الهولوكوسـت، منهـا فيلـم **الصبـي فـي البيجامـة المخططـة** The Boy in the Striped Pyjamas ٢٠٠٨، فـي أحـد المشـاهد، حيـن

(١٦) للمزيـد حـول لا-عقلانيـة الجماهيـر: غوسـتاف لوبـون، **سـيكولوجية الجماهيـر**، ترجمـة هشـام صالـح، دار السـاقي، ط.٣، بيـروت، ٢٠١١.

وقـف المُمثـل الإنجليـزي ديفيـد ثيوليـس وهـو قائـد لمعسـكرٍ نـازي أمـام زوجتـه مسـتاءً عندمـا واجهتـه، بأنـه قاتـل لآلاف البشـر مـن الرجـال والنسـاء والأطفـال مـن خـلال وضعهـم بأفـران الغـاز، وأنهـا لـن تسـتطيع أن تعيـش مـع وحـش يرتكـب هـذه الجرائـم وكان دفاعـه أمامهـا، أنـه يجـب عليـه فعـل ذلـك مـن أجـل مصلحـة وعلـو ألمانيـا التـي ينسـال عليهـا الأشـرار مـن كل حـدب.

فـي مصـر، وانـتقالًا إلـى الفضـاء السجني فـي السـينما، في فيلـم **البريء** ١٩٨٥، إذ يبـدأ الفيلـم برجـلٍ يذهـب فـي كامـل رقـته الإنسـانية، إلـى متجـر ألعـاب الأطفـال كـي يشـتري لعبـةً، ويُهديهـا إلـى زميلـة ابنــته في حفـل ميلادهـا، وعندمـا وصـل إلـى المتجـر، عرضـت عليـه البائعـةُ لعبـةً تُسـمَّى (عسـكر وحراميـة) فاسـتاء منهـا بشـأن العـرض، بـل وطلـب منهـا لعبـة رقيقـة تناسـب طفلـةً لطيفـة لينـتهي عيـن الاخــتيار علـى (جيتـار موسـيقى)، تعـزف عليـه الطفلـة أحلـى الأنغـام، ليذهـب بعـد ذلـك إلـى حفـل عيـد الميـلاد مـع ابنــته ليقـود بنفسـه الأطفال فـي اللعـب والمرح وترديـد الأناشـيد وعـزف الموسـيقى طـوال الليـل، حتـى يأتـي الصبـاح فيذهــب ذات الرجــل إلــى عملــه راكبًـا جـواده وفــي يمينــه كربــاج يتفقـد مـن خلالـه انضبـاط المسـاجين وهـم مُقرفصـون علـى ركبهـم، ليبـدأ باستِجوابهم فـي لهيـب شـمس قـد سَـيحت فـروة رؤوسـهم، ليـرد أحـد الراقديـن بـردٍّ لـم يعجبـه، فيصيـح وسـط عسـاكره ليحضـروا حبـلًا، يربـط ساقَــيِ الرجـل الراقـد ببعضهمـا مـن طـرف والطـرف الآخـر فـي جـواده، ويجـري الضابـط بالجـواد مُسـرعا، ويمسـح الرجـل الأرض مئـات الأمتـار حتـى يفقـد وعيـه، وهـذا كعقـابٍ لـه، كـي يكـون عبـرةً لمَـن يفكـر فـي الـردِّ بطريقـة غيـر خاضعـة للسـلطة. جسّـد هـذا المشـهد الفنانـان محمـود عبـد العزيـز (الضابـط) وجميـل راتـب (السـجين)،

ضمن مشاهد روت حياة المعتقلين السياسيين في حقبة الستينيات في العهد الناصري بمصر.

في واقع الفضاء السجني المصري، يحكي أحدُ السجناء عن فترة سجنه قائلًا: «أغلبية ضباط السجن كانوا يكرهوننا، السجين الجنائي منبوذ لديهم، كانوا ينظرون إليه كالعبد الأسود في ستينيات القرن الماضي بجنوب إفريقيا البيضاء، وما لفت انتباهي أنه عند دخولنا لزيارة أهالينا المقررة أسبوعيًّا، أن ضابطَ الزيارة كان يتركنا نقف في لهيب الشمس وحرِّها ولا نستطيع الدخول قبل أن يُتمِّمَ علينا ويختمَ على ساعدنا. كان يقف هو على بُعد عدة أمتار مِنَّا في ظِله يتحدث في جوّاله بكل لين ورفق وكأنّه يحدث خطيبته أو زوجته، حتى إنّ السجناء كانوا يتلمزون قائلين (الحبيب هيدخلنا الزيارة امتى) وعندما كان ينتهي من مكالمته الغرامية، يأتي إلينا وفي أقل من نصف دقيقة يلفظ لسانه أبشع السباب بسبب أو بدون سبب ويده أو يد مخبره تبرح ضربًا على أجساد السجناء، إن خالف تعليمات الزيارة من ملبس أو عدم التزامه بالصف، وهذا الموقف يتكرر عشرات المرات فيتحول خلال ثوانٍ معدودة من إنسان يتعمق بداخله الحب إلى وحش يندثر منه العنف».

وحول هذا التناقض، علقَ أستاذُ الاجتماع الأميركي جون شتاينر على تجربة عالم النفس الأميركي فيليب زيمباردو الشهيرة باسم سجن ستانفورد، مفسرًا إياها بمقولة الإنسان النائم Sleeping Human، ما يعني أن لدى كل إنسانٍ قوة ساكنة نائمة، قادرة على التطرف بأقصى درجات الهمجية والعنف والسادية، لكنها تستيقظ في حالات معينة أو عندما تتهيأ لها الظروف، مثل وجود

حيـاة اجتماعيـة أو بيئـة وظيفيـة قانونهـا يسـتوجب ذلـك الاسـتيقاظ، مـن أجـل قيمـةٍ عليـا حددهـا ذلـك القانـون.[١٧]

فيمـا يخـص التباعـد الإنسـاني/الاجتماعي، أشـار عالـمُ الاجتمـاع الأميركـي روبـرت جونسـون فـي دراسـته «الإعـدام: عمليـات المـوت الحديثـة»[١٨] Study Of The Modern Execution Process، والتـي أجراهـا حـول الأيـام الأخيـرة فـي حيـاة المحكـوم عليهـم بالإعـدام، حيـث اسـتنتج مـن خـلال مناقشـته مـع بضعـة ضبـاط أخبـروه أن حُـراس تلـك الغـرف، التـي كان يعيـش فيهـا المحكـوم عليهـم بالإعـدام، كانـوا لا ينعمـون براحـةٍ نفسـية وقـت تنفيـذ تلـك الأحـكام، لأنهـم بالفعـل قـد كوَّنـوا علاقـات إنسـانية مـع هـؤلاء السـجناء، ولكـن أولًا وأخيـرًا، هـذه هـي وظيفتهـم لـدى القانـون، الإشـراف علـى الإعـدام، مثـل الطبيـب الـذي يُجـري عمليـة جراحيـة لإنسـانٍ قـد يمـوت خلالهـا فهـذه وظيفتـه أيضًـا. وهنـا نـتفهم مـا يُسـميه باومـان «قـدرة التباعـد اللا-إنسـاني»[١٩] علـى عـدم خلـق أيِّ مـودةٍ أو رحمـة فـي ضمائـر مُنفـذي العقاب/الإبـادة، وهـذا مـا لا تَسـمح بـه السـلطة السجـنية فـي مصـر، حيـث هـي تُعاقـب رجالهـا من مُخبريـن أو أمنـاء للشـرطة أو حتـى مراتـب أعلـى، إن وجدوهـم فـي علاقـة إنسـانية مـع السـجناء، علاقـة صداقـة أو معرفـة أو قرابـة، حيـث هـذا يجعـل رجـل السـلطة مُشـتبه بـه لـدى القانـون، بـل وجعلـه محـل تـقصير منـه، إن تعاطـف مـع هـؤلاء أو كَـوَّنَ رابطـةً إنسـانية بهـم.

---

(١٧) Michael Steiner, «The SS yesterday and today: A sociopsychological view», in Joel E. Dimsdale (ed.) «Survivors, Victims, and Perpetrators: Essays on the Nazi Holocaust», Hemisphere Publishing Corporation,1980, p. 431.

زيجمونت باومان، الحداثة والهولوكوست، ص. ٢٦٣.

(١٨) Robert Johnson, "Death Work: A Study of the Modern Execution Process," Cengage Learning, 1980.

(١٩) مصدر سابق، زيجمونت باومان، **الحداثة والهولوكوست**، ، ص. ٢٤٩.

يُمكننـا نهايـةً، حـول إشـكالية المشـاعر لـدى السـلطة تجـاه السـجين، تصنيفهـا إلـى ثلاثـة مشـاعر: مشـاعر نَـبذ، مشـاعر تعاطـف، مشـاعر قانونيـة. وهـذه المشـاعر تختلـف حسـب السـجين ونوعـه، السـجين الأساسـي الجنائـي، بـلا شـك، تنظـر لـه السـلطة السـجنية علـى أنـه جسـد منبـوذ جـاء لهـا نـتيجةً لإجرامـه المُجتمعـي، وهـذا ربمـا صحيـح، أنـه جـاء نتـاج جريمـة قتـلٍ أو اعتـداء أو سـرقة أو غيـر ذلـك، لكـن النظـرة هنـا وفقًـا للقانـون اللفظـي وَجـب أن تكـون إصلاحيـة، وليسـت احتقاريـة كمـا تكـون فـي مَرئيـات الفضـاء والممارسـة، فتـرى اسـتباحته واجبـة مـن أجـل إخضاعـه، وكبـت تَوحشـه، وتنظـر إلـى جسـده بأنـه فضـاء يُمـارِس الطاعـة ويُمـارَس عليـه العقـاب. كذلـك هـذا النبـذ، يتوجَّـه ناحيـةَ السـجين السياسـي، إن كانـت السـلطة ومَـن يُديرهـا فـي فضـاءٍ بعَينـه، يكرهـه ويعشـق اسـتعباده، كمـا فـي حادثـة عربـة الترحيـلات، التـي كانـت مُتوجهـة مـن قسـم شـرطة مصـر الجديـدة إلـى سـجن أبـو زعبـل، حيـث ألقـى أحـد الضبـاط المُشـرفين علـى الترحيلـة، قنابـل غـاز داخـل العربـة مقفولـه بهـا ٤٥ سـجينًا سياسـيًّا، مـا أدى إلـى وفـاة ٣٧ سـجين منهـم؛ هـذا الحـدث شـكلَ فـي ذاتـه أقصـى درجـات الاسـتثناء السـلطوي بحـق الفئـة السياسـية السـجينة.[٢٠]

أمـا المشـاعر العاطفيـة، والتـي يَسـتحوذ عليهـا السـجين السياسـي، وهـذا يمكـن أن يكـون شـيئًا غريبًـا للقـارئ، لأن المنظمـات الحقوقيـة لهـا الكثيـر مـن البيانـات والأرقـام والوقائـع، التـي يُنـتهك فيهـا السـجين السياسـي، وهـذا بالفعـل شـيء واقعـي ومثبـوت، لكـن عندمـا تتوفـر،

(٢٠) Patrick Kinsely, «How did 37 prisoners come to die at Cairo prison Abu Zaabal?» The Guardian, February 22, 2014.

وبالفعل هي توفرت في أماكنَ سجنية أُخرى، كانت السلطة تُعامل السجين السياسي برحمةٍ ورأفة، كَونها تعرف أنه سجين استثنائي، ولم يأتِ لها من خلفيةٍ جرائمية، بل هي تراه مهندسًا ومدرسًا وطبيبًا ووزيرًا، وهذا ما يجعلها تُعامله باحترام في أحايين عدة، وإن كانت قليلة.

المشاعر الثالثة، وهى القانونية، بأن يفرضَ القانون اللفظي نفسه على مشاعر السلطة، وتتعامل السلطة من خلاله، وتُوفِّر للسجناء بعضًا أو قليلًا من حقوقهم، مثل أوقات الزيارة، التعامل بشكلٍ ليس فيه إهانة كبيرة، الاستجابة للمُتطلبات العلاجية والصحية ـ هذا إن وُجد، يكون للسجين السياسي حظ أوفر من قرينه الجنائي. وهذا يرجع إلى المسؤولين في الإدارة السجنية، إذ مهما طغت السلطة العقابية وممارساتها المرئية الفظيعة في حق السجناء، يستطيع مَن يتولى السلطة التغيير ولو بنسبةٍ قليلة، وتختلف أساليب وممارسات التغيير، حسب كل مسؤول وشخصيته، ورؤيته في تطبيق القانون. لكن مهما كان هذا المسؤول متمسكًا بالقانون اللفظي لإدارته للاجتماع السجيني، يُراعي كذلك، أساليب ومنهجيات فرض الطاعة والخضوع مع هذا الاجتماع.

كل هذه التفسيرات النفسية والاجتماعية والوظيفية، التي أثبتَتها تجاربُ وكتابات وتحليلات أساتذة نفس واجتماع وفلسفة، هي بالكاد محل تفسير، لا محل تبرير. هي تلعب دورًا مُهما في تفكيك ما وراء إنتاج البشاعة، دورًا مفهومًا ومُفسرًا في سياق العلوم، النفس والاجتماع والسياسة، لا مُفسرًا في سياق الأخلاق، إذ يُمكن للقاتل أو المُعذب السجان، الرجوع خطوة أو خطوات إلى الوراء أو الانسحاب كُليةً من دوره، كل هذا يحدث إن فكرَ قليلًا في الشرِّ

الـذي يُحدثـه؛ الشـر بالفعـل أصبـح تافهـا، عندمـا حُصـر سـبب وجـوده فـي دورٍ وظيفـي. لكـن، نـتيجة هـذا الشـرِّ ليسـت تافهـة، ولا يمكـن تبريرهـا فـي إطـارٍ وظيفـي لائحـي، بـل هـي جريمـة أخلاقيـة وجـب مُحاسـبة مُرتكبيهـا، إذ أن القتـل أو التعذيـب، إن كان سـببه تافهـا، لكـن نِـتاجه كارثـي. غيـر ذلك، فـي العُـرف المُنظـم والوظيفي لدى مؤسسـات التحقيـق والاحتجـاز المصريـة، أن قـوةَ الضابـط أو رجـل السـلطة بشـكلٍ عـام فـي تعاملـه مـع السـجناء أو المُتهميـن، تجعـل منـه رجـل سُـلطة قـوي، مؤهـل فـي نظـر المنظومـة إلـى الترقِّـي والوصـول إلـى رُتـبٍ وظيفيـة أعلـى، إذ أن هـذا الشـرَّ المُجسـد فـي ارتـكاب الفظائـع، لـه هـدف ارتقائـي لـدى مُرتكبيـه، وبهـذا تـتحقق مَقولـة بيونـغ تشـول هـان: «المزيـد مـن العنـف يعنـي المزيـد مـن السـلطة».[٢١]

(٢١) بيونـغ تشـول هـان، **طوبولوجيـا العنـف**، ترجمـة بـدر الديـن مصطفـى، دار معنـى للنشـر والتوزيـع، السـعودية، ٢٠٢١، ص. ٢٤.

السجـني/السجيـني في السينما

امتــازتِ الســينما المصريــة بغــزارة أفلامهــا، بــل واحتــوى الكثيــر منهــا علـى مشـاهد تخـص السـجن، بـل وقصـص بأكملهـا، كان السـجن محورها الرئيسـي، هـذا مـا أخذنـا إلـى البحـث والتنقيـب فـي الصـورة السـجنية فـي السـينما بمـا تحـوي مـن مشـاهدَ وصـورٍ للكثيـر مـن الممارسـات السـجنية، مثــل التشــريفة وأخلاقيــات الســجناء وعقابهــم مــن قِبــل السـلطة وغيـر ذلـك؛ وذلـك لمقارنتهـا لمـا هـو واقعـي. ونـرى كيـف سـاعدت السـينما فـي ترسـيخ صـورة السـجن، فـي مِخيـال الكثيريـن مـن الشـعب المصـري، بمـا أن السـينما هـي ثـورةٌ تنقـل الواقـع برؤيتهـا لعشـرات الملاييـن مـن المُشـاهدين.

فـي البدايـة نأخـذ التشـريفة، إذ صـورَ فيلـم **البـريء** عـام ١٩٨٥، مشـهد السـجناء عنـد دخولهـم مـن بوابـة السـجن، حيـن قـام الجنـود بضـرب وسـحل السـجناء السياسـيين الجُـدد عنـد نزولهـم مـن عربـة الترحيـلات بأوامـر مـن ضابـط السـجن. ليـس فقـط السـجين السياسـي، هـو الـذي جُسـدَت مُعاناتـه فـي بدايـات دخـول الفضـاء السـجني، كذلـك السـجين الجنائـي، والـذي جسـدَه الفنـان عـادل إمـام، فـي فيلـم حُـب فـي الزنزانـة عـام ١٩٨٣، عندمـا دخـل السـجن فـي قضيـةٍ جنائية، واستقبلَـته السـلطة، أي إدارة السـجن عنـد وصولـه، بصَفِّـه وسـط زملائـه وتوزيـع الملابـس الجديـدة عليهـم بطريقـةٍ مُهينـة، فضـلا عـن حلاقـة شـعره، فـي خـوف وصدمـة البدايـة علـى وجهـه، كأيِّ سـجين إيـراد جديـد فـي الواقـع. كمـا سـبق هذيـن الفيلمَيـن عـدة أفـلام تناولـت قضيـة السـجناء السياسـيين فـي الحِقبـة الناصريـة، مثـل فيلـم **الكرنـك** ١٩٧٥، وفيلـم **وراء الشـمس** ١٩٧٨، وفيلـم **إحنـا بتـوع الأتوبيـس** ١٩٧٩.

حتـى الأفـلام الكوميديـة، لـم تُخـفِ عقـاب التشـريفة، فـي فيلـم **اللـي بالـي بالـك** ٢٠٠٣، مـن بطولـة محمـد سـعد، حيـث جسـدَ فيـه دورَيـن: الأول، اللــص الــذي ســرقَ عمــه ودخــل الســجن، لـــيستقبله الــدور الثانـي وهـو شـبيهه مُديـر السـجن ريـاض المنفلوطـي. وكان أول لقـاء بينهمـا وهـو يُعطـي السـجناء مُحاضـرة عـن الالتـزام بقوانيـن السـجين، مُهـددًا إياهـم بعصرهـم ليتسـاقط منهـم «سـجناء صِغـار» إن خالفـوا القوانيـن. لينتهـي الأمـر بـ علقـةٍ (ضـرب مُبـرح) مـن ريـاض المنفلوطي مديـر السـجن بحـق اللمبـي الحرامـي فـي مشـهدٍ كوميـدي. لكـن، فـي قالبـه حقيقـةٌ تعرفهـا جيـدًا السـينما المصريـة وتُخرجهـا للجمهـور المصـري فـي قالـب مـن الضحـك والمـرح، ألا وهـي: لا كرامـة للسـجين وهـو فـي أيـدي السـلطة العقابيـة. كذلـك فـي الأغنيـة الشـعبية، «أيـوة أيـوة» الـذي غُنـي فـي فيلـم **عبـده موتـة** عـام ٢٠١٢، ضمـن مشـهدٍ يحاكـي خـروج عبـده موتـة مـن السـجن، واسـتقبال أصدقائـه لـه فـي الحـارة. كلمـات المهرجـان كانـت تحـوي «يـا عـم الشـاويش مـا كفايـه فينـا تلطيـش»، فـي دلالـةٍ علـى التشـريفة التـي تلقاهـا مُوتـة عنـد دخولـه السـجن.

أمـا بالنسـبة لأخلاقيـات الاجتمـاع السـجيني، مـن حـوارات وثقافـات تعامُليـة ولسـانية بيـن السـجناء، ونمـط الغوغائيـة وفـرض القـوة فـي العيـش، فيمـا يعـرف بنظـام «الأقدميـة»، بالإضافـة إلـى اللغويـات الذكوريـة التـي ذكرناهـا سـالفًا، ناهيـك عـن وجـود نوبتجـي (تُقـال أيضـا نبطشـي) لـكل زنزانـة، وهـذه التفصيـلات التـي تـدور بيـن الاجتماعـات السـجينية وبيـن السـلطة التـي ذكرناهـا أيضًـا سـالفًا ـ قـد جَسـدتها السـينما المصريـة، بـل واقتربـت منهـا بشـكلٍ كبيـر. لكـن، كان اقترابهـا إلـى حـدٍّ كبيـر، اقـترابًا مُنمَّـط، أي فـرض نمـط الغوغائيـة على السـجناء،

فـي المُقابـل لـم تُظـهر أي انـتقادٍ لطريقـة عيـش هـؤلاء التعسـاء دون أدنـى مراتـب العيـش الإنسـاني.

السـينما التي صورت مشـاهدَ سـجنية، ضَمنتْ مشـهدًا رئيسـيًّا هو الأشـهر لديهـا، وهـو اسـتقبال النوبتجـي ورجالـه للإيـراد الجديـد فـي الزنزانـة. هـذا المشـهد، لـم تغفـل عنـه كافـةُ الأعمـال الدراميـة والسـينمائية التـي جسـدت حيـاة السـجن، كمـا فـي فيلـم **جعلونـي مُجرمـا** ١٩٤٥، وفيلـم **٣٠ يـوم فـي الزنزانـة** وهـو كذلـك فيلـم قديـم، ألوانـه الأبيـض والأسـود مـن إنتـاج عـام ١٩٦٦. الفنـان فريـد شـوقي أثنـاء دخولـه السـجن كوافـدٍ جديـد، وبـدَوره خضـع إلـى أسـئلة النوبتجـي الاعتياديـة مثـل (سـبب الحبـس، والتعريـف الكامـل للسـجين). ولا مانـع مـن إعطـاء النوبتجـي الجديـد «عَلـقَة» كتشـريفةٍ أُخـرى، غيـر تشـريفة السـلطة العقابيـة، كمـا حـدث فـي المسلسـل الدرامـي ابـن حـلال عـام ٢٠١٤، عندمـا اسـتقبل نوبتجـي الزنزانـة ورجالـه الفنـان محمـد رمضـان والـذي قـام بـدور «حبيشـة» بضـربٍ مُبـرح لإذلالـه وإخضاعـه لأوامـر نوبتجـي الزنزانـة، وذلـك المشـهد تكـررَ كثيـرًا فـي أعمـال أخـرى، كمسلسـل **سـوق العصـر** إنتـاج عـام ٢٠٠١، ومسلسـل **كلبـش** الجـزء الثانـي إنتـاج عـام ٢٠١٨، وحتـى فـي المسلسـلات ذات الطابـع الكوميـدي الخالـص، دخـل هـذا المشـهدُ ضمـن التشـويق الكوميـدي للمُشـاهد فـي مسلسـل **الكبيـر أوي** الجـزء الخامـس بطولـة أحمـد مكـي عـام ٢٠١٥، عندمـا دخـل الأخـوان (الكبيـر أوي وجونـي) السـجن ليتسـقبلهم نوبتجـي الزنزانـة ورجالـه بعلقـةٍ متينـة كنـوع مـن العـرف السـائد داخـل السـجن.

حقيقـةً، لا يـرى أحـدٌ السـجون مـن الداخـل سـوى السـجناء وسَـجانيهم. وفـي الواقـع لا يعـرف الجمهـور المصـري العريـض عـن السـجون، غيـر أنهـا مُكونـة مـن أسـوارٍ ضخمـة. جسـدَ الفـن المصـري فـي أعمالـه

السينمائية والدرامية شكلًا يكاد يكون مُتشابهًا عمرانيًّا في كافة المشاهد، وهو عبارة عن أبنية يُقسمها أبواب حديدية ذات قُطبٍ سوداء متوازية على مساحاتٍ مُعينة، كما هو في فيلم **اللي بالي بالك** و**حب في الزنزانة** ومسلسل **ابن حلال** وغيرهم، ويختلف هذا مع واقع هيكلة بعض السجون من الداخل، فبعضُها قديم البنية والإنشاء والبعض الآخر حديث. ولذلك نجد بعض السجون واقعيًّا ضيقة للغاية كمساحةٍ داخلية، وأخرى واسعة. أما شكل الزنزانة التي يمكث فيها السجين يومه، فأتى على شكلَين: الأول، وهو شكل الزنزانة المتواجدة في أقسام البوليس الذي يعيش السجين فيها على الأرض، كما في فيلم إحنا بتوع الأتوبيس والكرنك. وزنزانة أخرى تكون أكبر حجمًا، تضم عشرات السجناء وتتكون من تاراتٍ (سرير للنوم) ينام عليها السجناء، كما في مسلسل **ابن حلال** وفيلم **اللي بالي بالك**؛ وهذا ما يكون متواجدًا في المؤسسات السجنية الكبيرة، وليس مَقرات الاحتجاز الفورية.

وبخصوص طعام السجن، فدائمًا ما صَورته السينما بشكله ونوعه الرديء والقليل، القليل من الفول النابت أو شوربة العدس التي لا يطيق فَم السجين تناولها، مثل ما فعل عادل إمام في فيلم **حُب في الزنزانة**، إذ لم يُطيق في البداية تناول طعام السجن الرديء، فردَّ زملاؤه السجناء عليه بعبارة «بكرا تتعود»، في إشارة سينمائية مقصودة أو غير مقصودة، أنه ومع الوقت، يُطبّع السجين مع كافة الممارسات التي تفرضها عليه السلطة. كما تجمعوا مرةً أُخرى، فرحينَ بطعام الزيارة، نظرًا لوجود لحمة، وهي قليلة التناول بين السجناء، إذ تُوزَّع مرة واحدة أسبوعيًّا على السجناء، وهذا أيضًا ما يفرح به السجناء في الواقع، إذ الزيارة وطعامها تُعد ملاذًا للسجناء.

تَمظهـراتٌ أخـرى واكبهـا الفـن المصـري، مثـل عمالـة السـجين داخـل السـجن، حيـث جُسـدت أعمـال البنـاء وتكسـير الحطـب فـي الجبـال والصحـراء، والتـي كانـت موجـودة فـي القِـدم، إلـى مفاهيـم العمـل الموجـودة حاليـا فـي السـجون، مـن ورشٍ للتصنيـع وأفـران الخبـز وطهـي الطعـام والحلاقـة وتنظيـف الملابـس وكَيهـا وغيـر ذلـك. فـي فيلـم **سـجن أبـو زعبـل** ١٩٥٧، مشـهد السـجناء ومـن بينهـم فريـد شـوقي وهـم يحملـون الحطـب ويكسـرونه كعمـلٍ شـاق وسـط الصحـراء، فرضتـه عليهـم السـلطة العقابيـة. وكذلـك فـي فيلـم **البـريء**، كان السـجناء يقومـون ببعـض الأعمـال الحفريـة فـي الصحـراء. ومـع المُواكبـة، أصبـح المشـهدُ الفـني فـي مصـر يُصـوِّر السـجناء وهـم يعملـون فـي الأعمـال الحرفيـة وغيرهـا، داخـل السـجن بعيـدًا عـن أعمـال الحفـر وتكسـير الحطـب، كفيلـم **حُـب فـي الزنزانـة** حيـث كان عـادل إمـام، يعمـل فـي مخبـز العيـش التابـع للسـجن، وكان أحمـد مكـي يعمـل فـي مغسـلة السـجن فـي المسلسـل الكوميـدي **الكبيـر أوي**، الجـزء الخامـس ٢٠١٥. تعاطـى الفـن المصـري مـع عمالـة السـجين كجـزء مـن امتـزاج ومحـاكاة التمثيـل بالواقـع، وذلـك فـي السـياق الـذي يـدور حولـه سـيناريو العمـل، لكنـه لـم يُـناقش أبـدًا حـال السـجين بشـكلٍ عـام مـن حقـوق لـه وواجبـات عليـه، أو حتـى الـدور الرئيسـي والهـدف مـن عملـه كجـزء مـن البرنامـج التأهيلـي لـه، قبـل أن يخـرج للمُجتمـع مـرةً أُخـرى، ولذلـك لا تجـد فـي سـيناريوهات العمـل الفنـي فـي مصـر، شـيئًا عـن أجـر العمـل داخـل السـجن أو هـدف العمـل مـن الأسـاس؛ بـل يحـاول الفـن قـدر إمكانـه، تقـارب العمـل الدرامـي مـن الواقـع السـجني.

الحفـلاتُ العقابـية فـي السـجون، كانـت حاضـرةً أيضًـا، سـواء مـن خـلال المشـاهد الـذي جَسـدت عقـاب المعتقليـن السياسـيين مـن أجـل

إذلالهـم والتخـلِّي عـن أفكارهـم المناهضـة للنظـام السياسـي للدولـة، أو حتـى عقـاب السـجناء الأساسـيين. فـي العقـاب الأول، كانـت السـلطة تقـوم بتعليـق السـجناء السياسـيين أو مـا يسـمى فَلكهـم (مـن فلكـة) وتعريتهـم عـدا الشـورت الداخلـي وجلدهـم بالكرابيـج والعِصِـيّ، وأوقات أخـرى قرفصتهـم لسـاعات طويلـةٍ أثـناء وهجـان الشـمس الشـديد دون حركـةٍ فـي عطـشٍ شـديد، وأسـاليب عقابيـة أُخـرى يقـوم بهـا ويُشـرف عليهـا جنـود وصُـول وضابـط السـجن؛ كمـا فـي فيلـم **الكرنـك** عـام ١٩٧٥ وفيلـم **وراء الشـمس** عـام ١٩٧٨ وفيلـم **إحنـا بتـوع الأتوبيـس** عـام ١٩٧٩. وكل هـذا وفـق حـدثٍ سياسـي وأيديولوجيـة حاكمـةٍ بعينهـا، وهـذا مـا تواجـد واقعـيًّا، لا سـيما فـي الحقبـة الناصريـة. أمـا العقـاب الثانـي، جُسـد فـي فيلـم **حنفـي الأُبهـة** إنتـاج عـام ١٩٩٠، بطولـة عـادل إمـام وهـو حنفـي، السـجين الـذي قـام بضَـرب زملائـه فـي الزنزانـة كعـادة شـجار السـجناء فـي السـينما المصريـة، بعـد ذلـك أخذتـه سـلطة السـجن وفَلكــته مُتعريًـا أمـام جمـعٍ مـن الجنـود والسـجناء كعقـاب لضربـه زملائـه، وهـذا مـا يحـدث أيضًـا واقعـيًّا، إذ فـي أوقـاتٍ كثيـرة، يُعاقـب السـجين فـي سـاحات السـجن، كنـوعٍ مـن العقـاب العلنـي، الـذي يأخـذ الـذات الإنسـانية إلـى أقصـى درجـات الخـزي.[٢٢]

سـجن النسـاء، أوجدَتـه الأعمـال الفنيـة منـذ البدايـة، حيـث جسـدت أدوار السـجينات، نُخبـة مـن أشـهر فنانـات مصـر فـي عقـدَي السـبعينات والثمانينـات حتـى وقـتنا الحالـي، مثـل نجـلاء فتحـي فـي فيلـم **غـدًا سـأنتقم** عـام ١٨٨٣، ونبيلـة عبيـد فـي فيلـم **التحـدي** عـام ١٩٨٨، وفيلـم

---

(٢٢) أوتـا فريفـرت، **سياسـة الإذلال**، ترجمـة هبـة شـريف، ممـدوح عـدوان للنشـر والتوزيـع، سـوريا، ٢٠٢٠، ص. ٧٨.

نساء خلف القضبان ١٩٨٦ بطولة سماح أنور وبوسي، وكذلك فيلم **المشاغبات في السجن** ١٩٩١ و**الهَجامة** ١٩٩٢، و**حُب في الزنزانة** ١٩٨٣، وغيرهم الكثير. دارتْ أغلب السيناريوهات حول بطلة العمل، وهى دائمًا، امرأة طيبة شريفة دخلت السجن ظُلمًا على عكس جميع السجينات الأخريات، اللواتي يتميزن بالشراسة والفتونة والعُهر وعدم الشرف، إذ أغلبهن دخلنَ السجن إثر قتل أزواجهن أو في قضايا زنا وإدارة شبكات الدعارة أو في تجارة المُخدرات، ما يُصعِّب على البطلة الطيبة، والتي سُجنت ظُلمًا، معاشرة هؤلاء النسوة. في فيلم **غدًا سأنتقم**، قامت إحدى السجينات من ذوي قضايا الشرف، وهي بمثابة نوبتجية العنبر باستقبال نجلاء فتحي، من خلال التحرش بها عن طريق اللفظ واللمس. وفي فيلم **المشاغبات في السجن**، كان مشهد استقبال الفنانة سحر حمدي التي قتلت زوجَها من نوبتجية العنبر ورفيقاتها السجينات يَحوي إيحاءات تحرش كاملة لفظًا ولمسًا، بينما تشاجَرت نبيلة عبيد في فيلم **التحدي** مع نوبتجية الزنزانة بالأيدي لأنها لا ترد على أسئلة النوبتجية بشكلٍ مُفصل ودقيق.

هذه المشاهد وغيرها، جسدتْ حياةَ السجينات المصريات، لكن دونَ تعمق، ابتذالات وكليشيهات، تُشيطِنُ النساء كما الرجال، تجعلهن بلا إنسانية، عاهرات وقاتلات ومُتحرشات، إلى أن جاء العمل الدرامي الأكبر عن السجينية النسائية، عبر مسلسل **سجن النسا** الذي بُثَّ في رمضان من عام ٢٠١٤ على شاشات الدراما المصرية والعربية، وبدوره وبشكلٍ تفصيلي، تناول حياة السجينات في سجن القناطر الخيرية. العمل مأخوذ من رواية **سجن النسا** للروائية فتحية العسال، وسيناريو وحوار مريم ناعوم،

وإخـراج كاملـة أبـو ذكـرى، وبطولـة الثلاثـي نيللـي كريـم وروبـي ودرة.[٢٣] عُـرف عـن المُسلسـل، أنـه نسـويٌّ بامتيـاز، حيـث خـرج إلـى الجمهـور العربـي بواقعيـةٍ وتَعمـق فـي حـال السـجينات، الأخلاقـي والاجتماعـي، وتطـرقَ إلـى الظـروف الاجتماعيـة التـي أودَت بهـن إلـى السـجن، ناهيـك عـن الحيـاة الاجتماعيـة السـجينية، سـواء بعضهـنّ مـع بعـض، أو تعاملهـن مـع إدارة السـجن. نـال المسلسـلُ انـتقاداتٍ واسـعة، بسـبب مشـاهده، التـي تحـوي ألفاظًـا خارجـة عـن الـذوق العـام للمجتمـع المصـري المحافـظ كمـا ادَّعـى منتقـدوه، وأن العمـل يحـوي مشـاهد جنسـية ومُحرضـة للعنـف تكفـي وحدهـا لإيقـاف بَـثِّ المسلسـل. ولكـن جـاء رد نجمـات المسلسـل ومـن بينهـم نيللـي كريـم، فَصرحـت أن: «المسلسـل يُجسِّـد واقـع السـجينات المصـري، ومـن الضـروري لتلـك المُحـاكاة أن تحتـوي هـذه المشـاهد وهـذه الألفـاظ».[٢٤]

تناولـت غالبيـةُ الأعمـال الفنيـة سـجون النسـاء المصريّـة فـي السـياق الدرامـي للعمـل ككُل، ولـم تُسـلِّط دورهـا علـى حيـاة السـجينات خاصـة، إلا فـي أعمـالٍ قليلـة منهـا مسلسـل **سجن النسـا**. وبالرغـم مـن هـذا، إلا أن تلـك الأعمـال جسـدت فعلـيًا واقـع السـجينات المصريـات فـي تلـك السـجون، مقارنـةً بتقريـرٍ أصدرتـه الجبهـة المصريـة لحقـوق الإنسـان بعنـوان **منسـيات فـي القناطـر** Forgotten in Al Qanater يُسـلِّط الضـوء علـى حـال سـجينات سـجن القناطـر معتمـدًا علـى شـهادات سـجينات سـابقات لـدى السـجن، واللواتـي وصفـنَ حـالات التحـرش اللفظـي

(٢٣) فتحية العسال، **سجن النسا**، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.

(٢٤) نيللـى كريـم: «الألفـاظ الخارجـة فـي سجن النسـا... شـر لابـد منـه». بوابـة فيتـو، نشـر فـي ١ كانـون الأوّل (ديسـمبر) ٢٠١٧.

واللمسـي التـي تحـدث سـواء مـن السَّـجانات أو السـجينات، وحـالات التفتيـش المُهينـة والإهمـال الطبـي وعـدم توافـر الرعايـة الصحية للنسـاء الحوامـل والأطفـال الرضـع، فضـلًا عـن التعامـل بشـكلٍ غوغائـي فـي الداخـل بيـن السـجينات، فنجـد مـا قالتـه السـجينات واقعـيًّا يتطابـق مع الأعمـال الفنيـة التـي تناولـت سـجون النسـاء، غيـر أن الشـهادات الواقعية أكثـر تفاصيـلًا، لا سـيما فـي إشـكاليات النسـاء الخاصـة باحتياجاتهـن البيولوجيـة كالـدورة الشـهرية والحمـل ورضاعـة أطفالهـن وغيـر ذلـك.[٢٥]

أمـا فـي مـا تَعلـق بعلاقـة النظـام السياسـي بمـا تُنـتجه الأعمـال التـي حـوت السـجن المصـري، علـى الأغلـب، تُمنَـع أو تُأخَّـر بواسـطة النظـام السياسـي القائم، عبر حِقَـبِه السياسـية المُخـتلفة، لا سـيما التي تـتناول حيـاة المعتقليـن السياسـيين داخـل السـجون فـي حقبـةٍ مـا، منـذ عهـد جمـال عبـد الناصـر ووصـولًا إلـى الآن؛ مثلمـا فعـل نظـام حسـني مبارك مـع فيلـم **البـريء**،[٢٦] حيـث عانـت عـدة أفـلام فـي العقـد الثامـن مـن القـرن الماضـي، فـي إخراجهـا للجمهـور المصـري، وفيلـم **إحنـا بتـوع الأتوبيـس**[٢٧] وفيلـم **الكرنـك**[٢٨] أيـام السـادات. حتـى فـي عهـد المجلـس العسـكري بعـد ثـورة كانـون الثانـي (ينايـر) ٢٠١١، مُنـع فيلـم **١٨ يـوم** عـام ٢٠١١ مـن العـرض، الفيلـم الـذي حاكـى أيـام الثـورة، حيـث شـارك فـي تأليفـه ٨ كُـتاب، وفـي إخراجـه ١٠ أسـماء لامعيـن فـي تاريـخ

---

(٢٥) مصدر سابق، تقرير منسيات في القناطر، ٢٨-٣٥.

(٢٦) **البـريء**، الفيلـم الـذي توحـدت الرقابـات العربيـة لمنعـه، برنامـج خـارج النـص، نشـر فـي ٣ آذار (مـارس)، ٢٠١٧.

(٢٧) **إحنـا بتـوع الأتوبيـس**، قصـة تعذيـب حقيقيـة بالسـجون المصريـة، برنامـج خـارج النـص، نشـر فـي ٦ تشـرين الأوّل (أكتوبـر) ٢٠١٩.

(٢٨) **الكرنـك**، نقـد الحقبـة الناصريـة أم ثـورة مضـادة؟، برنامـج خـارج النـص، نشـر فـي ٢٩ تمّـوز (يوليـو)، ٢٠١٧.

الإخـراج السـينمائي. وبالرغـم مـن أجـواء الحُريـة التـي سـادت الفضـاء العـام، إلا أنـه لـم تسـمح السـلطات المصريـة بعَرضـه، حتـى سُـرب بَــثه علـى الإنترنـت عـام ٢٠١٧. أمـا عـن تجسـيد حيـاة السـجين الجنائـي فـي الأعمـال الفنيـة المصريـة، اختلـف الأمـر، فلـم يكـن لـدى السـلطة السياسـية فـي كل الحِقـب أي مانـع لعرضهـا. يرجـع هـذا، إلـى أن الأعمـال الفنيـة ذات الخلفيـات السياسـية والفكريـة، تُهـدد بشـكلٍ أو بآخـر، سـمعة أنظمـة وضبـاط يوليـو، بـل وكذلـك تُهـدد النظـم القائمـة فـي وقـت عرضهـا.

بعــد مشــاهدة عشــرات الأفــلام والمسلســلات التــي جســدتْ عبــر ســيناريوهاتها حيــاةَ الســجين والســجينة داخــل الســجن فــي مصــر مـن قبـل ملاييـن المصرييـن، كان مـن الطبيعـي أن يترسـخَ فـي ذهـن المشـاهد المصـري، أن السـجن مـكانٌ مُظلـم بائـس لا يصلـح للعيـش الآدمــي، بــل هــو مــكان يجتمــع فيــه اللصــوص وتجــار المُخــدرات والقتلـة وبينهـم فئـة قليلـة هـي المظلومـة، لكـنَّ الأغلـب هـم مجرمـون يسـتحقون السـجن، بـل حتـى يسـتحقون المعاملـة القاسـية واللا-آدميـة التـي تـتعامل بهـا السـلطة العقابيـة، مـن ضـربٍ وحفـلاتٍ عقابــية إلـى العمالــة المُهينــة ووصــولًا إلــى معيشــته علــى الأرض وطعامــه القليــل الــرديء. ولــم يكــن لــدى أي ســلطة سياســية أو ثقافيــة عبــر حِقبهــا المتداولـة مـن ضابـطٍ لآخـر، أي مانـع أن تُصـوَّر السـجون بتلـك الطريقـة فـي الأعمـال الفنــية؛ هـي كذلـك فـي الواقـع، والواقع أسـوء. لكـن، طالما الْتفَّــت السـيناريوهات حـول بَــثٍّ قناعة أن هؤلاء السـجناء متوحشـون، ولا يسـتحقون العيـش والاندمـاج مـع المجتمـع، بـل علـى العكـس، عنـد خروجهـم لابـد أن يفـزعَ المُجتمـع منهـم. السـجناء جميعهـم صَورتهـم الأعمـالُ الفنــية أنهـم «نخنـوخ» و«الخُــط»، خروجهـم يعنـي مزيـدًا مـن

القتـل والسـرقة والنهـب. لكـن السـجينَ المظلـوم، هـو محـور العمـل الفَـني، وبقيـة السـجناء أشـرار لا رجـاءَ فـي وجودهـم سـوى مزيـد مـن الجريمـة. يُضـاف إلـى ذلـك، أنَّ هـذه الأعمـالَ لـن تؤثـر علـى فاعليـة السـلطة الحاكمـة فـي اسـتمرار أو اسـتـقرار حُكمهـا، إذن لا مانـع فـي البـث، إذ منـع السـلطة يأتـي فـي حالـة تشـويه صورتهـا أو بـثِّ عـدم اسـتقرارٍ مـن خـلال الفَــنّ.

«حــمّوك زي حبيشــة» هــذه الجملــة قالتهــا أمٌّ لابنهــا، وهــو سـجينٌ سياسـي سـابق فـي مصـر. سـبب مَقولـتها أنهـا شـاهدت مُسلسـل ابـن حـلال بطولـة محمـد رمضـان «حبيشـة»، الـذي دخـل السـجن، وحَمـته السـلطة السـجنية فـي التشـريفة خـلال اسـتقبالها لـه. خُـيل إلـى الأم، أن ولدَهـا السـجين وقــتها تُحميـه إدارة العقـاب مثـل «حبيشـة». الأعمـال الفنيــة التــي جسـدت السـجن، تركـتْ أثــرًا ومِخيــالًا كبيـرًا وواسـعًا لــدى جميـع المشـاهدين المصرييـن والعـرب، عـن السـجن والسَّـجان والسـجين والقانـون والحيـاة والعقاب، سـواء تركَـته إيجابـيًّا في تجسـيد الواقـع السـجني، سياسـيًّا أو قانونـيًّا، أو تركَـته بالسـلب، عبـر تـنميطاتٍ أخلاقيــة وسُـلوكية للسـجناء والسـجينات. هـذه النمطيـات تتـرك تبريـرًا فــي مِخيــال الكثيريــن، لمــا تَفعلــه الســلطة الســجنية مــن اسـتباحةٍ للاجتمـاع السـجيني الموجـود لديهـا.

الجسـد المَـوهـوب

كان مـن الممكـن، أن نخـتمَ هـذا الكتـاب بهـذا النَّـص، بهـدف أنـه سـيكون مريحًـا للقـارئ أن يخـرجَ مـن هـذا الكـمِّ مـن الألـم والعَفـن والعقـاب، مُمَلـيًا عينَيه بصورِ ورسـومات السـجناء السـابقين. الخـتامُ مع الإبـداع والفـن الـذي يُقـدِّموه بأقـل الإمكانـات المُتاحـة عندهـم. لكـن هـذا الإبـداع هـو جـزءٌ لا يتجـزأ مـن المنظومـة الشـاملة، الإبـداع مِـن مُخرجـات العقـاب، مخرجـات الألـم، مُخرجـات المِحنـة عنـد البعـض. الفـن دائمـا مـا يكـون رفيقـا لصاحبـه، يجعلـه يُـدرِك أيـن هـو، ويجعـل منـه مُتحديًـا لمـا هـو فيـه، ولذلـك مـن الأفضـل أن نضـع هـذا الفـن فـي مكانـه، وسـط العفَـن، لا آخـره. سـنذكر أيضًـا أسـماء الموهوبيـن والفنانيـن، الذيـن قابلناهـم، وهـم ٦ سـجناء سـابقين، كذلـك سـأضع صيـغ حديثهـم معنـا، كـي يكـون هـذا النـص خاصًّـا بهـم بشـكلٍ أولِـي.

«واحد يا مُوحِّد الواحد
اثـنين يا جَـدّ الحُسين
ثلاثة يا سَوّ الشماتة
أربعة يا حِبر المطبعة
خمسة يا عزمي يا حيّ
ستة يا بُكرا يا جاي
سبعة يا قلبي يا مَايل
ثمانية يا شوق الزمايل
تسعة يا دُنيا يا واسعة
عشرة يا خاين يا حشرة
أَعرَّفكم جميعًا إن السِّجن سور وأعرفكم جميعًا إن الفكرة نور»

أحمد فؤاد نجم - قصيدة العنبرة

كان شَعره مُجعدًا كما هو قبل مَماته، ولكن كان أسود اللون. وقتئذٍ كان عاملًا في عمر الثلاثين عندما اعتقله نظام جمال عبد الناصر برفقة عمال آخرين في تهم شغبٍ ضد الدولة. حينذاك لم يتوقع أحد، أن هذا العامل سيصبح الشاعر العامي الأشهر في مصر أحمد فؤاد نجم. بحثَ نجم عن كيانه فوجده في شعره العامِّي، فكتب أول ديوانٍ له وعَنونه بـ **صُور من الحياة والسجن**، وصف نجم هذا الديوان بالقشة التي تَعلَّق بها من الضياع النهائي له.

أيضًا، يحكي نجم عن الحوار الذي دار بينه وبين مأمور السجن صباح يوم ١١ أيّار (مايو) عام ١٩٦٢، حيث جاء مأمورُ السجن إليه، ووضع يدَه على كتفه وهو يُبارك له، فردَّ عليه بإتمام البركة ظنًّا أنه يُهنِّؤه على الإفراج، ليعطيه المأمور جريدة الأهرام ليقرأ نصَّ الخبر: «في مشروع مسابقة الكتاب الأول لوزارة الثقافة، فاز ديوان صُوَر من الحياة والسجن للشاعر أحمد فؤاد نجم» ويُخبره أنه بذلك الفوز وضعَ قدمه على أول الطريق، وكانت بالفعل أولى خطوات المجد لفؤاد نجم.[٢٩] مثلهم مثلُ أحمد فؤاد نجم، إذ يوجد داخل المنظومة السجنية، عشرات بل مئات المَوهوبين الذين فجّرَ السجن مواهبهم، فأشعل لَهيبها خفيةً كي لا يقتلها السجان، كعادته في قتل كل ما هو ينتمي إلى الإنسان، في مكانٍ أُعِدَّ ليكون قبرًا للإنسانية.

يحكي خيري وهو شابٌّ عشريني، هاجرَ إلى أوروبا بعد خروجه من السجن، قصةَ الشعر والشعراء داخل السجن، قائلًا: «العنبرة

(٢٩) أحمد فؤاد نجم، **صور من الحياة والسجن**، دار زينب للتوزيع والنشر، القاهرة، ٢٠٠٠ ص. ٤.

قصيـدة لأحمـد فـؤاد نجـم، أنـا تفاجـأت، سـمعتها بأبيـات مُختلفـة تمامًـا. يعنـي، فـي أول قصيـدة فـؤاد نجـم، بيقـول «عنبـر كلـه يسـمع، شخشـخت بالزهـر مانصفنيـش ولا مَـرة. أمـا أنـا سـمعتها فـي السـجن، كانـت «عنبـر كلـه يسـمع، حتـى الحديـد يسـمع، حتى الشـاويش يسـمع، حتـى الجنيـن فـي بطـن أمـه يسـمع، بعـد إذن المأمـور، هقـول كلمتيـن وانـزل علطـول»، وهكـذا إلـى آخـر القصيـدة، بأبيـات مختلفـة تمامًـا، يعنـي نقـدر نقـول كل شـخص ينـتقي كلمـات تُعبِّـر عـن حياتـه».

إليك بالقصيدة :

ودع حياتك إن الجند قد وصلوا — والنار مضرومة بالقلب تشتعل
والقيد في معصمي والقيد في عنقي — ودمع أمي على خديَّ ينسدل
يجني الزمان علينا في تقلبه — كم ودعت مقلا في لهفة مقل!
تمضي الخطوب وجبل الحزن منعقد — والعين تبكي وثوب الليل منسدل
مرت سنينٌ مرور البرق في لحب — والحزن باقٍ له في قلبنا علل
أحلامنا كلها تسعى ورا أمل — ياليت شعري وأين أنت يا أمل ؟
حالت عليَّ دهورٌ لست أحسبها — وما أرى لحبسنا حدا له حول
مر الزمان سريعا غير مكترث — حتى إذا جاء في إذا له كسل
يبني الزمان ملوكا ثم يهدمها — كم دولة قد عفت يرثي لها الطلل
كل الخلائق والبلدان قد رحلوا — ودولة السجن في طياتها الدول

شعر ـ خيري ـ نيسان (أبـريل) ٢٠١٦

الشـعرُ ليـس محـل اكتشـافٍ جديـد لـدى خيـري، بـل كان مُولعًـا بـه منـذ الصغـر، لا سـيما الشـعر الجاهلـي. كان يقـرأ ويسـمع شـعراء الأمويِّـين كـ«جريـر والفـرزدق»، ومـن العباسـيِّين قـرأ لـ«مـتـنبي»، و«أبـو نـواس وأبـو العتاهيـة». وقـرأ «لإيليـا أبـو ماضـي». ومـن شـعراء العصـر الحديـث غـرقَ فـي قصائـد «البـارودي وأحمـد شـوقي

وحافـظ إبراهيـم»، ويؤكـد خيـري أنـه تأثـر بـ«نــزار قبانــي» مـن كثـرة القـراءة لـه.

كان السـجنُ فرصـةً لـخيري للـتفرغ لكـتابة الشـعر، فيَحكـي مسـترجعًا الذكريـات: «أعطانـي السـجن وقـتًا زهيـدًا لتأليـف الشـعر، حيـث ألفـتُ ٥٠ قصيـدة، كنـت أكتـب عـددًا مـن أبيـات الشـعر فـي سـاعتين مثـلًا، ويمـروا وكأنهـم دقيقتيـن. كذلـك، أعطانـي السـجن الفرصـةَ الذهبيـة لإلقـاء الشـعر علـى مَـن معـي فـي الزنزانـة. وفـي أوقـات التريـض والأعيـاد حيـث التجمعـات الأكثـر عـددًا فـي الملعـب، كنـت أقـف وأمامـي عشـرات النـاس، وأُلقـي عليهـم الشـعر، بـكل ثقـة وفرحـة، حيـث احترفـتُ فـنَّ إلقـاء الشـعر أمـام العامَّـة».

يذكـر النفسـانـيُّ الإنجليـزي أنطونـي سـتور فـي كتابـه **الاعتـكاف ـ عـودة إلـى الـذات**[٣٠] أن العزلـةَ والابتعـاد عـن البيئـة المحيطـة لفتـرة مـن الزمن، هـي بمثابـة اجتمـاع داخلـي بيـن الإنسـان وذاتـه، حيث يقـول: «لا شـكَّ أن ابـتعادَ المـرء عـن بيئـته التـي اعتادَهـا يُسـاعد علـى تحقيـق تفهـم المرء لنفسـه، وعلـى أن يكـون علـى اتصـالٍ مباشـر بتلـك الأعمـاق الداخليـة لوجـوده التـي تَـفوته ملاحظـتها فـي حيـاة الهـرج والمـرج التـي تُطـارده كل يـوم». وحـول هـذا يقـول خيـري: «مـا بقـي لـي غيـر الليـل وسـكونه، ابتعـدتُ عـن ضوضـاء الدنيـا، وزحـام الشـوارع، صـوت المصانـع، بقـي لـي مـع سـكون الليـل قلمـي وورقــتي، فكنـت أكتـب، وأسـتمد مؤلفاتـي ممـا يـدور حولـي مـرة، وأُخـرى من ذاتـي، تَطـلُّعاتي، رؤيتـي، وهكـذا». ويُكمل خيـري عـن حياتـه الآن: «لقـد غـادرتُ مصـر، لتكملـة دراسـتي فـي أوروبـا، ومـا زلـت أكتـب الشـعر. اخــتلفَ الوحـي قليـلًا، نظـرًا لاختـلاف مـا يـدور

(٣٠) أنطونـي سـتور، **كتـاب الاعتــكاف ـ عـودة إلـى الـذات**، ترجمـة يوسـف ميخائيل أسـعد، دار نهضــة، مصــر، ١٩٩٨.

حولـي، كنـت فـي السـجن، فكتبـتُ عـن الحريـة، وعندمـا جـاءت الحريـة كتبـت عـن الحـب، وفـي القريـب سأنشـر عـدة دواويـن لـي».

أمـا أحمـد، وهـو شـابٌّ عشـريني يعيـش فـي مصـر، يَحكـي عـن بـدء اكتشـاف شَـغفه بالكتابـة، قائـلًا: «كنـت أحـب القـراءة، قـراءة القصـص القصيـرة وكتـب التاريـخ والاجتمـاع، وقبـل كل ذلـك كنـت أُحـب الليـل، حيـث يَـنام النـاس، وأسـهرُ معـه، مُستمـتعًا بالمعرفـة الجديـدة التـي اكتسـبتُها مـن خـلال القـراءة، إلـى أن جـاءت لـي فكـرة تأليـف بعـض القصـص القصيـرة، وكتابـة وجهـات نظـري فيمـا يحـدث فـي المنطقـة العربيـة، وتجميعهـا فـي كُـتيب صغيـر. وهـو إلـى الآن معـي، لـم يُنشـر بعـد، لأننـي أنظـر لـه الآن بسـذاجةٍ كبيـرة، بـه أخطـاء نحويـة وإملائيـة كثيـرة، وهـو بـلا مصـادر جـادة، لكـنَّ حروفـه الأغلـى عنـدي، لأنهـا كُتبت بصِـدق، وأوراقـه كانـت بدايـة التعـرف علـى شـغفي».

ويكمـل أحمـد، عـن خطتـه قبـل بدايـة عملـه بالكتابـة، قائـلًا: «بقـيَ لـي ٤ أشـهر علـى ميعـاد خروجـي مـن السـجن، لـم أحـس بهـذا الوقـت أبـدًا، كنـت أقـرأ وأكتـب كثيـرًا، لـم يكـن لـدي خطـة لمـا سـأفعله بعـد الخـروج، ولكـن كان صديقـي فـي الزنزانـة يقـول لـي هسـتنى مقالاتـك وكُتبـك توصلنـا هنـا. وعندمـا خرجـت بـدأت تعلـم كل شـيء عـن الكتابـة، مـن أول كتابـة التدوينـة الصغيـرة، مـرورًا بالتقاريـر وصـولًا إلـى الدراسـات البحثيـة والاسـتقصائية، والتـي الآن تُـترجم إلـى أكثـر مـن لغـة. وبالفعـل، قـد صـدر لـي كتـابٌ أدبـي مـن نمـط القصـة القصيـرة، وأرسـلته إلـى أصدقائـي بالداخـل».

ويُقــيم أحمـد تجربـةَ السـجن، قائـلًا: «هـي تجربـةٌ لهـا مـن السـلبيات والإيجابيـات، والاثنيـن يجتمعـون فـي النفـس، عن نفسـي اكتشـفت ذاتي،

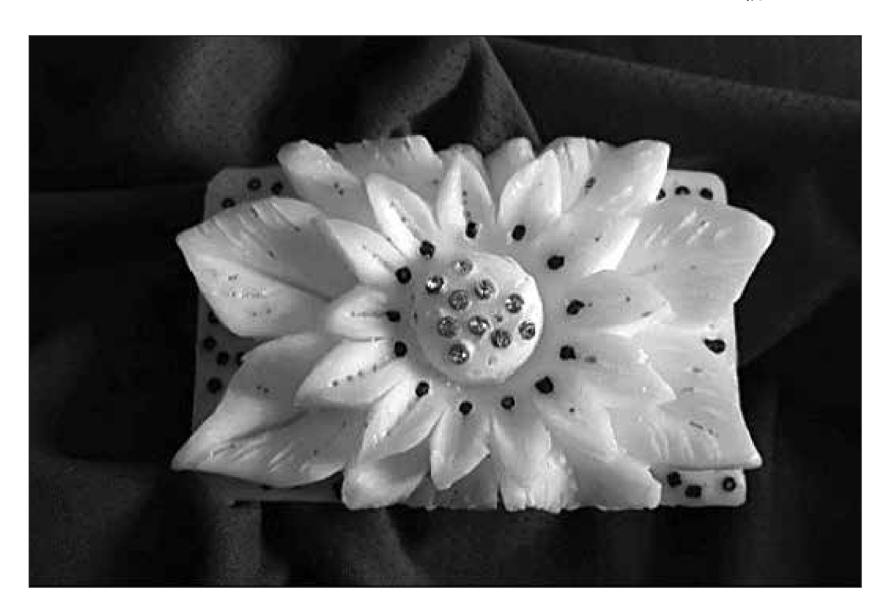
وغيـرت مجـال دراسـتي وعملـي. ولـولا السـجن لمـا كُنـت تعرفـت علـى الكتابـة. السـجن أيضًـا يُعلِّـم الطمـوح، أنـت تَطمـح إلـى الحريـة، وعندمـا تأتـي الحريــة، تفكـر فــي المجـد. والسـلبيات متواجـدة أيضًــا، فالعزلـة فـي عمـرانٍ مميـت، تحـت ظـروف عيـشٍ سـيئة، بالتأكيـد لهـا أثـر سـيء يتفـاوت مـن شـخصٍ لآخـر، لكنـه يدخـل النفـس ولا يتركهـا أبـدا».



قبل وبعد النحت - تصميم عُمر

لـم يُـدرك عمـر مـدى حُــبه للنَّحـت، كان يعـرف هـذا الفـن قبـل دخولـه السـجن، ولكـن عندمـا دخـل ورأى سـجينًا آخـر ينحـتُ علـى الصابـون، سـرعان مـا امتلـك تلـك الموهبـة، وأصبـح وأمسـى ينحـت علـى الصابـون أشـكالًا وزخـارف مُختلفــة، ليُقدمهـا لأحبابــه. خلــف قضبــان سـجن «فوتشـا»، حيـث مكـث المفكـر البوسـني علـي عـزت بيجوفيتـش يُلملِمُ شـتاتَ أفـكاره فـي أوراق بيضـاء نُشـرَت بعـد ذلـك فـي كتـابٍ اسـمه

هروبـي إلـى الحريـة Escape to Freedom، كتـب بيجوفيتـش أن عليـه أن يقتـل الوقـت، فـإن لـم يقـتله قـتله[٣١] ـ هكـذا كان عمـر، بينمـا هـو يسـرد عـن مـدى انشـغال وقـته بالنحـت علـى الصابـون، موضحًـا: «تعلمـتُ النحـت سـريعًا، كنـت أعمـل بالسـكين البلاسـتيك، أنقـش وردة أو وردتيــن علــى ظهــر الصابونــة، وفــي أطرافهــا أنقــش ورودًا صغيــرة، بعـد أن نجحـتُ فـي أول عمليـن وأخرجتهمـا فـي الزيـارة، توافـد عشـرات السـجناء إلــيَّ، طلبًــا منــي أصنــع لهــم مــن الصابــون أشــكالًا وزخــارف أُخـرى لأحبابهـم، فوافقـت مـن لهفتهـم، وبـدأت العمـل ليـل نهـار فـي أوقـاتٍ كثيـرة، فـكان الوقـت يمضـي سـريعًا، وكأنـه يحـنُ علينـا ويقربنـا مـن الحريـة».



نحت وردة على صابونة - تصميم عُمر

---

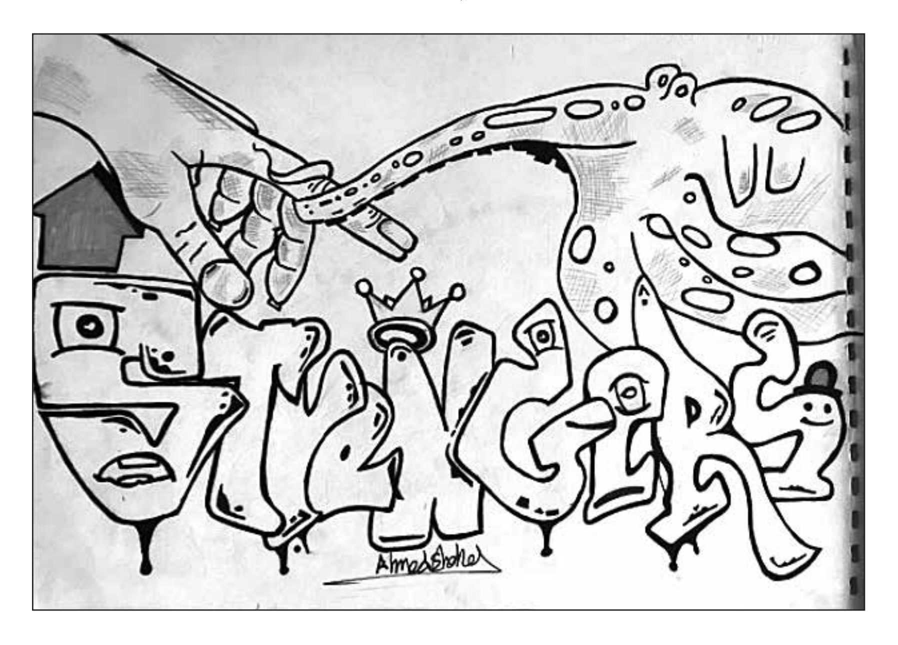
(٣١) علـى عـزت بيجوفيتـش، **هروبـي إلـى الحريـة**، ترجمـة محمـد عبـد الـرؤوف، دار الفكـر، سـوريا، ٢٠٠٢، ص. ٣٦.

وبالرغـم مـن أن صناعـةَ تلـك الهدايـا وغيرهـا داخـل السـجن يبيعهـا مـن صنعهـا، إلا أن عمـر كان لـه وجهـة نظـرٍ أُخـرى فـي أمـر البيـع والشـراء وهـي علـى لسـانه: «فعـلًا، كان فـي نـاس كتيـر بتصنـع الـورود والصابـون والتصميمـات وتبيعهـا للنـاس بفلـوس، لا أسـتطيع اللـوم عليهـم، فالحـال يضيـق بالنـاس، لكـن أنـا رفضـت بيـع صناعتـي، نظـرًا لظـروف النـاس المعيشـية الصعبـة، وحبـي لخدمـة النـاس، كان يكفينـي أن أكـون سـبب فرحـة أمٍّ بهديـة ابنهـا، أو زيـادة حُـب زوجـة أو خطيبـة لشـريكها، لأن كان الكثيـر يطلـب مِنّـي نقـش اسـم الزوجـة أو الخطيبـة علـى الصابونـة، وكنـت أفعـل بـلا تـردد».



ورود بأشكال متعددة ـ تصميم عُمر

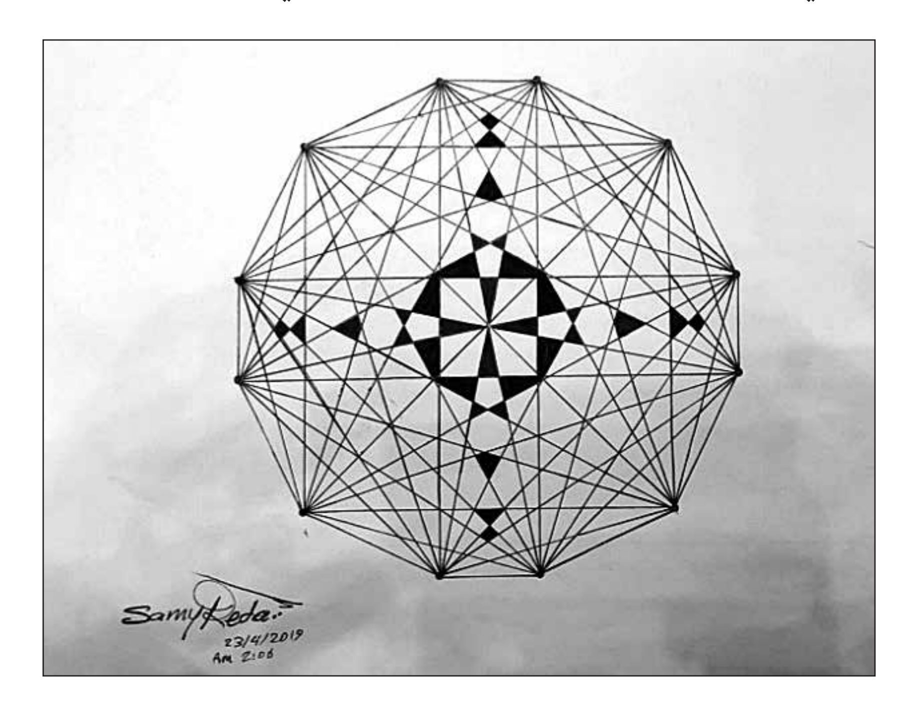
وبعـد الخـروج، يتحـدث عمـر عـنِ اهتمامـه بالنحـت أو العمـل بـه، قائـلًا: «للأسـف إلـى الآن لـم أتفـرغ للنحـت، نظـرًا لانشـغالي بالدراسـة، ولكنـي قدمـتُ فـي مسـابقاتٍ فَنــية قـد أقامتهـا الجامعـة، وقـد فـازت أعمالـي، وأُعجـب الكثيـر بزخـارف الصابـون التـي قدمتُهـا، وأسـعى إلـى مزيـد مـن الاهتمـام والتطويـر فـي الحاضـر والمسـتقبل».



غرباء Stranger ـ رسم شُهيب

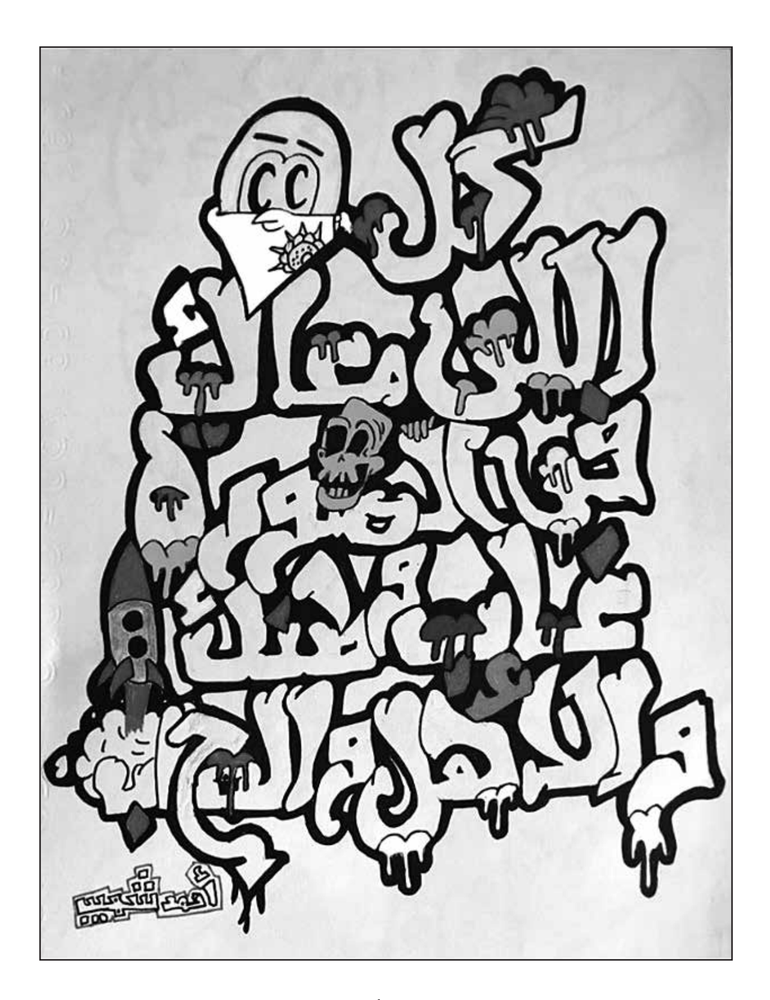
عـاش الرسـامُ الفلسـطيني ناجـي العلـي حياتَـه كلهـا يرسـم ليصـلَ إلـى فلسـطين كمـا قـال. يقـول أيضًـا إنّ الكلمـةَ والخـط المرسـوم لهمـا وقـعٌ أقـوى مـن طلقـات الرصـاص، وتلـك هـي الحيلـة التي كانـت لديـه ليُقاوم بهـا. وكذلـك هـو رأي سـامي وشُهـيّب أيضًـا، الشـابان اللـذان اتخـذا مـن الرسـومات مقاومـةً وتعبيـرًا لأفكارهـم ومـا يـدور حولهـا، ولكـن ليـس الرسـم الكاريكاتيـري، بـل رسـم الجرافيتـي و الكاليجرافـي، حيـث كانـوا يرسـمون علـى جدران الشـوارع أفكارهـم وانــتماءاتهم، ويُعبِّـرون بذلـك

عـن ثورتهـم، طموحاتهـم، مبادئهـم. وعندمـا دخلـوا إلـى السـجن، لـم يكـن لديهـم سـوى القلـم والورقـة، يحكـي سـامي عـن رسـوماته داخـل السـجن، قائـلًا: «كان لـديَّ وقـتٌ كافٍ لتطويـر موهبتـي فـي الرسـم، حيـث كانـت تأتينـي أفـكارٌ جديـدة. كانـت أفـكاري مُسـتوحاةً ممـا يدور حولـي، عمـران السـجن، ظـروف المعيشـة، تطلعـي للحريـة، وهكـذا».



رسم ـ سامـي

يـروي سـامي قصـةَ تلـك الرسـمة، قائـلًا: «رسمــتُها عندمـا كنـا نختلـف فـي الزنزانـة فـي وجهـات النظـر والـرؤى. رسمــتُها لأن مـا خطر فـي بالي وقتــئذٍ أن أفكارنـا ووجهـات نظرنـا مهما اختلفـت وتشـعبت، لكنها تصب نهايـةً فـي نقطـةٍ واحـدة، بوجهـة نظـري هـي مبـدأ الحريـة، فجعلـتُ كل الخطـوط متقاطعـة باختـلاف اتجاهاتهـا ولكنهـا تصـب ناحيـة الحريـة».



رسم - شُهيب

أما شُـهيّب، فحكـى أن رسـوماته لـم تقتصـر علـى الأفـكار فقـط، يقـول: «عندمـا رآنـي النـاس داخـل السـجن أرسـم عبـارةً لعائلـتي وألونهـا كهديـة لهـم، طلبـوا مِنـي أن أرسـمَ أسـماء أخواتهـم وأزواجهـم وأمهاتهـم وآبائهـم أيضًـا، فـي أشـكالٍ مُركبـة، ومعهـا بعـض عبـارات الصبـر والشـكر لهـم، لـم أتـردَّد كنـت أرسـم لهـم دائمًـا فـي أوراق بيضـاء كبيـرة وهـم بدورهـم يخرجونهـا لأقاربهـم بـكل سـعادة وامتنـان».

بعدما نـال شُـهيب حُريتـه، سـافرَ لـيُكمل دراسـته فـي الخـارج، ولكـن سـاعده الرسـم أيضًـا فـي وحدتـه، كمـا حكـى: «عرفـتُ ثقافـاتٍ جديـدة، وبالتالـي تنوعـتِ الأفـكار لـديّ. أعبـر عـن كل شـيء جديـد اكتشـفته بعبـارةٍ مرسـومة علـى الأوراق. أوقـات كثيـرة ينتابنـي الحـزن بسـبب الغربـة، فأرسـم شـعوري فـي عبـارةٍ. عندمـا أرسـم أرتـاح، وكأن الرسـم فضفضـة ثلاثيـة بينـي مـن ناحيـةٍ وبيـن القلـم والورقـة مـن أُخـرى».



بيت مصمم من الكرتون ـ تصميم مُسعد

مسـعد، حرفِــيٌّ مصـري فـي أوائـل الثلاثينـات، يتذكـر كيفيـةَ بنائـه بيتًـا مـن الكرتـون خـلال فتـرة سـجنه، فيقـول: «الأمـر مـش محتـاج مهنـدس معمـاري، أنـا حِرَفِــي، واسـتطعتُ بنـاء البيـت، بجيـب الكرتـون والفيبـر، والخـرز، وبخطـط بالقلـم وبقطـع بالمسـطرة، حسـب يعنـي، بعمـل شـباك، بقيـس طولـه، وليكـن ٤ سـم، والبـاب ٦ سـم، والبيـت كلـه علـى ارتفـاع ٤٠ سـم، واعمـل أرضيـة حوليـن البيـت (جنينـة) مسـاحتها ٦٠ طـول و ١٠٠ سـم عـرض، وهكـذا. وببـدأ ألـزق كل المتقطـع بمسـدس الشـمع، يسـتغرق الأمـر أسـابيع، واهديـه للزوجـة والأولاد، شـيء يصبرهم علـى مـا أخـرج لهـم بالسـلامة».

مـن خـلال تجربتهـا فـي المشـاركة فـي تصميـم معمـار السـجون المصرية، وصفـتِ المهندسـة غـادة عمـرو بنيويـة السـجن المصـري بالبنيويـة التـي تُحطِّـم السـجين نفسـيًّا وجسـديًّا، موضحـة عـدم مراعـاة مسـاحة جيـدة للسـجون المصريـة تتوافـق مـع عدد النـزلاء الماكثيـن في السـجن. وتصف أيضًـا أن معمـارَ السـجون لا يُسـاعد علـى إصـلاح وتهذيـب السـجين، بـل علـى العكـس هـي تسـاعد علـى تدميـره وتطويـره إجراميًّـا.[٣٢]

يكمـل مسـعد: «البيـت لـه رمزيـة ثانـية فـي نفوسـنا، إحنـا زهقنـا وتعبنا نفسـيًّا مـن عمـران السـجن، الحديـد، والأبـواب السـوداء، والنـوم علـى الأرض، والأكيـاس، وضيـق المعيشـة، والحمامـات الرديئـة، لذلـك إحنـا بنصمـم البيـوت علشـان تفكرنـا بحياتنـا مـرة ثانيـة، الـزرع، البلكونـة، الأبـواب الخشـبية، الكراسـي البلاسـتيك، المسـاحة الواسـعة للنـوم، بانيـو الحمـام، أهـو أي شـيء مـن رائحـة الحيـاة الملكيـة».

---

(٣٢) مصدر سابق، «عمارة السجون ما بين آلة الإصلاح ومصنع الانحراف»، بسمة عبد العزيز، موقع «Uraiqat Architects».



أباجورة ـ ضوء على شكل قلب ـ تصميم مُسعد

يسرد مُسعد حكايةَ التصميمات داخل السجن، فيقول إنّها «ليست بيوتًا فقط، بل تُصمَّم أيضًا البراويز التي تُزيَّن بالورود والقلوب، وتُصمَّم الورود نفسها بواسطة أوراق المناديل، وغير ذلك، وكل ذلك بواسطة الكرتون والفيبر والشمع والأطباق البلاستيكية وما يتوفر للسجين من أدواتٍ بالداخل».

حـول هـذا، يَحكـي السـجينُ الكاتـب النمسـاوي فيكتـور فرانـكل فـي كتابـه **الإنسـان يبحـث عـن المعـنى** Man's Search for Meaning، عـن كيفيـة خروجـه مـن الضغـط النفسـي فـي مواجهـة مشـكلاته الصغيـرة خـلال وجـوده فـي معسـكر الاعتقـال النـازي،[٣٣] حيـث إنّـه كان يُجبِـر عقلــه علــى التفكيــر فــي موضــوع آخــر، حيــث كان يتخيــل نفســه واقفًـا علـى منصـةٍ فـي إحـدى المحاضـرات، وأمامـه حشـدٌ مـن النـاس، يسـتمعون إليـه بانتبـاه، بينمـا هـو يُلقـي محاضـرةً عـن سـيكولوجية معسـكرات الاعتقـال. رأى فرانـكل فـي هـذا التصـور هروبًـا جيـدًا مـن المشـكلات التـي تواجهـه فـي يومـه، حيـث التطلـع للمسـتقبل الباهـر. هـذا فضـلًا عـن فقـدان القيمـة الإنسـانية للسـجين، وكمـا يقـول فرانـكل «تُعانـي الأنـا عنـد الشـخص فـي النهايـة مـن فقـدان القِـيَم، وإذا لـم يُكافـح الإنسـان فـي معسـكر الاعتقـال ضـد ذلـك حتـى آخـر جهـدٍ لديـه حتـى يُـنقذ احترامـه لنفسـه، فإنـه يفقـد الشـعور كونـه فـردًا، وكائـنًا له عقـل، ولـه حريـة داخليـة ولـه قيمـة شـخصية».[٣٤]

كان كلٌّ مـن الشـعر والكتابـة والغنـاء والنحـت والرسـم والتصميـم، ليـس فقـط نابعًـا مـن اكتشـاف الـذات، وقـتل الوقـت، وتقديـم الهدايـا، بـل هـو هـروبٌ كامـل مـن الحيـاة السـيئة إلـى الحيـاة الجميلـة وهـروب مـن الظلـم إلـى العـدل، ومـن الأَسـر إلـى الحريـة، ومـن وَجـه السـجان إلـى ورود العائلـة، ومـن العمـران الضيـق إلـى سـعة الحيـاة.

---

(٣٣) فيكتـور فرانـكل، **الإنسـان يبحـث عـن المعنـى**، ترجمـة طلعـت منصـور، دار القلـم، الكويـت، ط. ٢، ٢٠١٢، ص. ١٠٣.

(٣٤) مصدر سابق، فيكتور فرانكل، **الإنسان يبحث عن المعنى**، ص. ٧٦.

الجَـوابات السجيـنية: في إمكانية تَـأريخ المشاعر

أدبُ السـجون وأدب الرسـائل، همـا النوعـان الشـهيران، لكـنَّ الجوابـات المُرسـلة مِـن وإلـى السـجين، هـي أدب رسـائل السـجون، ليـس شـرطًا أن نعنـي بكلمـة «أدب» أن تكـون هـذه الجوابـات خارجـةً بمعايِـيرَ أدبيـة، مــن حيــث الــذوق والتعبيـر الجمالـي، وحتــى التدقيـق الإملائـي واللغـوي الفَــني. هـذه الرسـائل الفنيـة، مـا يزيدهـا جمـالًا، شاعِريــتها وأحاسيســها وقيمتهـا بالنسـبة للمُرسِـل والمُرسَـل إليـه، إذ هــي الأداة الوحيـدة المُتــبقية للسـجين ومُراسـله، التــي تُحـرِّره مــن عالمــه المنعــزل بالأســوار، وتخــرج بــه إلــى الأشــياء والأجســاد التــي يُريـد ملامسـتها والتلاقـي بهـا. مَـن يُراسـل السـجين، وعمـا يُحدِّثـه، وكيـف تُمثِّـل جواباتُ السـجين آخـر حيـاةٍ بالنسـبة لـه. وهـل يجـب أن نفكـر أن نـؤرخ الكـمَّ المُتبـادل مـن المشـاعر، كـي يكـون لدينـا أرشـيف مشـاعري، يَحـوي دليـلًا مـا، تاريخيًـا أو سياسـيًّا أو جُغرافيـا لهـذه الفتـرة الزمنيـة، أي مـا بعـد ٢٠١٣، أو حتـى فـي أيٍّ مـن المراحـل سـواء السـابقة، الحاضـرة أو المُستقبلــية.

علـى مَــرِّ الزمـن، لا تخلـو زنازيـن مصـر والعالـم كلـه مـن السـجناء بكافـة تَــنوعاتهم واختلافاتهـم الماديـة، التعليميـة والاجتماعيـة. أُرسِـل مـن داخـل تلـك الزنازيـن إلـى الخـارج والعكـس، عـددٌ لا يُحصـى مـن الأوراق المكتوبـة، المملـوءة بفَيـضٍ لا يُعـد مـن المشـاعر والأحاسـيس والوعـود والحكايـات والشـكاوى والرضـا والصبـر والشـجاعة واليـأس. كل ورقـةٍ مهمـا تنـوع محـتواها تمتلـك خصوصيـةً لـدى كاتبهـا وقارئهـا، لا ورقـة فـوق ورقـة، ولا قلـم أفضـل مـن قلـم. تختلـف تلـك المراسـلات عـن غيرهـا مـن المراسـلات التـي تمـتْ ونُقلـت تحـت أدب الرسـائل،

بالرغـم مـن أنهـا تُرسـل إلـى الأصدقـاء والأقـارب والأحبـاء، لكونهـا رسـائل سـجنية، مُقـيدة بالأسـوار والجـدران والقضبـان.

يتواصـل السـجينُ مـع معارفـه وأصدقائـه وأحبابـه وأهلـه. يُحـاول إنعـاشَ ذاكرتـه التـي يتـم مَحوهـا مـن خـلال السياسـات الحياتيـة لـدى السـلطة العقابـية، التـي تُسـاعد بفضـل الانعـزال التـام فـي مَحـوِ الذاكرة الخارجيـة، الحيـاة الإنسـانية التـي كان يَعيشـها السـجين قبـل سَـجنه. ومـن خـلال رسـائله، يبـدأ فـي مقاومـة هـذا المَحـو، مـن خـلال كتابـة الذكريـات الخاصـة بـه مـع أصدقائـه، فـي اللعـب والمذاكـرة والفُسَـح وأوقـات الشـدة والحكايـات الكوميديـة بينهـم والذكريـات وغيـر ذلـك؛ بـل ويشـكرهم علـى عـدم نسـيانهم لـه ووقوفهـم بجانبـه أو بجانـب أسـرته فـي هـذه المِحنـة، أو يُعاتبهـم إثـر تقصيـر فـي حـقِّ المـودة التـي كانـت بينهـم، أو يسـأل عـن شـيء مـا، أو غيـر ذلـك.

أيضًـا، يُحـاول نقـلَ الصـورة التـي يراهـا، والتـي مـا زال لا يُصدِّقهـا، ولا خطـرَ فـي بالـه يومًـا مـن الأيـام أن يعيشـها، عبـر وصفـه فـي الجوابـات المُرسـلة، شـكلَ الزنـزانة، كيـف يُخرجـون فضلاتهـم، كيـف يقضـي وقـته، كيـف يـأكل ويشـرب، إلـى آخـره مـن ممارسـاتٍ يوميـة؛ كمـا فـي مراسـلات المناضلـة العُماليـة روزا لوكسـمبورغ إلـى صديقـتها سـونيا ليبكنخـت فـي أثنـاء سـجنها بيـن عامَـيّ ١٩١٤ و١٩١٨، حيـث حاولـت روزا تصويـر حياتهـا الجديـدة لسـونيا، إذ تقـول الأولـى لصديقـتها: «هـذا ثالـثُ عيـدِ ميـلادٍ أقضيـه فـي الحبـس، ولكـن أرجـوكِ لا تفهمينـي بطريقـةٍ مأسـاوية. أنـا مُبـتهجة وهادئـة كعادتـي. أسـتلقي فـي زنزانـتي علـى فـراشٍ قـاس كالصخـر، ويلفـني سـكون المقابـر الطبيعـي. يتـراءى للمـرء أنـه داخـل القبـر فعـلًا. مـن خـلال نافذتـي ينعكـس ضـوء المصبـاح الخارجـي علـى السـقف. وبيـن الفينـة والأخـرى أسـمع مـن

بعيـد قرقعـةً خافتـة لقطـارات عابـرة، أو سـعال الحـارس الدانـي الـذي يمشـي بضـع خطـوات تحـت نافذتـي ليحـرك سـاقيه المُتـيبستَين. يتـأوه الرمـل تحـت جزمتـه الثقيلـة صادحًـا بيـأس الوجـود والهجـران فـي الليـل القاتـم. هـا أنـا مسـتلقية بمنتهـى السـكون والوحـدة، ومتلفحـة بسـواد وشـاحات العتمـة والملـل وفقـدان الحريـة والشـتاء. ومـع ذلـك ينبـض قلبـي بعذوبـةٍ غيـر مسـبوقة أو مفهومـة، كمـا لـو أنـي أتـنزه تحـت أشـعة الشـمس المشـرقة فـي حقـل مزهـر. أبتسـم إلـى الحيـاة مـن خـلال العتمـة، كمـا لـو أنـي مُطلعـة علـى سـرٍّ سـحريٍّ يُكـذب كل الحـزن والشـر ويقلبهمـا صفـاء وسـعادة محضـة».[٣٥] بالرغـم مـن قسـوة الزنزانـة، لكـن روزا كانـت تَشـعر بعذوبـةٍ غيـر مَفهومـة. كذلـك بعـض السـجناء والسـجينات، يُحاولـون أن تكـون حياتهـم الجديـدة محـل تصـور لمَـن لـم يعشـها، يُحاولـون أيضًـا طَـمأنـةَ مَـن هـم قلقـون فـي الخـارج عليهـم، كنـوعٍ مـن تخفيـف الألـم علـى الطرفيـن، الراسـل والمُرسـل إليـه.

يُراسِـل السـجينُ أهلـه، الأم والأب والأخ والأخـت، أو مَـن تبقـى لـه مـن عائلــته ويُحـب أن يتواصـلَ معهـم. يحكـي لأمـه عـن حياتـه الجديـدة، يُحـاول إيقـاف دموعهـا بـأيِّ كلمة، الدمـوع التي لا تقف إلا بانـتهاء الأسـر، يُحـاول الاعتـذار، عـن أيِّ شـيء، ليـس عـن كونـه فعـل شـيئًا مـا تسـبب فـي سـجنه، بـل الاعتـذار بشـكلٍ عـام، عـن هـذا الوجـود الـذي منح أُمـه المَشـقة. هنـاك كلمـاتٌ أيضًـا تُنـبِّه الأبَ بـألا يحـزن، تَشـكره علـى تحملـه محتويـات وتكاليـف الزيـارة مـن ملبـسٍ وطعـام، أي كلمـاتٍ تسـاعده فـي فـرد ظهـره مـن الانحنـاء أثنـاء انتظـار جلسـات المُحاكمـة. أو تكـون بمثابة

(٣٥) «يوكـه هيرمسـين، روزا لوكسـمبورغ وحنـة آرنـت بيـن المـد والجـزر»، ترجمـة رحـاب منـى شـاكر، مجلـة الجمهوريـة، نشـر فـي ١٩ تمّـوز (يوليـو) ٢٠١٩.

مظلةٍ من نار الشمس الحارقة لأخ أو أختٍ في انتظار طابور تسجيل الزيارة. غير الذكريات الجميلة، والتمني مستقبلًا بأنه ستَجمعهم ذكريات أُخرى، فانتهاء الأسر مهما طال سيأتي.

حاول المفكرُ الإيطالي أنطونيو غرامشي، من خلال رسائله إلى أُمه جوسبينا مارشياس وأبيه فرانشيسكو غرامشي وزوجته يولكا سشوشت، طمأنتهم بشأن معيشته داخل السجن بين عامي ١٩٢٤ و ١٩٣٧. يقول في إحدى رسائله: «أمي الحبيبة. فكرتُ فيكِ كثيرًا هذه الأيام. فكرتُ في الحزن الجديد الذي سببته لك، وأنتِ في مثل هذا العمر وبعد كل الأحزان التي عشتيها. يجب أن تكوني قويةً مثلي، رغم كل شيء، فلتُسامحيني بحنان حبك الهائل وطيبتك. عندما سأدرك قُوتك وجلدك في الأوجاع ستصبح لدي ذريعة لقوة زائدة، فَكِّري في هذا، عندما تكتبين لي على العنوان الذي سأرسله لك، طمئنيني عنك».[٣٦]

كما أن رسائلَ بيجوفيتش إلى ابنته، المُلحقة في كتابه **هروبي إلى الحرية** الذي كتبه بفترة سجنه بين عامَي ١٩٨٣ و١٩٨٨، أوصَتها بالانتباه إلى أهمية تربية الأبناء، وفَضفض لها عن معنى وقيمة الحرية والحُب، حيث كتب لها «لكن عليكِ دائمًا أن تبدأي بالحب، يبدو أن الحب يحل كُل الألغاز التي تعجز عنها كل العقول في العالم».[٣٧] وثمةَ رسائل أُخرى كتبها السياسيُّ الهندي جواهر لال

(٣٦) أنطونيو غرامشي، **رسائل السجن**، الجزء الأول، ترجمة سعيد بوكرامي، طوى للثقافة والنشر والإعلام، لندن، ٢٠١٤، ص. ٢٣.

(٣٧) علي عزت بيجوفيتش، **هروبي إلى الحرية**، ترجمة إسماعيل أبو البندورة، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢، أوراق السجن، ص. ١٥.

نهـرو إلـى ابنتـه أنديـرا، حيـن كان قابعًـا فـي سـجنه فـي عشـرينيات القـرن الماضـي.

أيضًـا هنـاك كلمـاتُ الأحِـبَّــة، هنـا تتداخـل جميـع المشـاعر: الامتنـان، الصبـر، الرضـا، المثابـرة، التحـدِّي، والتمنِّـي. عامًـا بعـد عـام يغلـب الصبـر التمنـي، ويُصـارع الحـب ببقائـه ضعـف مـرور الزمـن. تقـول إنهـا تنتظـر ويُجاوبهـا مـن صميـم قلبـه ألا تنتظـر. نسـمع كثيـرًا عـن أخبـار الأسـرى والأسـيرات الفلسـطينيين، الذيـن يخرجـون مـن السـجن بعـد سـنوات طويلـة، ويجـدوا حبيباتهـن وأحبابهـم فـي انـتظارهم، ليكمُـن فـي هـذا الانــتظار أسـمى وأصـدق معانـي الوفـاء فـي الحُـب.

عـن الحُـب، دونَ الكاتـب المصـري مصطفـى طيبـة مئـةَ رسـالةٍ لحبيبتـه، فـي أثنـاء سـجنه بيـن عامَـيّ ١٩٥٢ إلـى ١٩٦٤، نُشـرت فـي كتابـه أو سـيرته السـجينية المُعــنوَنة بـ **رسـائل سـجين سياسـي إلى حبيبته**، حيث راسـل حبيبتـه، وصَـور لهـا حياتـه، مشـاعره وأفـكاره طيلـة فتـرة سـجنه، مَـدى عُزلتـه عـن العالـم الخارجـي، إذ يقـول: «حبيبتـي، شـهرٌ كامـل منـذ أن جئنـا إلـى ليمـان أبـو زعبـل، ونحـن لا نعـرف شـيئًا عمـا يجـري خـارج الأسـوار، وليـس لنـا أي صلـة بالمسـاجين. السـجان هـو وصلتنـا الوحيـدة بالعالـم الخارجـي، وعبثًـا راحـت كل محاولاتنـا مـع سـجان الصبـاح أو سـجان المسـاء، الذيـن لـم يتغيـرا أبـدًا، فكلاهمـا صامـت، لا يتكلمـا خوفًـا مـن المأمـور».[٣٨] كذلـك فـإن الكاتـب والصحافـي المصري، مصطفـى أميـن، لـم تمنعـه ويـلاتُ العـذاب والسـجن فـي عهـد عبـد الناصـر مـن مراسـلة حبيبتـه والفضفضـة والبـوح معهـا، بـكل مـا يـراه

(٣٨) مصطفـى طيبـة، **رسـائل سـجين سياسـي إلـى حبيــبته**، العربـي للنشـر والتوزيـع، القاهـرة، ١٩٧٨، الجـزء الأول، الرسـالة رقـم ١٢، ص. ٦٢.

ويريد إرساله لها، وقد نشرها بعد خروجه في كتابٍ عَنونه بـ **سنة أولى سجن** والذي صَدر عام ١٩٧٤.(٣٩)

بعد الانتهاء من قراءة هذه الجوابات المُرسلة من الأطراف المتعددة، لا تذهب هذه المشاعر هباءً، بل تُحفظ، يحتفظ بها المُحرِّر في مكانٍ ما، ويُحاول السجين بدَوره إخراج الجوابات المُرسلة له كي تُحفظ هي الأخرى؛ كي يُكون بذلك أرشيفًا من الذاكرة المشاعرية، يكون شاهدًا على قصة هؤلاء الأشخاص، الأسرى والسجناء ومُراسليهم. قصة تُسجَّل، بل وتؤرخ حتى ولو على المستوى الشخصي والروائي بين العائلة، حيث في زمنٍ آخر يمسك الحفيد أوراقًا باهتة، ويُعرِّفها بأنها أوراق عمرها ١٠٠ سنة، كتبها بواسطة جَده الأكبر عندما كان سجينًا.

ربما لم نذكر جوابات السجناء الأساسيين، هذا ليس تقليلًا منهم على الإطلاق، بل لأن السجناء لم يُوثِّقوا حد بحثنا أي رسائل لهم، هذا يرجع إلى أسبابٍ كثيرة، منها عدم استمرارهم في الكتابة والمراسلة بينهم وبين ذويهم، لأسباب منها عدم امتلاك ثقافة مشاعرية لتَأريخ الرسائل، على عكس السجين السياسي، الذي يُحب ويفتخر بتأريخ سجنه وتضحيته من أجل الوطن. كذلك حتى لو كتب السجين الأساسي جوابات، على الأغلب، بعد خروجه لا يحتفظ بها، لأنه ينظر إلى أيام سجنه، بأنها أيام عقاب

(٣٩) صحفي وكاتب مصري، من مواليد القاهرة ٢١ شباط (فبراير) ١٩١٤، ويُعد من أهم الصحفيين المصريين، وقد أصدرَ العديد من المؤلفات الأدبية والصحفية، كما سجل تجربته القاسية في المعتقل السياسي في تسعة كتب وروايات، هي: **سنة أولى وثانية وثالثة ورابعة وخامسة سجن**. للمزيد انظر: مصطفى أمين، **سنة أولى سجن**، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩١، (الطبعة الأولى صدرت عام ١٩٧٤ عن المكتب المصري الحديث).

وأيـام تحمـل وصمـة عـار لـه ولأهلـه، ولا يُحـب الاحتفـاظ بهـا وحَكيهـا لمَــن لا يعرفهـا.

علـى صعيـدٍ آخـر، وهـو صعيـد ممتـاز بالنسـبة لفــقه تأريـخ المشـاعر ودلالتهـا السياسـية والتاريخيـة، نجـد **جوابـات الأسـطى حراجـي القـط وزوجتـه فاطمــة أحمــد عبــد الغفــار**، التــي ألفهــا الشــاعر المصــري الراحـل عبـد الرحمـن الأبنـودي،[٤٠] ونشـرها لأول مـرة عـام ١٩٦٩، وهـي عبـارة عـن مراسـلاتٍ متبادلـة بيـن حراجـي، العامـل الفـلاح الـذي انـتقل إلـى أسـوان للعمـل مـع عشـرات الآلاف فـي بنـاء السـد العالـي، تـاركًا زوجتـه التـي تَسـكن فـي جبلايـة الفـار، القريـة الصغيـرة القاطنـة فـي مدينـة السـويس. وهـو يَحكـي لهـا وتحكـي لـه عـن الاشـتياق لـلأرض، البيــت، الونــس، وعــن العمــال، البنــاء، وســير العمــل، لتكــون تلــك الجوابـات تأريخًـا مـن الأبنـودي لذكريـات المُعانـاة التـي شَـهدها عُمـال بنـاء السـد العالـي وذَووهـم. إذ لا شَـك، فـي أن الجوابـات السـجينة، تلـك الأوراق الباهــتة، يجـب تدوينهـا بشـكل مُسـتقلٍّ ومُنظـم، مـن أجـل أن تخـرج مـن ذاكـرة المشـاعر الفرديـة أو الثنائـية وتتجسـد فـي شـكل أرشـيفٍ مشـاعري لمرحلـةٍ مـا مـن تاريـخ الإنسـانية.

---

(٤٠) للاطـلاع علـى الجوابـات: عبـد الرحمـن الأبنـودي، **جوابـات حراجـى القـط**، أطلـس للنشـر، ط ٦، القاهـرة، ٢٠٠١. أو يمكـن اسـتماعها علـى يوتيـوب أو سـاوند كلاود، علـى قنـاة نوتـة Nota.

الجسد اللا-مُنتَمي

على مرِّ العقود الماضية التي نشأت فيها السجون، لا سيما السنوات الأخيرة التي توسعَ فيها الإنشاء والتأسيس، كما ذكرنا وصلَ عدد السجون التي أُسست وافتُتحت في مصر حتى نيسان (أبريل) من عام ٢٠٢١ إلى ٧٨ سجن، منهم ٣٥ بعد عام ٢٠١١ ـ وسط كل هذا التوسع السجني، يذوب السجينُ داخل الفضاء السجني، بعدما هُندِسَ من قِبل سلطة الثاني على حياةٍ مَرئية بأنماطٍ وممارسات جديدة، والتي تتميز في مَضمونها بالخضوع التام. هذا بالإضافة إلى مَحو كينونة الإنسان/الجسد السجين، والعمل والوصول به إلى ذاتٍ جَامدة مُطوعة مُنحنية أسفل أوامر السلطة من خلال تقنياتها العقابية. هذا بالنسبة للسجين الجنائي والسياسي دون تفرقة، ما يترتب على ذلك صعود أفكار ونفسيات وممارساتٍ متداخلة ومُتمأسسة عند البعض، نحو «تيه الانتماء إلى الوطن». الوطن هنا، ما يعني الأرض، وتداخلات اجتماعية وسُلطوية تحت معنى الوطن، مثل إنجازات الحكومة بالمشاريع القومية، وفوز أي مصري بأي إنجاز تعليمي، علمي، رياضي، فَني، وغير ذلك. كذلك، تيه الانتماء يعني، عدم الشعور بالسعادة ناحية أيِّ إنجازٍ له، أو الحزن في حالة الخُسران، وهذا ما يأتي ضمن دوافع عديدة، تتفق وتختلف هنا بين السجين السياسي والجنائي، ضمن عملية تفكيكٍ مُمنهجة أتت نتاج مَرئيات السجن.

بمرور الزمن، وبالنسبة للسجين الجنائي، والتي ترسخت صورته في مِخيال الشعب المصري، على أنه شخص يتمتع بالبلطجة والاستجبار على الآخَر، وحش لا يراعي حُرمات ولا خصوصيات ولا حقوق الآخرين،

يقتـل، يغتصـب، يسـرق ويخـون ويكـذب، إلـى آخـره. بالإضافـة إلـى أنـه دخـل السـجن، الفضـاء الـذي يخـاف منـه النـاس، وينبـذون مَـن دخلـه مـن قبـل، لأنـه أصبـح كمـا هـو مُتعـارف عليـه فـي الاجتماعـات المصرية (سَوابِـق، رَدّ سـجون)، أي دخـل منظومـةً لا يدخلهـا سـوى المُجرميـن، أو علـى الأقـل إن كان مظلومًـا، احتـكَّ أثنـاء وجـوده فـي السـجن، بهـؤلاء المُجرميـن. هـذا المخيـال، سـاعدت فـي ترسـيخه أدواتٌ ثقافيـة كثيـرة، مثـل التعليـم والفـن بأنواعـه السـينمائية والدراميـة والمسـرحية، وهـذا لمـا تُجسِّـده فـي مُعظـم شاشـاتها مـن تجريـدٍ كامـلٍ لإنسـانية وصـورة السـجين الجنائـي بإظهـاره كوحـشٍ لا يعـرف الإنسـانية؛ كمـا ذكرنـا حـول التــنميطات السـينمائية للسـجن والسـجين؛ وغيـر ذلك مـن أدوات ثقافية تُسـاهم فـي ذات الغـرض مثـل لقـاءات البرامـج التلفزيونـية والحـوداث الإخباريـة.[٤١]

مِخيـال النبـذ المجتمعـي، بالتـوازي مـع تقنيـات السـلطة السـجنية النابـذة أيضًـا لوجـوده الإنسـاني، تجعلـه يسـعى كلَّ السـعي مـن أجـل نشـل ذاتـه مـن الاسـتبعاد الإنسـاني/الاجتماعي Human Exclusion،[٤٢] الــذي حــلَّ بــه. ويعنــي الاســتبعاد الاجتماعــي كمصطلــح، بوصــف المؤرخــة الفرنســية صوفــي بســيس، أنــه: «الحرمــان مــن المــوارد والحقــوق، بالإضافــة إلــى مجموعــةٍ مــن العوامــل التــي تَحــول دون

(٤١) ساعدت مُعظـم الأعمـال الفنيـة منـذ بدئهـا بشـكل كبيـر، فـي وجـود هـذا المخيـال النابـذ للسـجناء، بـل وانــتشالهم مـن ذواتهـم الإنسـانية وتطويعهـم ضمـن فئـات لاأخلاقيـة يخـاف ويبتعـد عنهـا المُجتمـع، مـا يسـتوجب علـى السـلطة عزلهـا أو الخـلاص منهـا.

(٤٢) هيلـز جـون، جوليـان لوغـران، دافيـد بياشـو، **الاسـتبعاد الاجتماعـي: محاولـة للفهـم**، ترجمـة وتقديـم محمـد الجوهـري، المجلـس الوطنـي للثقافـة والفنـون والآداب، عالـم المعرفـة، الكويـت، ص. ١٧٥. للمزيـد عـن المصطلـح وأهـم مُعرِّفيـه، انظـر: هـدى أحمـد الديـب، محمـود عبـد العليـم، **الاسـتبعاد الاجتماعـي ومخاطـره علـى المجتمـع**، مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة، بيـروت.

مشـاركة الفـرد والجماعـة فـي الأنشـطة المُجتمعيـة، وعـدم القـدرة علـى التفاعـل والانصهـار فـي بوتقـة المُجتمـع الأوحـد الـذي يسـعُ الـكل دون اسـتثناء». مـن بعـد ذلـك، ينتهـج السـجين ممارسـاتٍ عـدة مـن أجـل الانتمـاء إلـى شـيء مـا، تنتمـي إليـه السـلطة والمجتمـع أيضًـا، لكـي ينـال الاعتـراف بوجـوده، فيمـا يُعـرف بــ النضـال مـن أجـل الاعتـراف The Struggle for Recognition [٤٣] كمـا يُسـمِّيه الاجتماعـي الألمانـي أكسـل هونيـث.

لا يجـد السـجينُ أي شـيء، ينــتمي إليـه ويُحقِّـق لـه هـذا الاعتـراف سـوى الوطـن، هـذا لأن أدواتـه المُمارسـاتية محـدودة بسـبب الفضـاء السـجني المُحاصـر لهـا، فـلا يتبقـى لـه سـوى التجمـع أمـام تلفـاز أو راديـو السـجن، لـتَشجيع الفريـق الوطنـي لكـرة القـدم فـي بطولـةٍ مـا، أو يفـرح مـن أجـل إنجـازٍ قومـي أحدثَـته البـلاد، مثـل حفـر أو توسـيع قنـاة السـويس، أو القيـام بضربـةٍ مهاجمـة أو دفاعيـة علـى أو مِـن عـدوٍّ مـا، أو قـرارٍ رئاسـي يخـص عامـة المواطنيـن داخـل الوطـن. مـع الوقـت، قـد يمـلُّ السـجين مـن هـذه الممارسـات، إذا شَـعر أنـه لا فائـدة منهـا، وأنـه قُـدر لـه النبـذ والاسـتبعاد وعـدم نيـل الاعتـراف والمكانـة لذاتـه وسـط الـذوات والكيانـات الأُخـرى، وأن الفلكـةَ العقابية التـي يـدور فيهـا لا مَخـرج منهـا سـوى بخروجـه مـن السـجن. وربمـا ينعكـس ذلـك أو يكـون مؤشـرًا علـى بدايـة كُرهـه للوطـن، بعدمـا كـرِهَ ذاتـه المنبـوذة، مـا يجلـب نهايـةً التعاسـة الدائمـة، ويـؤدي فـي بعـض الحـالات إلـى الانتحـار، فيمـا يُعـرِّف الاجتماعـي الفرنسـي إميـل

(٤٣) للمزيـد حـول المرئـي والـلا مرئـي، انظـر: أكسـل هونيـث، **الصـراع مـن أجـل الاعتـراف: القواعـد الأخلاقيـة للمَـآزم الاجتماعيـة**، ترجمـة جـورج كتـورة، المكتبـة الشـرقية، بيـروت، ٢٠١٥.

دوركايـم هـذا الانــتحار بــ «الانتحـار القـدري» Fatalistic Suicide [٤٤] الـذي يُخلـص الإنسـان مـن حياتـه، بسـبب عـدم قدرتـه علـى تخفيـف أدوات القمـع التـي وقعـتْ عليـه.

أمـا السـجين السياسـي، فإنـه يتفـق ويختلـف، فـي عـدة دوافـع مـع قرينـه الجنائـي، يتفـق معـه فـي أنـه أُخضِـع إلـى ممارسـات السـلطة من أجـل تدجيـن السـيطرة والإخضـاع وهندسـة الجسـد ضمـن حيـاةٍ مَرئـية، إذ إنّ تحطيـمَ الـذات الإنسـانية وتفكيـك وبنـاء ذاتٍ أُخـرى قـد حـدث معـه أيضًـا. ويختلـف فـي أسـباب سـجنه مـن الأسـاس، إذ قـررت السـلطةُ عـزل السـجين السياسـي، لأنـه تبنـى فكـرةً أو ممارسـةً تُعارضهـا، لذلـك قـررتِ استــثناءه مـن الحيـاة الاجتماعيـة وعزلـه فـي سـجن، لاسـتكمال إدارة نظـام الحكـم دون مُعارضـةٍ فكريـة أو حركيـة. هـذه الفكـرة، ربمـا تكـون مـن الأسـاس قائمـةً علـى حـب الوطـن، بـل والسـعي مـن أجـل إصـلاح مسـاره نظـام الحكـم الخـاص بالدولـة. فكـرة أخلاقيـة، تتضمـن مطالبـاتٍ إنسـانية وحقوقيـة وسياسـية مَشـروعة وواجبـة، الحـق فـي الانتخـاب، فـي حريـة التعبيـر، فـي أن يعيـشَ الإنسـان بـلا تعذيـب وبـلا فقـر. هـذه الأفـكار، لا تتقبلهـا السـلطة، وتتخـذ مـن أدواتهـا القمعيـة طريقًـا لمَحـو هـذا الإصـلاح والأفـكار ومُتبنـوه.

وسـط هـذا التخبـط، يقـف السـجينُ السياسـي بيـن جَدليـة الانتمـاء، يفصـل بيـن الوطـن ونظـام الحكـم أم يخلـط بينهُمـا. الوطـن الـذي أحـبَّ أن يُصلحـه وناضـل مـن أجـل ذلـك، بـل ودفـع ضريبـةَ هـذا النضـال مـن حُريتـه وعمـره، ودخـل حيـاةً عقابــية بسـببه. أم يبـدأ فـي كرهـه،

---

(٤٤) إميـل دوركايـم، **الانتحـار**، ترجمـة حسـن عـودة، منشـورات الهيئـة العامـة السـورية للكتاب، دمشــق، ٢٠١١، ص. ١٧٠-٢٦٥-٣٠١.

بدافـع أنـه تسـببَ فـي مأسـاته الحياتيـة الواقعـة عليـه فـي حاضـره. هـذا الانقسـام والتخبـط، قـد رآه الكثيـرون بيـن السـجناء السياسـيين. علـى سـبيل المثـال، عنـد لعـب الفريـق الوطنـي فـي بطولـةٍ مـا، خاصـةً بطولـتَي كأس الأمـم الإفريقيـة وكأس العالـم، إذ ينقسـم السياسـيون إلـى جبهتيـن: جبهـة تُشـجِّع المنتخـب علـى أصـوات الراديـو، وتتمنـى لـه الفـوز، وجبهـة أُخـرى تتمنـى لـه الخسـارة. ويتواجـد أيضًـا، الكثيـرون الذيـن لا يهتمـون مـن الأسـاس لا بكـرة القـدم ولا بالنتائـج، وتقـوم السـجالات والنقاشـات التـي تصـل إلـى المُشـاجرات والجـدالات بينهـم بسـبب ذلـك.

السياسـيون الذيـن يُشجِّـعون ويتمنـون الفـوز للمنتخـب، فَضلـوا الفصـلَ بيـن الوطـن ونظـام الحكـم، بـل ويعـتبرون الفـوز إنجـازًا وطنـيًّا خاصًّـا بلعبـةٍ رياضيـة، وينسـب الفـوز نهايـة إلـى مصـر الوطـن، مصـر الاسـم والمـكان والزمـان والوطـن الـذي تربـوا فيـه وانـتموا إليـه، ليسـت مصـر السـلطة. أمـا الآخريـن، معهـم يكـون الأمـر مختلفًـا، وذلـك بسـبب بضعة دوافـع فكريـة، واقعيـة، ونفسـية، مثـل ـ بعـض ـ السياسـيين الإسـلاميين، الذيـن تَـنـتمي أفكارهـم إلـى أيديولوجيـاتٍ دينيـة متداخلـة ومتباينـة، تقـول إنّ انـتماءهم الأول للديـن، ومـن بعـده يأتـي الوطـن أو لا يأتـي. أيضًـا فـي الواقـع، اسـتغلال النظـام السياسـي الحاكـم أي فـوزٍ فَـني أو رياضـي ـ وهـذا يحـدث بنسـب متفاوتـة فـي كل أنظمـة العالـم وليـس مُقـتصرا علـى مصـر فقـط ـ بـل ونسـبه لنفسـه كإنجـازٍ سياسـي كمـا هـو سـائد مؤخـرًا، يجعـل مـن السـجناء السياسـيين غاضبيـن إثـر ذلـك، ولا يتمنـون تحقيـق هـذا الإنجـاز، لأنهـم يَحلمـون بسـقوط النظـام الحاكـم، فكيـف يسـقط وهـو ينسـبُ لنفسـه أي إنجـازٍ أيًّـا كان مجالـه، وبذلـك يُبرهـن علـى نجاحـه واسـتقراره أمـام المجتمـع والعالـم. وقـد بَـرع

النظام السياسي في مصر في عمل ذلك، إذ إنّ مؤتمراته السياسية لا تخلو أبدًا من وجود النخبة الفنية والرياضية، بل وتُترجم سردياته السياسية والتأريخية للماضي، في شكلٍ سينمائي ودرامي بواسطة النخبة الفنية، في تحولٍ دائم ومستمر نحو ذواتٍ فنية سياسية، لكنها ذوات مُطيعة للسلطة وسَردياتها.[٤٥]

أما على المستوى النفسي، فيشعر السجينُ حينها أن تضحيته ذهبت هباءً، أي أن الاجتماعات الخارجية عن عالم السجن لا تشعر بمُعاناته، بل ولا يُهمها أن تعرفَ عن هذه المعاناة، وجُل حياتها اختصرت على الاستهلاك والتسلّع بعيدًا عن الأفكار والسياسة والإصلاح؛ إذ نحن نعيش الآن في عصر ما بعد السرديات الصلبة، حيث أصبحت مناداة القومية والإسلام السياسي واليسار والليبرالية، وكافة المشروعات الفكرية والحزبية في تفكيكٍ وخفوتٍ تام، من حيث الفكر والتنظيم والممارسة. هذا الانهيار، نظَّرَ له بعضُ الباحثين، بشأن مكانة السرديات الكبرى في عصر ما بعد الحداثة، حيث لا مكان لها عند الاجتماعي الفرنسي فرانسوا ليوتار، في كتابه **الوضع ما بعد الحداثي: تقرير عن المعرفة** الصادر عام ١٩٧٩،[٤٦] وهو أول كتابٍ يصف عصر ما بعد الحداثة، الذي امتاز ـ حسب

(٤٥) دائما ما يحضر الفنانون المؤتمرات السياسية، خاصة ما يسمى بمؤتمرات الشباب، ولا يقتصر حضورهم على التفرج فقط، بل يشاركون بكلماتٍ وأغنيات افتتاحية، لإحياء العرس السياسي القائم. أيضا بُثَّت عدةُ أعمال درامية وسينمائية تتحدث بسردية السلطة عن أحداثٍ في الماضي القريب، تُجسد نزاع السلطة مع فصيل سياسي، هو منبوذ الآن من قِبلها. ناهيك عن تصريحات الفنانين بشكلٍ دائم نحو حث المصريين على مساندة السلطة، بل وشتمهم وتحريضهم على أي أحدٍ يحاول معارضة النظام.

(٤٦) جان فرانسوا ليوتار، **الوضع ما بعد الحداثي: تقرير عن المعرفة**، ترجمة أحمد حسان، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٤.

فرانسـوا_ بسَـحب شـرعية هـذه السـرديات الكُبـرى، بـل وشـكك فيهـا بمـا أنهـا انهـارت، وصَعـدت مكانهـا سـردياتٌ أخـرى أقـل صلابـةً وأكثـر تفكيـكًا وسـيولة، تتمثـل فـي مشـاعر وأفـكار اللـذة والاسـتهلاك، والتـي تُنظَّـم وتُـدار عبـر منظومـة النيوليبرالية الضخمـة فـي عالمنـا اليـوم.(٤٧)

هـذا التطـنِيش المُجتمعـي، يُكـوِّن نفسـيةً بائسـة لـدى السـجين، وربمـا فـي بعـض الأحاييـن، تُكـوِّن نفسـيةً حاقـدة علـى هـذه الاجتماعـات، بـل ونادمـة علـى أنهـا ضحـت مـن أجـل إصـلاح شـيءٍ مـا، مـن أجـل اجتماعـات لا يُهمها هـذه التضحيـة، مـا يأخـذه فـي مشـواره نحـو كُـره الوطـن، فضـلًا عـن نبـذ اجتماعاتـه المتباينـة. وأحيانًـا مـع شـدة الحيـاة البائسـة التـي يعيشـها، تتجلـى لـه أفـكارٌ عدائية تجـاه النظـام والمجتمع، ربمـا تتبلـور فـي أغلفـة أفـكارٍ دينيـة تكفيريـة، أو ممارسـات راديكاليـة، كمـا حـدث مـع الكثيريـن، إثـر تحـولات، تُسـاعدها اسـتقطابات أفـراد تنظيـم الـدول الإسـلامية، وغيـره مـن التنظيمـات التـي تنتهـج العنـف. ومـن بعـد ذلـك، تُـترجَم هـذه الأفـكار إلـى ممارسـاتٍ عقديـة أو حركية، وذلـك يتجلَّـى بعـد خـروج السـجين إلـى المجتمـع مـرةً أخـرى. هـذا أيضًـا، سـاعدَه ضعـف الإخـوان المسـلمين فـي الحجـج والمواجهـات الفكريـة والعقديـة، فـي جدالهـم المنهجـي والفكـري حـول اسـتقطاب وإقنـاع الشـباب.(٤٨)

---

(٤٧) أمانـي أبـو رحمـة، «نهايـة السـرديات الكُبـرى»، مدونـة شـخصية. للمزيـد حـول انهيـار وتفـكك السـرديات، انظـر: معـن الطائـي، **السـرديات المضـادة: بحـث فـي طبيعـة التحـولات الثقافيـة**، المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنشـر، لبنـان، ٢٠١٤.

(٤٨) عبـد الرحمـن عيـاش، «تنظيـمٌ قـوي وأيديولوجيـا ضعيفـة: مسـارات الإخـوان فـي السـجون المصريـة بعـد ٣٠ يونيـو»، مبـادرة الإصـلاح العربـي، نشـر فـي نيسـان (أبريـل) ٢٠١٩. للمزيـد: Human Rights First, «Like a Fire in a Forest: ISIS Recruitment in Egypt's Prisons» February 25, 2019.

كذلـك عنـد النظـر إلـى الفضـاء الخارجـي، نجـد نمـوًّا فـي مشـاعر كـره الوطـن لـدى فئـاتٍ كثيـرة منبـوذة، أجسـاد مُهرولـة مَقهـورة، مُعذبـة فـي الأرض The Wretched of the Earth، حـد تعبيـر الفرنسـي فرانـز فانـون،[٤٩] بسـبب فَقرهـا، وعـدم انتمائهـا إلـى الطبقـات العليـا مـن السـلطة وذَويهـا، وعـدم وجودهـا ضمـن تَمظهـرات النيوليبراليـة، المَهووسـة بالاسـتهلاك، فـي معماريـات الحداثـة، الفنـادق، المـولات، المـدن الجديـدة، الشـواطئ، والقـرى السـياحية، وغيـر ذلـك من الشـكليات الواقعيـة التي تحـدث، تاركةً رويـدًا رويـدًا أثـرا كبيـرا لـدى تلـك الفئـة غيـر القـادرة علـى اللحـاق بركب الاسـتهلاك المُتدفـق عليهـم، مـا يسـبب لهـم عقـدةَ نقـص. وتلك هـي أولى خطـوات الإخضـاع التـي يُلبسـها هـذا العنـف الرمـزي القائـم علـى الأرواح المَنبـوذة.[٥٠] تلـك الأجسـادُ تفقـد الثقـة فـي كينونـتها الأصوليـة من حيث الانـتماءات الثقافيـة والاجتماعيـة، طالمـا تلـك الأصوليـة لا تُلـوِّن الشـكلَ الخارجـي للجسـد بمواصفـاتٍ تناسـب فضـاءات الاسـتهلاك. الثقافـة لا تُعطـي جسـدًا فقيـرًا قبـولًا واحترامـا فـي قاعـة مناسـباتٍ أو شـاطيء خاص أو مـول فخـمٍ، وهـذا مـا يُسـبِّب اكتـئابًا نفسـيًّا وجوديًّـا. يُفـرق الأكاديمي اللبنانـي مصطفـى حجـازي بينـه وبيـن الاكتئـاب الداخلـي، اكتئـاب داخلي المصـدر Endogene Depression الناتـج عـن خلـلٍ نفسـي مُعيـن، أمـا الوجـودي فقـد نـتجَ عـن هزيمـةٍ نفسـية بشـأن سياسـات الحيـاة نفسـها التـي نبـذت واحتقـرت وهمشـت الأجسـاد الفقيـرة، وهـذا بالطبـع لا يمنع تداخـل الأعراض بشـأن الاكتـئابَـين.[٥١]

---

(٤٩) فرانـز فانـون، **معذبـو الأرض**، ترجمـة سـامي الدروبـي و جمـال الأتاسـي، مـدارات للأبحـاث والنشـر، القاهـرة، ٢٠١٤.

(٥٠) مصطفـى حجـازي، **التخلـف الاجتماعـي: مدخـل إلى سـيكولوجية الإنسـان المقهـور**، المركز الثقافـي العربـي، ط٩، المغـرب، ٢٠٠٥، ص. ٤٥.

(٥١) مرجع سابق، مصطفى حجازي، **الإنسان المهدور**، ص. ٢٨٦.

فـي تمظهـراتٍ رسـمية كثيـرة، تجلَّـى هـذا النبـذ. تمظهـرات ترعاهـا الدولـة مثـل المؤتمـرات المنعقـدة دائمًـا، أو اسـتقبال وفـودٍ دبلوماسـية خارجيـة، حيـث فـي تلـك المناسـبات وغيرهـا، تقوم السـلطاتُ بـتَمشيط الأجسـاد المنبـوذة مـن الفئـات الشـعبية، ومحاولـة مَحوهـا مـن الصـورة، وكأنهـا لـم تُخلَـق مـن الأسـاس، هـي ومـا يُحيـط بهـا من عُمـرانٍ وشـوارع تنتمـي إلـى النبـذ، فيتـم الاسـتقبال والعقـد والاحتفـال فـي سـاحاتٍ مُجهـزةٍ بأجسـاد راقيـة غيـر منبـوذة. وهـذا نـوعٌ سـلطوي مـن النبـذ للجسـد المَقهـور، فضـلا عـن النبـذ الـذي يتـم للجسـد السياسـي/الفكري الـذي تسـتثنيه السـلطة مـن الحيـاة ويتـم إخفـاؤه أو عزلـه بعيـدًا عـن العيـن بشـكلٍ دائـم.[٥٢] وهـذا مـا يسـبب أيضًـا، كرهًـا ونبـذًا للوطـن، مـن الأجسـاد المَقهـورة ـ غيـر السـجنية ـ بمفهـوم الحريـة المُجـرَّد، وهـذا لأن النخبـةَ السـلطوية الحاكمـة حصرَتـه فـي تمظهـراتٍ بعينهـا لا يُمارسـها إلا ذوي السـلطة والمـال فقـط.

قـد ذكرنـا هنـا الأجسـادَ المنبـوذة خـارج المنظومـة السـجنية، مـن بـاب المقارنـة والاشـتباك والنظـر إلـى هـؤلاء وهـؤلاء بتمعـنٍ أكثـر، إذ هـي مقارنـة بائسـة، بيـن الأجسـاد المنبـوذة داخـل الفضـاء السـجني والأجسـاد المنبـوذة خـارج هـذا الفضـاء. لكـن هـذه الأجسـاد تنبذهـا السـلطة فـي الحالتيـن، السـلطة السياسـية فـي الخـارج، والسـجنية فـي الداخـل؛ كذلـك عنـد ذكـر تَمشـيط الأجسـاد المنبـوذة وإخفائهـا مـن قِبل السـلطة السياسـية، عنـد الزيـارات الدبلوماسـية والمراسـم الشـعبية وغير ذلـك. أيضًـا، داخـل المؤسسـة السـجنية، عنـد زيـارات وفـودٍ رسـمية، حقوقيـة علـى الأغلـب، هـذه الأجسـاد لا تُخفـى، مـن المُسـتحيل

---

(٥٢) راجع ص. ١٥ هامش ٨ حول حالة الاستثناء.

إخفاؤهـا، إذ وجودهـا هـو سـبب الزيـارة مـن الأسـاس، لكـن مـن المُمكن تلميعهـا، وإظهارهـا للوافديـن علـى أفضـل صـورة، أجسـاد مُختلفـة تـأكل وتلبـس وتعيـش جيـدًا، ومـن ثـمَّ تُرجِعهـا السـلطة مـرةً أُخـرى إلـى مـا تـم هندسـتها عليـه، أجسـاد متشـابهة مُهرولـة تـأكل بالقــطَّارة.

الجسـد الأَعـزل

نسـمعُ مـن حيـنٍ لآخـر محـاولات هـروب، سـواء كانـت ناجحـةً أو فاشـلة لبضعـة سـجناء. هـذه المحـاولاتُ وإن كانـت غيـر قانونيـة، إلا أنهـا تُمثِّـل فلسفـيًّا نوعًـا مـن المقاومـة المُجرّمـة بنظـر القانـون، لكنهـا مجـرد اعتـراضٍ ضمنـي علـى اسـتكمال الحيـاة بتلـك الطريقـة. مقاومـةٌ أخـرى، وهـي حـقٌّ مَشـروع، تتمثـل فـي الإضـراب عـن الطعـام والشـراب، أو الزيـارة، وكثيـرًا مـا يسـتخدم السـجناء السياسـيون هـذا الحـق، حيـث يُحاولـون عـن طريـق الإضرابـات بأنواعها، مقاومة السـلطة، أو حَـثها على تحقيـق مطالـب لهـم. ربمـا تتمثـل فـي الضغـط السياسـي الخارجـي، للإفـراج عنهـم، أو تحسـين ظـروف معيشـتهم داخـل السـجن. وتختلـف ردة فعـلِ السـلطة السـجنية تجاههـم حسـب الظـرف السياسـي والأمنـي الراهـن. وهنـا نُحـاول التعمـقَ فـي المقاومـة السجنـية، ذاكريـن نموذجًا سجينــيًّا مُقاومًــا اسـمه جـورج جاكسـون، سجنَــته سـلطات الولايـات المُتحـدة الأمريكيـة، خـلال سـتينات وسـبعينات القـرن الماضـي؛ ومـن ثـمَّ نضـع طرحًـا تفكيكـيًّا تتخـذه السـلطة لمُجابهـة أي مُقاومةٍ سـجينية، عبـر التعمـق فـي أدوات وممارسـات ومَرئـيات الفضـاء السـجني.

لـم يضـع التاريـخ جـورج جاكسـون فـي مكانـه الصحيـح، كمُناضـلٍ ثـوري، قضـى ١١ عامًـا مـن عمـره القصيـر فـي السـجون الأمريكيـة، ظـلَّ خلالهـا يُدافـع عـن حقـوق الأقليـات والمضطهديـن فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وفـي كل بقعةٍ في الأرض يَطـؤها الاحتـلال والأدوات الاسـتبدادية التـي تَليـه ـ عـن طريـق خططه للإضـراب، وحشـده وتوحيده للسـجناء، ومقالاتـه وتنظيراتـه وأفـكاره الثورية. صُنِّـفَ جورج جاكسـون، المولـود فـي ٢٣ سـبتمبر (أيلـول) عـام ١٩٤١ فـي ولايـة شـيكاغو، فـي

بداية حياته ضمن اجتماعات البروليتاريا الرثَّة،[٥٣] حيث كان يعيش حياةً بائسة، وسط مئات الآلاف غيره من البؤساء أصحاب البشرة السوداء المُحاصرين بحدود إمبرياليةٍ بيضاء، لم يكن مثقفًا ثوريًّا ولا عاملًا في آلة إنتاج رأسمالية كبيرة.

دخلَ جاكسون السجن عندما ناهز الـ ١٨ عامًا، بتهمة سرقة ٧٠ دولارًا، ليُحكم عليه بالسجن لمدة عامٍ واحد، لكنه لم يخرج بعد انقضاء مُدة سجنه. ثقفَ جاكسون نفسه بنفسه، في السجن بدأ يتعرف على الكتب والكُتاب، على الأفكار والتنظيرات والممارسات والتنظيمات، على الدولة الأميركيّة. السجون أو المنظومة العقابية بمفهومها الأوسع، كمؤسساتٍ ضمن مؤسسات الدولة، منظومة تُعطي مثالًا واضحًا وصريحًا، لمعرفة كيف تُدار الدولة الحديثة.

كل يومٍ أمضاه جاكسون في السجن، اكتسبَ فيه ممارسةً جديدة، شعبية أكبر، فكرةً وكتابًا أعمق. انضمَّ جاكسون إلى حركة الفهود السود Black Panthers، وهي حركة تأسست في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٦، بعد مقتل المناضل الأمريكي الأسود مالك الشباز (مالكوم إكس قبل اعتناقه الإسلام) من أجل الدفاع عن حقوق أصحاب البشرة السوداء في الولايات المتحدة الأمريكية.

---

(٥٣) البروليتاري الرثّ: هو الشخص الذي لا يملك أي دخل خاص به، كالراتب الشهرى مثلًا، أو يحصل على مساعدةٍ اجتماعية من الدولة بأي شكل من الأشكال. وكما عرفها فلاديمير إيليتش لينين فإنها تشمل الفئات المنفصلة أو الخارجة عن طبقتها وفي تناقض مع المجتمع كالمعدمين والمجرمين. هذا وحصل مصطلح البروليتاريا الرثة على انتشار واسع في ظروف تطور الرأسمالية التي تُجندهم من مختلف الطبقات، حسب التعبير اللينيني. وهي تتميز بعدم قدرتها على التنظيم السياسي والصراع الطبقي ولكنها تميل إلى المغامرة من أجل الإستيلاء على السلطة بالتحالف مع فئات البرجوازية الصغيرة. يُنسب المصطلح إلى كلٍّ من كارل ماركس وفريدريك إنجلز. للمزيد انظر كتابهما: **الأيديولوجية الألمانية**، دار الفارابي، لبنان، ٢٠١٥.

ارتبطت نضالاتُ الحركة أيضًا بالدفاع والتضامن مع قضايا الأقليات المضطهدين والقابعين تحت احتلال النار والحديد من إمبرياليات أخرى حول العالم من أقصاه إلى أدناه. اكتسب جورج ثقافةً واسعة، معرفةً جَمة حول التاريخ والحرب والاستبداد والممارسات الثورية، هذا بفضل عشرات الكتب المُهربة إليه التي عثروا عليها في زنزانته، تلك الكتب احتوتْ أفكارَ ماركس وتروتسكي وماو، وغيرهم من مُنظري ومُمارسي الثورة والتحرر. كذلك، وجدوا قصيدةَ «عدو الشمس» للشاعر والمناضل الفلسطيني سميح القاسم.

نظَّر جاكسون حول الإمبريالية، وصفَها بالوحش الذي يقف أمام كل المُضطهدين في الأرض، ويجب التخلص منه. الولايات المتحدة الأمريكية مثالًا على هذا الوحش، المُساعد والداعم الأول للاحتلال الصهيوني لأرض وشعب فلسطين. ارتبط جورج وحركة الفهود السود بالقضية الفلسطينية، حيث سمحت المجلة الصادرة عن الحركة لأعضاء منظمة التحرير الفلسطينية بالكتابة في الدورية الصادرة عنها، لكي يُحدِّثوا العالم عن قضيتهم عبر عشرات آلاف النسخ الموزعة حول العالم، فضلًا عن إصدار بياناتٍ للحركة، كما في بيان عام ١٩٧٠، والذي شَددوا فيه على دعمهم للشعب الفلسطيني لتحرير أرضه كاملةً من العدوان والاحتلال الصهيوني.

ترجمَ جاكسون الأفكار والنظريات التي جُمعت في عقله إلى عشرات المقالات التي كان يكتبها ويُهرِّبها للخارج لتُنشر في الدوريات الصادرة عن الحركة، وبسببها تم تحشيد عشرات الآلاف من المُهمَّشين السود في الولايات المتحدة حول الحركة، ليزيد زخمها وقوتها في مُطالبتها بحقوقها كاملةً كمواطنين لا حيوانات

أو درجـاتٍ أقـل مـن البشـرية البيضـاء. كمـا نُشِـرَ لجاكسـون فيمـا بعـد كتابيـن، **رسـائل السـجن** The Prison Letter، **ودم فـي عينـي** Blood in my Eye.[٥٤]

أحدثـت رسـائل وأفـكار وممارسـات جاكسـون، قلقًـا لـدى الإدارة البيضاء مـن حـدوث تمـرد واشـتعال غضـب ملاييـن مـن أصحـاب البشـرة السـوداء تجـاه سياسـاتهم، إذ يقـول جاكسـون فـي إحـدى رسـائله بشـأن عـدم احتقـار أو اسـتبعاد البروليتاريـا الرثـة، بـل والعمـل علـى ضَمهـم واحتوائهـم ضمـن الصفـوف الثوريـة المنظمـة: «فـي وقـتٍ مُبكـرٍ مـن تاريـخ التصنيـع، صـاغ العمـالُ شـعارَ الحـق فـي العمـل. لا تـزال حشـودٌ مـن السـود فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، إلـى يومنـا هـذا، محرومـةً مـن هـذا الحـقِّ الأساسـي. هـم يَعيشـون كعمـالٍ عرضييـن، وآخـر مـن يُوظَّفـون وأول مَـن يُفصَلـون. لا يجـوز لنـا أن نسـتبعد الخـطَّ الفاصـل بيـن العاطليـن عـن العمـل واللومبنبروليتريين مـن أجـل تنظيمهـم بيـن الصفـوف الثوريـة».

لـم يغفـل جاكسـون، مـا بيـن دمـج وشَـبكِ نضـال السـود فـي كلِّ دولـة تُمـارس فصـلًا عنصريًّـا وبيـن نضـال شـعوب العالـم الثالـث، حيـن تحـدثَ فـي كتابـه **دم فـي عيـني** Blood in my Eye عـن إمكانيـتهما الاثنيـن فـي محاربـة عـدوٍّ واحـد، متمثـل فـي السـادة الرأسـماليين الذيـن يُديـرون أنمـاط الإنـتـاج وسياسـات الـدول والحـروب والاحتـلال والأسـر والتعذيـب والقتـل، مـن أجـل مصالحهـم علـى حسـاب الأغلبيـة

(٥٤) George Jackson and Jean Genet (Introduction), «Soledad Brother: The Prison Letters of George Jackson», Lawrence Hill Books, 1994; George Jackson, «Blood in My Eye», Black Classic Press, 1996.

الفقيـرة مـن الشـعوب الفقيـرة والمُضطهـدة. أيضًـا، حـاولَ التطـرق إلـى تفكيـك مُمارسـات الاسـتبداد بحـقِّ السـجناء داخـل السـجون الأمريكيـة، المؤسسـات العقابيـة فـي الـدول الحديثـة التـي تسـتخدم ممارسـاتها المُهينـة والمُنتهكـة لحقـوق السـجناء، بـل وتُعيـد إنتاج وهندسـة أجسـاد سـجنائها لـتُحوِّلهم إلـى أرقـامٍ بـلا اسـم أو ذات أو كينونـةٍ لهـا حقوقهـا واحتياجاتهـا.

لـم يكـن جاكسـون مُنظـرًا أو مُمارسًـا لأفـكارٍ إصلاحيـة، كان مؤمنًـا بالعنـف المشـروع والحـرب تجـاه الإمبرياليـة علـى أنهمـا فعـلٌ أساسـيٌّ للتحريـر، ليـس لهـم فقـط، بـل لـكلِّ البشـر بتبايـن ألوانهـم وأعراقهـم، الفاقديـن لكرامتهـم وحريتهـم وحقوقهـم فـي كلِّ العالـم، فـي كل مـكانٍ وفـي كل وقـتٍ، مُتخـذًا ومُقلـدًا للنفسـاني والاجتماعـي الفرنسـي فرانـز فانـون (١٩٥٢ـ١٩٦١)، حـول النظريـة والممارسـة بشـأن العنـف وإمكانيـات المقاومـة لـدى الشـعوب ضـد المُسـتعمِر، لمـا رآه الثانـي بعَيـنه وعايشـه مـن ممارسـات الفرنسـيين المُحتليـن بحـق شـعب الجزائـر وأرضهـا.[٥٥]

فـي شـباط (فبرايـر) مـن عـام ١٩٧٠، نظـمَ سـجناءُ سـجن سـان كوينتيـن احتجاجـاتٍ سِـلمية للمطالبـة بتحسـين ظـروف الاحتجـاز، وتحسـين ظـروف المعيشـة، والحـد مـن العمـل الإلزامـي والمعاملـة المهينـة المعتمـدة علـى الضـرب والتعذيـب والتأديـب. انـتقلت بعـد ذلـك تلـك الاحتجاجـات إلـى سـجونٍ أمريكيـة أُخـرى، لتبـدأ الإدارات الأمنيـة القابعـة داخـل السـجون وخارجهـا فـي قمـع تلـك الاحتجاجـات ومحاولـة

(٥٥) فرانز فانون، **معذبو الأرض**، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ٢٠١٤.

إخماد نيران غضبها، ورجوع السجناء مرةً أخرى إلى حظائر الطاعة والخضوع. عطفًا على طريقة إدارة المؤسسات العقابية لمعيشة سجنائها، إذ هي تُدرك استحالة حدوث حالة مقاومةٍ جماعية من قِبل السجناء ضد نمط إدراتهم، لذلك أحدثَ جورج نجاحًا كبيرًا من خلال تنظيمه لحالة مقاومةٍ جماعية داخل السجن، بل وعمل على توحيد السجناء ومعرفة حقوقهم، بدلًا من استقواء بعضهم على بعض، وتسليط القوي على الضعيف الذي يتم غالبًا تحت عين إدارة السجن.[٥٦]

تخلصتْ إدارةُ سجن سان كوينتين من زعيم الاحتجاجات بالداخل ومُشعلها بالخارج، عن طريق تلفيق تهمة له ولرفيقَيه، وهما فليتا درمغو وجون كلتشيت وهي قتل حارسٍ داخل السجن، وتم الحكم عليهما بالموت، وبالفعل نفذت السلطة حكمها عن طريق تَصفيتهم جسديًّا ضربًا بالرصاص، في آب (أغسطس) عام ١٩٧١. تواجدت كواليس وقصص متباينة حول مقتل جاكسون، منها أنه قُتِلَ أثناء اشتباكات بينه برفقة سجناء آخرين، وبين ضُباط وحراس السجن، وذلك أثناء مُحاولتهم الهرب واختطاف رجال سُلطة. مع اختلاف هذه الروايات حول مقتل جاكسون،[٥٧] إلا أن محلَّ اهتمامنا، هي تجربته السجنية وأفكاره حول تفكيك منهجيات السجن المَرئية التي تُدير السجناء.

---

(٥٦) Joy James, George Jackson: Dragon Philosopher and Revolutionary Abolitionist, *Black Perspectives*, August 21, 2018

(٥٧) Wallace Turner, Two Desperate Hours: How George Jackson Died, *The New York Times*, September 3, 1971

فيما يخصّ هروب السجناء في مصر دعنا نلقي النظر حول إمكانية مُطالبة السجناء بحقوقهم الذي كفلها لهم الدستور، من حقٍّ آدمي في المعيشة ونيل درجاتهم الإنسانية في الحياة، بما يخص الكرامة النفسية والجسدية. لكن ما يحدث هو العكس تمامًا، وتعرف السلطة جيدًا، مدى ما تفعله في السجين، لذلك هي أيضًا بأدواتها تُحرِّم أي فكرةٍ، وإن كانت سِلمية تخص رفض هذه الحياة. أدوات السلطة كثيرة، منها المراقبة الدائمة في فعل التخطيط لفكرة المُقاومة، إذ السلطة وعبر أدواتها، نوبتجي الزنزانة مثالا، يُبلِّغ عن أيِّ سجينٍ يتحدث عن فكرة الهروب/الاضطراب/ الانتحار، إذ هنا الثالثة تُعد مقاومة، فإنَّ فناء الجسد يحرم السلطة من سُلطويتها. كذلك الإضراب أو فعل الهروب «المُجرَّم قانونيًّا»، وفي حالة معرفة السلطة بشأن أي تخطيط أو أفكار لدى السجناء، تأخذ تدابيرها الاحتياطية، من خلال خطوات عقابية، تُفكِّك من خلالها ما ينوى هؤلاء السجناء فعله، مثل معاقبة المتورطين، بالضرب، ومن ثم تفكيك الزنزانة، إذ يُبعَد كل سجين عن الآخر، وينقلون إلى عنابر أخرى، ولا يروا بعضهم أبدًا طيلة مدة سجنهم، كذلك تُسلِّط عليهم آذان وأيادي السجناء الآخرين، ومن ثمَّ يعيشون حياةً جحيمية، تكون عبرةً لمَن ينوي التفكير فيما فكروا.

هذا بجانب تفتيش السلطة المُستمر لزنازين السجناء، وتجريدهم من الأشياء التي من المُمكن أن تساعد السجين في إعادة بناء ذاته، مرايا الوجوه، الأوراق والأقلام، يُفتِّشونها كي يَطلعوا على أفكارهم ومشاعرهم المَكتوبة والمرسومة، أشياء ترفيهية، مثل أجهزة سماع الأغاني والراديو التي معهم، فضلًا عن سعي السجناء إلى تهريب تليفوناتٍ محمولة لتكون معهم داخل الزنزانة، ومن

خلالها يستطيعون التواصل مع العالم الخارجي. التواصل هنا، لا ينحصر في فعل تواصلي اجتماعي فقط، بل يمتد إلى استعادة نفسية، تكمنُ في تواصل السجين مع ذاته، التي مُحيَت. السجين له الحق القانوني المَلفوظ في إجراء مكالمةٍ هاتفية لذويه بالخارج إلا أن السلطةَ تُعطِّل هذا الإجراء ضمن منهجيات العزل الذاتي عن كل ما هو أمام أسوار الفضاء السجني.[٥٨] ناهيك عن تَحديق السلطة نحو جدران الزنزانة جيدًا، يروا ما كُتب أو رُسم عليها، وبدورهم يمسحون ما استطاع السجناء كتابته عليه ويعاقبون من كتب، إذ تُمثِّل الكتابة والرسم على جدران الزنزانة بالنسبة للسجين شيئًا ملهمًا ومهمًّا بل ومقاومًا لمنهجيات إخضاع السلطة، بما أنه يكتب أفكاره، مَشاعره، اسمه، أسماء أحبابه، أغنيات وأشعارٍ وحكمٍ، كُلها تصنع ذاكرةً مَشاعرية، ربما تكون احتجاجية أو توثيقية للحظة وجوده في هذا المكان. إذ يرى سجناء كثيرون كتابات على جدران السجن، لم تمسحها السلطة، وتكون مكتوبة منذ عدة أعوام، وعليها إمضاء مِن صاحبها، هنا الكتابة الجدرانية السجنية نوعٌ مُصغر وأصيل من فن الجرافيتي والكاليجرافي، اللذين انتشرا بكثرة بعد ثورات الربيع العربي، في شتى ميادين المدن العربية، كفَنٍّ ثوري مُقاوم يُوثِّق الأحداث بوجهة نظر الثائرين لا السلطة وأدواتها.[٥٩]

---

(٥٨) حلقات عن تشريعات السجون المصرية (٣)، الفصل السادس: الزيارة والمراسلة، المبادرة المصرية للحقوق الشخصية، نشر في ٢٧ شباط (فبراير) ٢٠١٧.

(٥٩) بعد عام ٢٠١١، شهدت المدن العربية عدة احتجاجات وانتفاضات، استخدمت بعضها الرسم على الجدران، كنوعٍ من المقاومة الاحتجاجية المُبدعة. لمزيد حول مقاومة الغرافيتي، انظر: هاني نعيم، غرافيتي الانتفاضات: **رحلة إلى كواليس لغة الشارع**، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٣.

عند موت أي سجين، بفعل واقعة تعذيبٍ أو انتحار، كما ذكرنا، يُغلَق على جميع السجناء ولا تُفتح الزنازين في هذا اليوم، خوفًا من غضب السجناء الآخرين بشأنه، ما يؤدي إلى هتافهم أو تكسيرهم لأيِّ محتوياتٍ موجودة، أو غير ذلك من إمكانات المقاومة. كذلك في الأيام العادية، لا يخرج جميع السجناء دُفعة واحدة سواء في الزيارات أو عند أوقات التريض، بل يُقسَّمون إلى عدة دفعاتٍ يخرجون، ومن ثم يدخلون ويخرج آخرون؛ هذا لـمَنع تجمع عددٍ كبير من السجناء في وقت واحد، حتى وإن كان باب العنبر مُغلقًا. ناهيك عن أبوابٍ أخرى، لكن من باب الحرص على عدم وجود أجساد كثيرة وحُرة في فضاء أكبر من الزنزانة، تعرف السلطة أنه من الممكن حدوث أي إمكانات مُقاومة.

ومُمارسات أخرى داخل كواليس الفضاء السجني، من دخول الطعام، خروج الترحيلات من وإلى السجن، الذهاب إلى عيادة السجن ـ كُلها لا تدل إلا على المُراقبة الدقيقة، وإحكام السيطرة على الظروف التي من المُمكن أن تُهيِّئ فضاءَ مُقاومة. بالإضافة إلى أنه، يتواجد بجانب بعض المؤسسات السجنية، معسكر لقوات أمنٍ، يتواجد به مئات أو آلاف من أجساد السلطة المُدرَّبة، والتي من ضمن مهامها الحفاظ على استقرار السجن، وتدخلها في حالة حدوث أي شغبٍ أو اضطراب كبير، والذي لا يستطيع الرجال الأساسيين للسلطة فكه وإخماده ـ هنا تتدخل هذه القوات التي لديها كامل الاستعداد عبر الأدوات اللوجيستية والتكتيكية لإخماد ما تفعله الأجساد السجينة، الأجساد التي هي بالأساس أجساد

عُـزَّل،[٦٠] لا تملـك أي شـيء تدافـع بـه عـن نفسـها أو تُقـاوم بـه، لأن السُـلطة جردتهـا مـن أيِّ أدوات، تُسـتخدم فـي الدفـاع عـن النفـس أو المُقاومـة، أو حتـى تشـكيل الجسـد وفقـا لرؤيتهـا، (صناعـة الوشـم)، أو قتـل الجسـد ذاتـه، كمـا ذكرنـا فـي الانتحـار. أجسـاد مَعزولـة ذاتيًّـا واجتماعيًّـا وبالتالـي سُـلطويًّا.

الفيلـم الإسـباني **المنصـة** Platform والـذي عُـرِضَ عـام ٢٠١٩، جسـدَ كيفيـة إدارة السـلطة للسـجناء، مـن خـلال «سـجنٍ مُتخيـل».[٦١] القصـة هـي، سـجن كبيـر بشـكلٍ طولـي، يضـم عـدّة زنازيـن، كُلهـا فـوق بعضهـا، فـي كلّ زنزانـة سـجينان. الزنزانـة رقـم ١ هـي الأعلـى، وصـولا إلـى أكثـر مـن ٢٥٠ زنزانـة مرصوصيـن إلـى أسـفل، وعنـد بدايـة كل شـهرٍ ينتقـل السـجناء إلـى زنازيـن مُختلفـة، وتُـوزِّع السـلطةُ الطعـام كل يـوم مـرةً واحـدة ولمـدة دقائـق، مـن خـلال منصـةٍ تنـزل أمـام الزنازيـن بالترتيـب مـن أعلـى إلـى أسـفل، لمـدة دقائـق بسـيطة جـدًّا، ومـن ثـمَّ تنـزل إلـى الأخـرى. لاحـظ سَـجينان أن المنصـةَ عندمـا تصـل إلـى الزنزانـة رقـم ٥٠، لا يتبقـى منهـا أي أكل، مـا يـؤدي إلـى مـوت السـجناء القابعيـن فـي زنزانـة ٥١ ومـا بعدهـا، بسـبب الجـوع، أو تقاتـل السـجناء بهـدف أكل الجثـث.

ومـن هنـا، جـاءت الفكـرة لهمـا، فكـرة المقاومـة، إذ قـررَا أن ينـزلا مـع المنصـة مـن زنزانتهـم رقـم ٦، ويضربـوا مـن يحـاول الاقتـراب منهـا،

---

(٦٠) اسـتخدمت إلـزا دورلـن، مـا سَـمته تصنيـع الأجسـاد العـزل كعنـوان فصلهـا الأول ضمـن كتابهـا فلسـفة العنـف. انظـر: **فلسـفة العنـف**، ترجمـة جـلال بدلـة، دار السـاقي للطباعـة والنشـر، بيـروت، ٢٠٢١، ص. ٧٤.

(٦١) Paul Tassi, «Netflix’s The Platform Is A Brutal Capitalist Horror Film For Precisely This Moment», Forbes, March 23, 2020.

حتـى يصلـوا إلـى الزنزانـة رقـم ٥٠ ومـن ثـمَّ يمنعـوا السـجناء مـن الأكل بكميـاتٍ كبيـرة، حتـى يسـتطيعوا أن ينزلـوا بالمنصـة أكثـر ويصلـوا إلـى الزنازيـن السُـفلية، ليُطعمـوا مَـن فيهـا. وكلمـا نزلـوا وواصلـوا النـزول، كلمـا تشـاجروا مـع مَـن يُحـاول الاقتـراب مـن الأكل دون توفيـر لمَـن هـم منتظـرون بالأسـفل، حتـى أنهـم قتلـوا بعـض السـجناء، ليصلـوا نهايـةً إلـى الزنـزانة رقـم ٢٥٠، ظَـنًّا منهـم أنهـا الزنزانـة الأخيـرة، وينزلـوا مِـن علـى المنصـة، فتتركهـم المنصـة وتنـزل، وهـم غارقـون فـي دمائهـم مـن المعـارك التـي خاضوهـا مـن أجـل اعتـراض سياسـة السـلطة، ونهايـةً لـم يحصلـوا علـى أي شـيء؛ إذ قـررت السـلطة منـذ البدايـة أن أول ٥٠ زنزانـة هـي التـي سـتأكل، أمـا البقيـة فسـيتقاتلون ويموتـون جوعًـا. كمـا أن السـلطةَ عملـت علـى أدقِّ التفاصيـل التـي بواسـطتها تمنـع أي مقاومـةٍ لسياسـاتها، وأي تغييـر مَرجـو، يجـب أن يأتـي إمـا مـن السـلطة ذاتهـا، أو مـن سـلطة أخـرى، والسـلطة الأخـرى فـي الواقـع السـجني، هـي ليسـت سُـلطة سـجنية مُسـتقلة بذاتهـا، بـل هـي خاضعـة للسـلطة السياسـية الخارجيـة، التـي يمكنهـا التغييـر.

فلسـفةُ السـيطرة لهـا امتـدادٌ خارجـي، شـهدت عليـه حـوادث تاريخيـة. علـى سـبيل مِثـال مُقـرَّب، خـلال ثـورة كانـون الثانـي (ينايـر) عـام ٢٠١١، تحديـدًا يـوم ٢٩ ينايـر، حيـث فُتحـت بعـض السـجون، إثـر هـذا، هـرب الكثيـر مـن السـجناء، مـا عنـى أن اسـتقرار النظـام السياسـي فـي الخـارج، وسـيطرته علـى المُجتمـع، قابلَـه اسـتقرار المؤسسـة السـجنية وسـيطرتها علـى السـجناء. وبمـا أن المُجتمـع الخارجـي كان مُشـتعلا، وانسـحبت قـوات الأمـن مـن أمـام حشـود الثـوار فـي الميادیـن، بـل وتركـوا أماكنهـم ومقراتهـم الأمنيـة وخلعـوا بذاتهـم الميريـة واختفـوا مـن الفضـاءات العامـة، فقـد صاحـب هـذا الاختفـاء الشـرطي وأحـداث

الشـغب المُشـتعلة هيـاجٌ ثـوري للسـجناء. فتحـت بعـض السـجون بالأمـر المُباشـر وخـرج السـجناء منهـا مأموريـن وليسـوا ثائريـن.

علـى الجانـب المُعاكـس، كان بعـض السـجناء فـي حالـة ثـورةٍ وهتـافٍ دائـم، يريـدون الخـروج مـن الفضـاء السـجني بمـا أن السـلطة الأمنيـة الكليـة انهـارت. فـي سـجن المنيـا تحديـدًا، هـرب الكثيـرون، واختَطـف مَـن تبقـى مـن السـجناء رجـال تابعيـن لسـلطة السـجن، كاسـتراتيجيةٍ مـن أجـل الضغـط علـى السـلطة كـي تسـمح لهـم بالفـرار، إلا أن الثانيـة اشـتبكت معهـم، ووقـع قتلـى مـن الطرفيـن، ولـم يتمكـن السـجناء الباقـون مـن الهـرب.(٦٢) كانـت سُـلطة مبـارك الأمنيـة تُراهـن علـى الفوضـى، مَظـنةً أنـه تمظهـر فِـرار وخـروج السـجناء «وحـوش بـلا أخـلاق» Monsters Without Moral، سـيَجعل الثائريـن فـي الشـوارع تائهيـن خائفيـن، يترجـون سُـلطة مبـارك أن لا ترحـل مـن أجـل عـودة الاسـتقرار مـرةً أخـرى «أنـا أو الفوضـى»، عكـس مـا حـدث، حمـى الثـوار بيوتهـم ومناطقهـم مـن أي هجـومٍ مُحتمـل فيمـا عُـرف بـ«اللجـان الشـعبية» Popular Committees. كذلـك الفـارون مـن السـجناء وقُـدروا بــ ٢٦ ألـف سـجين، لـم يُخـرِّبوا ولـم يقـتلوا، ذهـب البعـض إلـى أهلـه، والبعـض الآخـر للاختبـاء وآخريـن قُبـض عليـه مـرةً أُخـرى عبـر القبضـة الرقابيـة والأمنيـة التـي فرضتهـا القـوات المُسـلحة المصريـة.(٦٣)

(٦٢) تجـد شـهادة المقـدم عمـرو الدرديـر عـن مـا حـدث فـي سـجن المنيـا، «للتاريـخ: مَـن وراء فتـح السـجون؟!»، البديـل تـي فـي، يوتيـوب، نشـر فـي ٣١ كانـون الثانـي (ينايـر) ٢٠١٤.

(٦٣) «مـن أمـر بفتـح السـجون؟ ناشـطون يوثقـون الحقيقـة»، العربـي الجديـد، نشـر فـي ٢ كانـون الأوّل (ديسـمبر) ٢٠١٤.

هــذا يعكــس مــا ناقشــناه ســالفًا، حيــال مِخيــال الجماهيــر حــول السـجين، الجماهيــر التــي هرولــت لحمايــة بيوتهــا ومناطقهــا مــن السـجناء «الوحـوش» الذيــن هربــوا مــن السـجن، ليأكلـوا الأرض ومـا عليهــا، والحقيقــة أنــه فــي يــوم ٢٨ كانــون الثانــي (ينايــر)، أي قبــل خـروج السـجناء، قـد بـدأتْ بالفعـل عمليـات تخريـب وسـرقة ونهـبٍ للملكيـات العامـة (المتحـف المصـري) والخاصـة (المـولات والمحـلات والشـقق)، وهـذا طبيعـي ومنطقـي فـي سياق ثـورة قامـت علـى الفسـاد النيوليبرالـي، لأن الجماهيـر، خاصـة الفقيـرة، الرثـة منهـم، يـرون أن هـذه اللحظـة، أي لحظـة انهيـار النيوليبراليـة ومنظومتهـا الأمنيـة التـي تحميهـا، هـي لحظـة الحـق فـي أخـذ حَقهـم بالقـوة والسـرقة، هـم يَـرون الحـق فـي أن يكونـوا سـارقين طالمـا كانـوا مَسـروقين طيلـة حياتهـم. هـذا بالطبـع ليـس تبريـرًا للاعتـداء علـى حقـوق الآخريـن، بـل رصـد نفسـي جمعانـي لهيـاجٍ ثـوري، لا يخلـو مـن الفوضويـة والراديكاليـة.(٦٤)

حتـى إن كان المُجتمـع الخارجـي مُسـتقر، لكـن تسـتطيع ممارسـات مثـل الاضطرابـات، أعمـال الشـغب وغيرهـا، أن تُشـعله، فـي حالـة تَسـرب الأخبـار مـن الداخـل السـجني إلـى الخـارج المُجتمعـي، وربمـا تـؤدي إلـى مزيـدٍ مـن الاشـتعال، لا سِيما إن كانـت هـذه الاضطرابـات مــن الســجناء السياســيين، الذيــن لهــم امتــداد شــعبي أو تنظيمــي أو إعلامي/حقوقــي بالخــارج، عندئــذ هــم يُمثِّــلون جســدًا متكامــلًا

(٦٤) حـول هـذا، يُعلـق الناشـط والصحافـي اليسـاري حسـام الحمـلاوي، فـي حـواره ببرنامـج بودكاسـت ١١، المُـذاع فـي ١ نيسـان (أبريـل) ٢٠٢١، منتقـدا بعـض الأصـوات الثوريـة التـي تبـرأت مـن أعمـال العنـف التـي حدثـت يـوم ٢٨ كانـون الثانـي (ينايـر)، وإلصـاق هـذه الأعمال بــ «البلطجيـة» وأن الثـوار لا دخـل لهـم فـي أعمـال التخريـب والحـرق. وبالفعـل، فالعنـف الـذي قـاده الشـباب، المُنتمـي واللامُنتمـي، كان سـببًا رئيسـيا فـي نجـاح ثـورة ينايـر ٢٠١١، فيـوم ٢٨ كانـون الثانـي (ينايـر) المعـروف بــ «جمعـة الغضـب» هـو اليـوم الثـوري الحاسـم.

ومقاومًا، جسد له شِقَّين: سجيني وآخر حُر، يُكمِّل بعضه بعضًا. هذا شاهدناه جليًّا، في إضرابات الأسرى الفلسطينيين داخل المنظومة السجنية الإسرائيلية، حيث تشتعل وتُكثِّف فعالية المقاومة لديهم، بالتوازي مع المقاومة الخارجية من أهل فلسطين ضد الاحتلال الصهيوني.

الجسد المَنبوذ

مـن المؤكـد، أنَّ المؤسسـةَ السـجنية باختـلاف أنواعهـا، مـن حيـث الشـكل وأنمـاط الحيـاة والقانـون واللائحـة التـي تُـدار بهـا، تتـرك أثـرًا فـي نفـس وجسـد الإنسـان الـذي سُـجن بداخلهـا، هـذا الأثـر يختـلـف باختلاف شـكل وطريقـة وزمـن العقـاب الـذي تَعـرض لـه. كمـا يخـتلفُ حسـب طبائـع وشـخصيات كلِّ إنسـانٍ لَمسـته الحيـاة العقابيـة. يَظهـر هـذا الأثـر تباعًـا، بعـد أن يخـرجَ السـجينُ مـن السـجن، ويبـدأ تدريجـيًّا فـي التعايـش مـع الاجتمـاع البشـري والحياتـيِّ المـاديِّ مـن حولـه. هـذا التعايـشُ لا يقتصـر علـى الاجتمـاع البشـري بوَصفـه مجتمعًـا فقـط، بـل يشـمل التعـرضَ مـرةً أخـرى لأوجـهِ السـلطة المُتعـدِّدة. لكـن، فـي كلتـا الحالتيـن يبـدأ السـجينُ النظـرَ إلـى المجتمـع والسـلطة بنظـرةٍ مُختلفـة علـى عـدة أصعدة نفسـية واجتماعيـة وسياسـية. نُحـاول هنـا تفكيـكَ هذه النظـرة، الخاصة بالسـجين السياسـي فـي مصـر، ومـن ثـمَّ النظـر حـول السـجين غيـر السياسـي، بوصفـه ذاتًـا سَجيـنيةً سـواءً بسـواء مـع السياسـي، تُفعَّـل عليها وتتـفاعل، ضمـن مُمارسـاتٍ كثيـرة داخـل وخـارج السـجن.

يَخـرج السـجينُ السياسـي فـي مصـر بعـد فتـرةِ اعتـقال، كلمـا طالـت كلمـا أعطـتْ للسَّـجين مسـاحةً أعمـقَ للتأمـل بالحيـاة السَّجيـنِـية، وتركـتْ أثـرًا أكبـر حـول هـذه المنظومـة العِقابيـة الحديثـة التي تُـدَجِّنُ الإنسـانَ بالقهـر، وتُعيـد هندسـتَه الإيمائـيـة واللغويـة والحياتـيـة مـن جديـد.[٦٥] أولُ مَـن يُقابـل السـجين المُحـرَّر مـن الاجتماعـات البشـرية،

---

(٦٥) الإيمائِـية، ولهـا أسـماء ومصطلحات عدة، منهـا السـيميولوجيا/ Semiology، السـيميوطيقا/ Semiotics، السـيميائيات/ السـيميائية/ السـيمياء، علـم العلامـات/ العلاماتيـة، وعلـم الرمـوز، علـم الإشـارات/ الإشـاراتية، علـم الأدلـة/ الدلاليـة. هامـش مذكـور ص. ١٣.

الاجتماع المُصغَّر المُتمثِّل في أسرته، والتي من خلالها يبدأ في استعادة اسمه أو كُنيته، أي «دَلَعِه» الذي كان يَسمعُه قبل اعتقاله، وتبدأ حياته البَيتِية من جديد، من ذكرياتٍ مع أسرته، وحكاياتٍ ومُسامرات مُتبادلة بين الجانبين في الكثير من الذكريات قبل اعتقاله، والكثير من الأحداث والمُلابسات التي حدثت أثناء هذا الاعتقال. كذلك السجين الأساسي مع أسرته، يبدأ في جُل هذه الاستعادات، إلا أنه يختلف بعض الشيء، إذ ربما يكون حملًا ثقيلًا على أسرته أو عائلته الكبيرة، بما أنه الآن يُمثِّل لهم وصمة عار، وسط الاجتماعات الأخرى. السجين السياسي لا يجد أيَّ حرجٍ في الاعتراف أنه كان سجينًا سابقًا، ربما يجد تَخوفًا أمنيًّا، خشية أن يُبلِّغ أحد عليه، فيُعاد اعتقاله. أما الجنائي، تبدأ الاجتماعات بنبذه والفرار من حوله حين المعرفة.

بالنسبة للحياة المادِّية داخل البيت، لا يختلف الأمر بين السجينَين، فهي تُسمَّى لُغويًّا ضمن مصطلحاتِ السجن بالحياة «المَلَكِيَّة»، ما يعني المُرفَّهة، والتي تُقابل الحياةَ السَّجينِية «المِيرِيَّة» الشاقَّة، ومن ثمَّ يبدأ في مُمارساتها: بدايةً من نوعية الطعام والشراب الممنوع دخوله إلى السجن. مرورًا بإخراج الفضلات، لا سِيَّما البراز على مرحاض الحمام السيراميك غير الموجود داخل السجن، وتناول المشروبات في أكوابٍ زجاجية وتناول الطعام بمعالقَ معدنية، بدلًا من البلاستيك السِّجني. وصولًا إلى النوم على سريرٍ واسع ومُريح، بدلًا من الأرض الضَّيِّقة المُكسِّرة للعظام.[٦٦] وربما تعرَّض الشخص لبعض المُضايقات

(٦٦) للمزيد عن المُصطلحات الدارجة في الفضاء السِّجني، انظر: أحمد سعيد، **كلام حبسجية**: نماذج من مسكوكات السجن المصري، منتدى المشرق والمغرب للشؤون السجنية، بيروت، ٢٠٢٠.

المَملـوءة باللَّـوم والعتـاب أو النبـذ مـن الأسـرة الصغيـرة أو العائلـة، إنْ كان قـد سُـجِنَ ضمـن توجهـاتٍ فكريـة وسياسـيّة تُعـارِضُ رأيهـم واتِّجاههم السياسـي، أو حتـى بسـبب التعـب المَخـزون مـن فتـرة السـجن، التـي لا تخلـو مـن زيـارات الأهـل للسـجن والنيابـات والمحاميـن والمحاكـم، وغيـر ذلـك مـن أشـياء شـاقَّةٍ تُعجـز البـدن وتُمرضـه.

اسـتعادةُ العلاقـات الاجتــماعية للسَّـجين بنوعَيـه، خطـوةٌ تاليـة، حيـث يَخـرج السَّـجين مـن فلـك الأسـرة لـيَعود مـرةً أُخـرى ضمـن اجتماعـاتٍ تَعـوَّد أو لـم يَتعـوَّد عليهـا قبـل اعتقالـه. تشـمل تلـك الاجتماعـات، الأصدقـاء والمعـارف وزمـلاء الدراسـة أو العمـل، لكـن تأخـذُ شـكلًا غيـر الـذي تَعـوَّد عليـه، وهـذا ضمنيًّا وشـكليًّا ينـدرجُ تحـت تأثيـرات الحيـاة السِّـجنية. حيـث تتــبدَّل مكانـةُ الأصدقـاء فـي عيـن الإنسـان السـجين، ومـن ثـمَّ يبـدأ فـي ترتيبهم مـرةً أُخـرى بشـأن المَعزَّة والحُـبّ، فتتــقدَّم مكانـة مَـن وقـفَ مـع صديقـه وقـت الشِّـدَّة، وتــتأخَّر لـدى آخريـن، إذ بالأخلاقِيـات الشَّـعـبَوِيَّة، يظهـر الصديـقُ وقـتَ الضيق. أما عـن الذكريات، فــتدور أحاديـثُ الأصدقـاء مـع الصَّديـق السجين، حـول تذكُّـر المواقف القديمـة بيــنهم، وهــذا مـا يَصعـب أحيانًـا علـى السَّـجين، لا سِـيَّما إن كانــت مُــدَّةُ سَـجنه لسـنواتٍ طويلـة، حيـث تُمحـى الذاكـرة، ليسـت فقـط مـن المواقـف، بـل حتـى مـن الوجـوه. وجـوه المعـارف والزمـلاء تُمسَـح مـن الذاكـرة المَرئيـة لـدى الإنسـان، فتجـدُ أناسًـا كثيريـن يَعرفون السـجين وهـو لا يتذكَّـر وجوهَهـم أو حتـى أسـماءهم.

كذلـك، تتغيَّــر اهتمامـاتُ السـجين، إذ إنَّ التجربـةَ السِّجنِـية، هـي فـي حَـدِّ ذاتهـا كفيلـةٌ لمراجعـة الأفـكار والاهتمامـات والنظـر إلـى الأشـياء، وذلـك مـن خـلال مقابلـة سـجناء مـن جميـع الاتجاهـات والثقافـات، وهـذا مـا يأخذنـا إلـى تجـارب سـجناء كثيريـن، ألَّــفوا الشـعر والروايـات،

وتَبــنّوا سـردياتٍ أيديولوجيـة مـن داخـل السـجن، نتـجَ عنهـا اهتمامـات جديـدة، كدراسـةِ شـيء جديـد أو تغييـر حقـلِ العمـل مـن مجـالٍ إلـى مجـال... وغيـر ذلـك مـن الأمثلـة. وهـذا مـا يجعـل السـجين فـي بعـض الأحيـان، وكأنـه عـزلَ نفسـه وسـط سـجنٍ آخـر، فـي حـال أنَّ الاجتماعـات مـن حولـه لا تهتـم بمـا يهتـم بـه مـن أفـكارٍ ونقاشـات، فيبـدأ بـدوره البحـث عـن اجتماعـات، ينتمـي إليهـا ذاتــيًّا ونفسـيًّا واجتماعيًّا وفكريًّـا، ليتحـرّك وسـطها بحُريـة وإبـداعٍ أكثـر.

تظـل الذكريـاتُ السِّجنِــية، بمـا اشـتملت عليــه مـن مواقـفَ أكثرهـا مرير فـي ذاكـرة السـجين السـابق، تُذكِّـر كيـف كانـت الحيـاة، الطعـام، الشـراب، النـوم، إخـراج الفضـلات، الجـدران والألـوان، أجسـاد رجـال السـلطة، وجـوه الأصدقـاء والرفقـاء، هـذه الذكريـات الحاضـرة دائمًـا، تجعـل مـن الحُـزن شـعورًا دائمًـا. ليـس الحـزنُ وليـدَ المِحنـة فقـط، بـل وجـوده وديمومتـه حاضـران إلـى انــتهاء هـذه المِحنـة التـي لا تنفـكُّ عـن ذاكـرة السـجين لاسـيما السياسـي، خصوصًـا عندمـا يلمـس المُعانـاة التـي مـا زالـت تَنــهش فـي نفسِـيات وأجسـاد رفقائـه، مـا يعنـي اهتمامه بشـكلٍ عـام بـأيِّ أحـداثٍ أو قـراراتٍ أو أفـكار تُسـاعد علـى الخـروج مـن هـذه المعانـاة. أيضًـا، يلبـس السـجين ألـم غيـر مرئـي لا يـراه النـاس، بـل يظنـون أن الألـم قـد انتهـى بخـروج السـجين مـن السـجن، إلا أن هـذا الألـم مُترسِّـخ فـي وجـدان السـجين السـابق لا يـراه أحـد سـواه، تترجـم آثـار هـذا الألـم الخفـي عبـر ممارسـات كثيـرة، ربمـا تكـون انعزاليـة حـادّة أو اجـتماعية مُبالـغ فيهـا، يظُـن النـاس أنهـا تُفعـل بكَيف الشـخص، لكنهـا حقيقـة تَصـدر رغمًـا عنـه، إثـر تحـولات النفـس والعقـل فـي إدراك الواقـع بعـد العيـش فـي السـجن.

واسـتكمالًا للمُعانـاة، فـي أحايِـين كثيـرة، يأتـي الوصـمُ للسَّـجين السـابق

بسـبب مـروره بالتجربـة، حيـث لا تـتقــبل اجتماعـاتٌ متعـددة فكـرةَ دخــول السـجن والخـروج منــه، بمــا أنهــا مؤسســة ســيئة السُّــمعة، لا يدخلهــا ســوى المُجرميــن. اجتماعــاتٌ لا تَشــعر بالســجين السياســي، كسـجينٍ صاحـبِ رأيٍ وفكـر، بـل تـكاد تكـون ضِـدَّه مـن الأسـاس، بمـا أنَّ مصالحَهـا تتوافـق مـع وجـود النظـام القائـم الـذي يسـعى السـجينُ السياســي إلــى الثــورة عليــه أو إصلاحــه. أو حتــى خوفًــا مــن جلــب الأذى، وذلـك لأن السـجينَ السياسـي مُعـرَّض بشـكلٍ دائـم إلـى الاعتقـال مـرةً أخـرى، فترفـض عائـلاتٌ كثيـرة أي صلةٍ/نسـبٍ بـه بسـبب سـابقته السِّجنِية اجتنابًـا لـلأذى أو الاشـتباه بهـم مـن السـلطة. وهـذا مـا يُعانـي منــه الســجين الجنائــي أيضــا، النبــذ والخــوف المُجتمعــي منــه.

كذلـك يتحـول هـذا السـجينُ الأساسـي فـي بعـض الأحاييـن إلـى وحـش، مُتجــبِّر، وهــذا تحديــدًا فــي الأحيــاء العشــوائية والمُدقعــة بالفقــر، حيــث تكــون القــوة إحــدى القوانيــن العُرفيــة التــي تُــدار بهــا هــذه الأحيــاء. وهــذا مــا يَســتغله الســجين الجنائــي، بمــا أنــه دخــل وعــاش تحــت ظــلِّ المؤسســة الســجنية التــي يخــاف منهــا النــاس، وبعــد خروجــه، بــدَوره يعيـــش وســـط الاجتماعــات الفقيـــرة المَنبـــوذة فـــي الحـــارات، والتـــي تحتكــم إلــى القــوة، بمعنــى أدق (البلطجــة)، فيــرى أن عليــه اســتغلال هــذه القــوة مقابــل الخــوف مــن الاجتمــاع، فــي فــرض قوتــه علــى النــاس، أو علــى الأقــل يُصبــح رجــلًا ذا كلمــة وقــدر يحتكــم إليــه النــاس فــي المُخاصمـات، أو تلتـف حولـه فئـات شـبابية مُهمَّشـة، يحلـو فـي عَينهـم الصياعــة والشــقاوة، بمــا أنهــا ثقافــة محمــودة فــي هــذه المناطــق. وهــذا مــا تجــده مُتعــارف عليــه شــعبويًا وثقافيًــا، عبــارات مثــل «ده لســه خــارج مــن الســجن» أو «خــرج مــن الســجن ألعــن مــن الأول» أو «ردّ ســجون»، تعنــي أنــه شــرير، بلطجــي، قلبــه ميــت لا يخشــى أحــد. وهــذا

مـا تُلقــنه مرئيـات المؤسسـة العقابيـة، إذ هـي تُعلِّـم وتُشـكِّل أخلاقيـات وسـلوكيات سـجنائها، ليخرجـوا أكثـر إجرامًـا، لا أكثـر إصلاحًـا، كمـا هـو الواجـب الدسـتوري والمؤسسـي.

وانــتقالًا إلـى نظـرة السـجين حـول السـلطة بعـد أنِ اشـتبكَ معهـا واقعيًّا مـن خـلال مَنظوماتهـا الأمنية والقانونيـة والعِقابِـية، والتي بالـكاد يحدثُ لهـا تغييـر نسـبي مـن إنسـانٍ لآخـر. تدريجيًّـا، وحسـب إدراك السَّـجين السياسـي السـابق لِمـا هـي السـلطة، خاصـةً السياسِـية والأمنِـية، يبـدأ تغييــرَ نظرتـه إليهـا، لا سِـيَّما خـلال التعامـلات معهـا، هــذه النظـرة تتغيَّـر عمـا كانـت لديـه سـابقًا، وعمـا لـدى الآخريـن مِـن حولـه، الذيـن لـم يَشـتبكوا مـع المنظومـات سـالفة الذِّكـر. وذلـك عبـر إدراك مـدى افتقـاد العدالـة القانونيـة والإجرائيـة فـي السـلطة، بمـا أنهـا مارسـت عليـه حالـةَ اسـتـثناءٍ مـن قبـل،[٦٧] واعتــقلَته وحاكـمَته وسَـجنته ضمـن محاكمـاتٍ سياسِـية. وهـذا مـن جانـب النظـرة الأخلاقيـة لهـا، أمـا مـن ناحيـة الشـعور، فيــزداد هلعًـا وخوفًـا مـن السـلطة، وخصوصًـا إن كانـت سـلطةً قمعِيـة بامتيـاز أو تجربــته السِّـجنية كانـت سـيئةً للغايـة، إذ يَهلع السـجين السـابق عندمـا يحتـكُّ بهـا فـي أيٍّ مـن الممارسـات والمواقـف، مثـل الكمائـن التـي تُنصَـب دائمًـا للقبـض علـى المشـتبه بهـم علـى ذِمَّـة قضايـا مضمونهـا سياسـي أو جنائـي خالـص. حينئـذ يكـون السـجين السـابق أكثـر هلعًـا مِـن غيـره، بمـا أنـه يعـرف ـ بالمُمارسـة ـ مـا هـي أخلاقيـات السُّـلطة ومـا هـو السِّـجن والعقـاب.

مثـالٌ آخـر، فـي الوظائـف الحكوميـة التـي تتطـلَّب إجـراءاتٍ وأوراق،

---

(٦٧) حالة الاستثناء، مصدر سابق، راجع الهامش ٥٢.

بعضهـا أمنـي، يخـاف الموظـفُ مـن القيـام بهـا، خوفًـا مـن الاشـتباه بـه، ومعرفـة سابقــته السياسِـية/ السِّـجنِية عبـر أجهـزة الحاسـوب لـدى الدولة، المُختــصَّة بجمع بيانات السـجناء السـابقين، لا سِيَّما السياسيِّــين، التابعيـن لجهـاز الأمـن الوطنـي ـ مـا يتطـلَّب إيقـاف أو إلغـاء وظيفتـه الجديـدة، أو حتـى وجـوده تحـت العيـن الأمنيـة داخـل محـلِّ وظيفتـه، مـا يُعرِّضـه دائمًـا للفصـل، خاصـةً بعـد تشـريع قانـونِ فصـلِ الموظفيـن المُنـتَـمين إلـى الجماعـات أو الأفـكار المحظـورة فـي القانـون المصـري، أبرزهـم جماعـة الإخـوان المسـلمين.[٦٨]

أيضًـا، يوجـد مـا يُعـرف بالمتابعـة،[٦٩] وهـو إجـراءٌ رقابــيٌّ يأخـذه الأمـن المصــري دون ســندٍ قانونــي، يتضمَّــن الاتصــالَ بالســجناء السياســيِّين الســابقين وإخبارهـم بضـرورة وجودهـم فـي المبانـي الشرطِـية التابعـة لهـم لمـدة يـومٍ أو يوميـن كامليـن، مـا يَجعلُهـم عنـد وصولهـم، قيـد الاحتجـاز القسـري، وعرضـةً للتحقيقـات أو الاحتجـاز علـى ذِمَّـة قضايـا جديـدة. مـا يجعـل المعتقـل يشـعر أنَّ سابقــتَه السياسِـية جلبـت لـه، «شــرًّا لا يُقهـر» بوصـف زيجمونـت باومـان، أي سُـلطة تُطـوِّق حياتَـه بالكامـل ولا مفــرَّ منهـا سـوى بالسـفر أو المـوت.[٧٠] تخـرج المُتابعـة عـن القانـون، فهـي تتـم بشـكل تعسـفي، بنـاءً علـى ملفـات المعتقليـن

---

(٦٨) «قانـون فصـل الموظفيـن فـي مصـر: قاتل للأمـان الوظيفـي أم ضامـن للمصلحـة الوطنية؟»، بـي بـي سـي، نُشِـرَ فـي ٢ تشـرين الثاني (نوفمبـر) ٢٠٢٠. للمزيـد حـول أَمنَــنة البيروقراطيّـة، انظـر: أحمـد عبـد الحليـم، «كيـف تُحَوكِـم الدولـة فـي مصـر مُوظَّــفيها؟» ضفـة ثالثـة، نُشِـرَ فـي ١٦ نيسـان (أبريـل) ٢٠٢١.

(٦٩) «اسـتراتيجية «المتابعـة»... كيـف يُراقـب الأمـن المصـري المعتقليـن السـابقين؟»، موقـع رصيــف ٢٢، نشــر فــي ١ كانــون الأوّل (ديســمبر) ٢٠٢٠.

(٧٠) زيغمونــت باومان، **الخـوف السـائل**، ترجمـة حجّـاج أبو جبـر وتقديم هبة رؤوف عزت، الشــبكة العربيــة للأبحــاث والنشــر، بيــروت، لبنـــان ٢٠١٧، ص. ١٠٧.

السابقين لدى جهاز الأمن الوطني، فضلاً عن التحريات المستمرة بحق مَن يشتبه به من عموم الناس. ولذلك هي تختلف عن أحكام المراقبة بعد خروج السجين، سواء كان سياسيًّا أو جنائيًّا. فالسجين السياسي يقضي مدة مراقبته في القسم التابع له حسب الحكم الصادر بحقه، وتكون لمدة ١٢ ساعة يوميًّا، من ٦ مساءً حتى ٦ صباحًا، كما في حالاتٍ كثيرة.(٧١)

لم يكن في بال المعتقلين السابقين، ولا سِيما الشباب منهم، الذين لم يُعايشوا الاعتقالات السابقة، أن الأمر سيصبح بعد ذلك كارثيًّا. ينصح الأقارب أو الأصدقاء المعتقلَ السابق بالابتعاد عن السياسة، والسير «جمب أو جوّة الحيطة» لعدم التعرض بعد ذلك لمضايقاتٍ من قِبل الأمن. لكن الشاب المعتقل السابق عرف أن الأمر ليس بيده، في واقع مستبدٍّ وغير أخلاقي، ولا يمكن إدارته بالفعل. وفي الحالة التي تعيشها السلطة، فلا يمكن إدارة الأمر إلا من قِبل القائمين عليها، وهؤلاء دائمًا حريصونَ على إدارة مَن يحكمونهم، خصوصًا أصحاب السوابق السياسية، بتلك الدائرة المغلقة التي يدور فيها المعتقل السابق في فلك السلطة، بين المراقبة على روحه وحياته، ووضعه في فضاءٍ زمكاني من فترة لفترةٍ لإخضاعه، وبين خوفه وهلعه الدائم من عودة اعتقاله والتي تكررت بحق الكثير من أصحاب السوابق السياسية. هكذا يصبح خاضعًا خائفًا من بطش السلطة بشكلٍ دائم. وهذا الخوفُ قد يؤدي بصاحبه إلى الانتحار، وهو ما حدث مع أحد المعتقلين

---

(٧١) «الوضع تحت مراقبة الشرطة: قواعده وضوابطه ومدى توافقه مع معايير حقوق الإنسان»، المبادرة المصرية للحقوق الشخصية، نشر في ١٠ نيسان (أبريل) ٢٠١٩.

الســابقين، بســبب اســتدعائه للمتابعــة، خوفًــا مــن اعتقالــه مــرةً أُخـرى، مـا يجعـل السـجين السياسـي يُفكِّـر فـي الإجابـة عـن سـؤال مـا العمـل؟ أيـن تكمُـن كيفيـة الخـلاص مِـن المُراقبـة والهلـع الدائميـن للـروح والجسـد؟ وبـأي صـلاة يُغفـر هـذا الذنـب السياسـي السـابق؟ الإجابـة هـي أن السـبلَ قليلـةٌ وفـي أحيـانٍ كثيـرة صعبـة المنـال، مثـل فرصـة سـفر خـارج مصـر، والاسـتقرار فـي بلـدٍ آمـن للعمـل وبـدء حيـاة مسـتقرة، تعطيـل وسـائل التواصـل مـع الأمـن، سـواء بتغييـر محـل إقامتـه ومغـادرة محافظتـه وتغييـر رقـم هاتفـه. وهـي أسـاليب بسـيطةٌ، وهشـة، ولا توفـر حمايـة مطمئنـة.

أمـا السـجين الأساسـي السـابق، قهـره مـن السـلطة لا يتوقـف ولا يختلف، بشـكلٍ عـام يواجـه مـا يواجهـه السياسـي، مـن اشـتباه فـي الكمائـن والطرقـات، وهـذا طبيعـي لأن الاشـتباه في الكمائـن لغيـر السياسـي، لـه عـدة دلالات شـرطية، الكشـف علـى البطاقة/الهُويـة الشـخصية، ليـرى رجـل السـلطة إن كان لهـذا الإنسـان، سـابقة جنائيـة سـواء قضاهـا أو مُتهربـا منهـا. عنـوان السـكن كذلـك، إذ المناطـق العشـوائية يُشـتبه فـي الأجسـاد السـاكنة فيهـا، المِهنـة أيضـا، المظهـر الجسـدي، بمـا فيـه الوجـه، إذ مـا زالـت الشـرطة تعتمـد فـي اشـتباها إلـى الحيلـة الأقـدم للاشـتباه،[٧٢] وهــي رؤيــة نظافــة الوجــه، أي الوجــه الســليم، الــذي لا توجـد بـه أي إصابـات، جـروح قديمـة.

قديمًـا، قبـل وبعـد حكـم محمـد علـي وسـلالته، أي قبل إنشـاء السـجلات المدنيـة وحصـر المواطنيـن أواخـر القرن التاسـع عشـر، كان الاشـتباه يقع

(٧٢) للمزيـد حـول تاريـخ الاشـتباه، انظـر: علـي الرجـال، «مجتمـع الاشـتباه الدائـم»، المركـز المصـري للحقـوق الاجتماعيـة والاقتصاديـة. دراسـة نشـرت بتاريـخ ١٩ آب (أغسـطس) ٢٠٢٠.

بشكلٍ مباشر على الجسد، وذلك لأن أصحاب السوابق الجنائية كانوا يعاقبون بالحرق والسلخ والكَي، ما يجعل من العقاب أثرًا على جسد المُعاقب، وبذلك يظل طيلة عمره منبوذًا معرّضًا للاشتباه. أما في الوقت الحالي، إن تواجدت إصابات الوجه، فتدل على أن صاحبَ الإصابة يقع في دائرة خناقات الشبِّيحة والأشقياء والصِّيع، وبذلك تأخذه الشرطة، للكشف عليه جيدًا داخل إحدى المباني الشرطية أو أخذه ومن بعد ذلك تركه، ضمن فلسفة خضوع المواطنين محل الاشتباه للجهاز الأمني في مصر.

علاوةً على ذلك، يذهب السجينُ الجنائي إلى المباني الشرطية، سواء عن طريق المراقبة القانونية أو من خلال استدعاءات دورية كما في متابعة السياسي، لكن الفرق هُنا، أن السجين الجنائي يذهب، وفي أوقات كثيرة، حيث معاملتهم أثناء المتابعة أو حتى المراقبة، تتميز بالفجاجة والسخرة والإذلال، حيث كانوا يُكلفون ويُؤمرون بمَسح وكنس وتنظيف سلالم وطرقات «القسم» (المبنى الشرّطي) خلال وجودهم فيه، فضلًا عن السبِّ والإهانة العلنية والتهديدات المستمرة لهم، وهذا بغاية سيطرة إدارة مباحث القسم على أجسادٍ وذوات بعينهم، من بلطجية الحارات والمناطق الشعبية. ومن الجهة الأخرى، تُقابل هذه التكليفات بالطاعة والخضوع، حيث هُم قد تربوا داخل المؤسسة السجنية على أن يكون خادمين وعاملين لدى السلطة.

يظن الكثيرون ومن بينهم السجناء، أنَّ السجنَ وآثاره تنتهي عند خروج السجين، لكن، في الواقع يُعاني السجين بشِدَّة، إذ تَبقى معه آثار العقاب على المستوى النفسي، وتُحاصِره البيئاتُ المُجتمعِية الرافضة له، فضلًا عن السلطة الأمنية المُستمرَّةِ في

هلعه بعدة وسائل وطُرق تُكتِّف بها مَن يُعارضها، ناهيك عن الحياة العصرية في حاضرنا، التي لا تقبل إلَّا ذوي السلطة والأموال، والتي تجعل مُتوسِّطي الحال مَنبوذين ضمن منظومتها النيوليبرالية القائمة على الشراء والتسليع، ما يزيد السجين السابق اكتئابًا وقهرًا.

بدلًا عن خاتمة

لا يسعنا أن نقول «في الختام»، إلا أنَّ الأمر مفتوحٌ لنا جميعًا، كتابًا وقارئين، الجهات والسلطات المعنية غير الحكومية أو الحكومية، إلى آخره دون استرسال. الأمر أمامنا للنظر أكثر، ربما الاهتمام من قِبل جهاتٍ إعلامية أو حقوقية أو قانونية أو إنسانية، يُساعد ويُقدِّم خطوةً إلى الأمام. وربما السلطة من الداخل تُخفِّف بعضًا مِن مَرئيات الحياة، من أجل أن يستعيدَ الجسدُ السجين شيئًا من إنسانيته، وتستعيد السلطة شيئًا من دورها الإصلاحي.

تَحكي إلزا دورلن، في تمهيد كتابها فلسفة العنف Philosophy of Violence، فيما أسمَته «ما في مقدور الجسد» (الترجمة العربية)، أنه، وفي «الحادي عشر من بروميير للسنة الحادية عشر، الموافق للثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) لعام ١٨٠٢، حكمت محكمة في الغوادلوب[1] على ميليه دو لا جِيراردِيير بأن يُعرض في ساحة لابوانت ابيتر ضمن قفصٍ من حديد حتى يموت. يمتطي السجين

(١) جزر غوادلوب منطقة فرنسية جزرية ضمن مجموعة جزر ليوارد الواقعة في جزر الأنتيل الصغرى، والتي تمتد على شكل قوس من المحيط الأطلنطي والبحر الكاريبي. بلغ عدد سكانها عام سنة ٢٠١٤ الـ ٤٠٠,١٨٦ نسمة، يتحدث سكانها اللغة الفرنسية.

فـي القفـص إيـاه صهـوةَ نصـلٍ حـاد، ترتكـز قدمـاه علـى شـيء يشـبه رِكاب الحصـان، وعليـه أن يُبقـي ركبتيـه مَشـدودتين دون ارتخـاء، كـي لا تثخنـه صهـوة النصـل جرحًـا. أمامـه وفـي متنـاول يديـه، وُضـع علـى طاولـةٍ مـا يكفيـه مـن مـاء وشـراب، إلا أن حارسًـا كُـلِّـفَ بمهمـةِ مَنعـه مـن أن يمـسَّ مـا يشـتهيه مـن الطاولـة نهـارًا وليـلًا. حيـن تخـور قـوى السـجين الضحيـة، يقـع متهاويًـا علـى النصـل، الـذي يغـور فـي جسـده مسـببًا جروحًـا فظيعـة وعميقـة. وعندمـا تُحفـز الآلام ذلـك المنكـود التعـس، يعـاود النهـوض ليعـود ويسـقط علـى النصـل المشـحوذ الحـاد المـروع، ويسـتمر هـذا العـذاب ثلاثـة أو أربعـة أيـام».[٢]

هـذه القصـة، تعنـي بهـا دُورلـن أن السـلطةَ وصلـت لأقصـى درجـات السـيطرة والتحكـم بالجسـد، وأن الجسـد لا مفـرَّ لـه منهـا. ونحـن هنـا، نُقـارب إلـى حـدٍّ كبيـر، أن الجسـد السـجني، هـو بالفعـل أصبـح عاريًـا مُجـردًا هشًّـا. كذلـك لا نقصـد اسـتحالة التغييـر، بـل هـو مُحتمـل، لكـن بيـدِ السـلطة السياسـية الخارجيـة، ومـن خلالهـا تسـتطيع المنظومـة السجـنية، إجـراء تغييـرٍ شـامل لـكلِّ مـا أحدثَـته. هـذا لا يعنـي أننـا دَائـرون فـي فَلكـة الطاعـة الفوكويـة، وأنـه لا مفـر من السـلطة، سـنعيش ونمـوت وفقًـا لرؤيتهـا ـ بـل نحـن نحصـر إمكانيـة السـلطة التـي لا تُقهـر داخـل المؤسسـة السـجنية فقـط، لا خارجهـا، بمـا امتلكَتـه الأولـى مـن أدوات قـد فَككناهـا.

أمـا الفضـاء الخارجـي، وبالرغـم مـن تَشـابهه فـي تمظهـراتٍ كثيـرة

(٢) مرجـع سـابق، إلـزا دورلـن، **فلسـفة العنـف، تمهيـد مـا فـي مقـدور الجسـد**، ص. ١. وكمـا ذكرنـا نشـرت مجلـة الجمهوريـة، هـذا التمهيـد علـى موقـع الإلكترونـي قبـل إصـدار ترجمـة الكتـاب للعربيـة، بتاريـخ ٢٥ حزيـران (يونيـو) ٢٠٢٠.

تخص الداخل السجني، إلا أن السلطة في الخارج لم تستطع تدجين الإنسان كما في الداخل، وما زال الإنسان في الخارج لديه القدرة على إحداث أمر ما. الذات التي لم تذق السجن حرّة ولا تقارن بالسجينة، والجسد الخارجي مهما باتت عليه التشكلات القهرية والقمعية من السلطات المُختلفة، ما زالت أمامه الفرصة للانتِشال من النبذ؛ أما السجين ففرصته يوم خروجه حيًّا إلى ما نسميّه الحياة.



مَن يَمتلِك حَقَّ الجسَد؟

عَبْرَ تَتَبُّعِ السِّياساتِ العِقابِيّةِ في السُّجُونِ المِصْرِيَّة وأثَرِها على السَّجيناتِ والسُّجناء، يأخُذُنا هَذَا السِّفرُ الشّامِلُ بِمَراجِعِه الغَرْبِيَّة والشَّرق أوسَطِيَّة وحِوارَاتِه مع من ذَاقَوا هَذِه المِحْنَةَ في رِحْلَةٍ إنسانيَّةٍ تُفَنِّدُ فَلْسَفَةَ امتِلاكِ السُّلْطَةِ لأجْسَادِ سُجَنائها مُنْذُ اعتِقَالِهم إلى يَوْمِ خُرُوجِهم ـ إذا ما قُيِّضَ لهم ما حَلمُوا به من أيَّامٍ خارِجَ الأغلالِ والمَطامِير.

أحمد عبد الحليم

باحثٌ مصريّ يَكتُبُ ويَنْشُرُ بالعربيَّةِ والإنكليزيّة. الجسدُ المعذَّب والاجتماعُ السياسيّ من مَواضِيْعِه الأثيرة.

لـه:

الحارة العربيّة، دار فاصلة، القاهرة ٢٠١٨.

أجسادٌ راقصة، أمم للتوثيق والأبحاث، بيروت، ٢٠٢١.